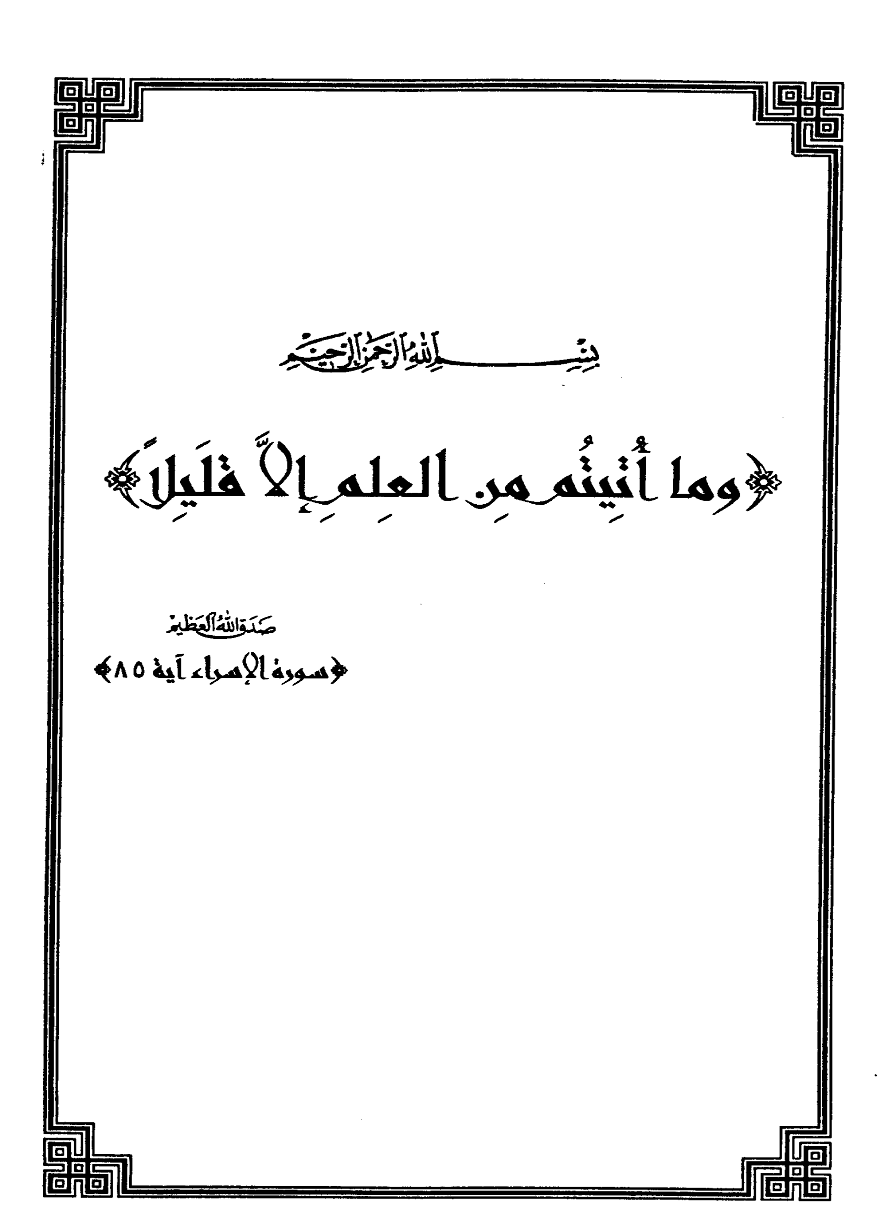
تاريخ مصر الإسلامية

للدكتــور
محمد محمد مرسى الشيخ
أستاذ بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية
والإسلامية سابقاً

٢٠٠١


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿وما أُتيتُم مِن العِلمِ إلاَّ قَليلاً﴾
صدق الله العظيم
﴿سورة الإسراء آية ٨٥﴾



تقديم

شهدت مصر منذ القدم ثراءً عظيماً فى تاريخها وفى الحقب التى مرت بها منذ أن خطت مصر أولى خطواتها وسطرت تاريخها العظيم وأسهمت فى بناء أعظم حضارة عرفتها البشرية قبل الميلاد بآلاف السنين.

وإذا كانت مصر قد أسهمت فى العصور الوسطى خلال تبعيتها للرومان والبيزنطين إسهاماً عظيماً فى مجالات مختلفة وشاركت فى بناء الحضارة العالمية وإثرت الدنيا بإسهاماتها فى المجال الحضارى والدينى رغم تبعيتها لغيرها وفقدها الاستقلال إلا أنها ظلت توجه العالم المسيحى وتلعب دوراً فاق دور الامبراطورية التى كانت تتبعها وغدا لرجالها فى الاسكندرية الكلمة العليا فى الأمور الدينية والحضارية ولم يأفل نجم مصر الحضارى على الرغم من فقدها الاستقلال السياسى.

ثم سطعت على مصر شمس الإسلام فى القرن السابع الميلادى فأعادت إلى هذا القطر بريقه ولمعانه، وشهدت مصر حقبة من أعظم حقب التاريخ أسهمت فيها مصر إسهاماً عظيماً فى بناء الحضارة الإسلامية التى تفوقت على كل حضارات الدنيا

فى العصور الوسطى وغدت أعظم حضارة عرفتها الدنيا حينذاك وكان لمصر النصيب الأوفر فى ذلك البناء وتلك الحضارة العظيمة.

ويعد تاريخ مصر الإسلامية منذ الفتح العربى الإسلامى فى العقد الخامس من القرن السابع الميلادى وحتى نهاية عهد الدولة الفاطمية إلى قرب الربع الأخير من القرن الثانى عشر الميلادى أى فترة تقترب من خمسة قرون ونصف من أهم فترات تاريخ مصر تشكلت فيها مصر دينياً ولغوياً وحضارياً وأسهمت بجانب عظيم فى تاريخ الأمة العربية الإسلامية وأثرت الحضارة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى.

وعلى الرغم من أننى أظهرت اهتماماً كبيراً بتاريخ مصر فى العصر البيزنطى أى فى الفترة السابقة مباشرة على الفتح العربى لمصر منذ أن أسند إلىّ تدريس هذا المنهج لأول مرة قبل نحو خمسة عشر عاماً عندما أدخلت هذه المادة فى لائحة قسم التاريخ حينئذ، عنيت بكتابة تاريخ مصر البيزنطية فى صفحات ظلت تدرس فى القسم حتى خلال إعارتى للعمل بالمملكة العربية السعودية وعلى مدى سنوات طويلة، أقول على الرغم من ذلك إلا أننى أظهرت نفس القدر من الاهتمام والحماسة لتاريخ مصر

الإسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية عصر الدولة الفاطمية بعد أن شاركت فى كتابة «الموسوعة المصرية» وتاريخ مصر فى العصر الإسلامى، وهى الموسوعة التى بدأ العمل فيها منذ نحو عشرين عاماً وظهرت إلى النور فعلاً سنة ١٩٩٢م وشارك فى تحريرها عدد من الإساتذة المتخصصين وكان لى شرف المشاركة فى تحرير جانب كبير من تلك الموسوعة التى نشرتها الهيئة العامة للاستعلامات بوزارة الثقافة فى جزءين وجرى ترجمتها إلى عدد من اللغات الأجنبية.

أقول هذا للتدليل على أننى لست غريباً أو بعيداً عن تاريخ مصر الإسلامية وكان اهتمامى بهذه الحقبة من تاريخ مصر سبباً فى قيامى بتدريس «تاريخ مصر الإسلامية» فى قسمى التاريخ بكلية الآداب وكلية التربية بجامعة الاسكندرية سنوات طويلة ومنذ تعيينى مدرساً بقسم التاريخ بكلية الآداب قبل نحو ثلاثين عاماً.

وبين يدى القارئ صفحات طيبة من تاريخ هذه الحقبة رأيت أن أعطيها نفس القدر من اهتمامى بتاريخ مصر فى العصر السابق للعصر الاسلامى وهو العصر البيزنطى ليكون متمماً للحقبة التى بدأت الكتابة عنها من قبل.

وعسى أن يجد فيها القارئ والطالب ما يؤمل وما يفيد وعسى أن تكون هذه الصفحات إسهاماً متواضعاً فى التأريخ لمصرنا الحبيبة فى فترة من أعز الفترات علينا وفى حقبة تأتى فى طليعة الحقب التى مرت بها على مدى تاريخها الطويل.

والله المستعان هو نعم المولى ونعم النصير،،،

والله ولى التوفيق،،،

محمد محمد مرسى الشيخ

الاسكندرية فى ربيع الأول سنة ١٤١٨هـ

سبتمبر سنة ١٩٩٨م

الفصل الأول

عصر الولاة فى مصر الإسلامية

٢١-٢٥٤هـ / ٦٤١-٨٦٨ م

الفتح العربى لمصر

أحوال مصر الداخلية قبيل الفتح العربى:

كانت أحوال مصر قد ساءت كثيراً تحت حكم البيزنطيين، واضطربت أمورها الدينية والسياسية والاجتماعية، بسبب تطرف أباطرة بيزنطة فى اضطهاد المصريين لإقبالهم الشديد على اعتناق المسيحية، وتحمسهم لهذا الدين الجديد، الذى ربما وجدوا فيه عاملاً هاماً لبعث شعورهم القومى وإبراز كيانهم، وبلغ سخط البيزنطيين على أشياع المسيحية مداه على عهد الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥) الذى كره المسيحية كعقيدة جديدة، ونظام وافد بدأ ينشط فى تحويل الرعايا عن المعتقدات الامبراطورية ويشدهم إلى عابدة إله واحد، ويحاول أن يدمر ولاءهم للإمبراطور، ثم ازداد سخطه حين اشتطت المسيحية وتطرفت وبدأت تخير أبتاعها بين الإخلاص للمسيح أو الإخلاص للإمبراطور، فضلاً عن أن المسيحية غدت دولة داخل الدولة، وشكلت جماعات سرية بدا من نشاطها أنها لا تقيم وزناً كبيراً لنظم الدولة ورسومها.

والواقع أن دقلديانوس لم يكن يرضى بغير خضوع الرعايا بديلاً، بل إنه نظر إلى محاولة المصريين تأكيد ذاتيتهم فى ظل

المسيحية نظرة ملؤها الغضب، واعتبر ذلك تهديداً خطيراً لانجازاته، ومن ثم اشتد فى اضطهاده للمسيحين عامة والمصريين بصفة خاصة، فجرى إعدام كثير من المسيحيين وإذاقتهم ألوان العذاب، وإحراق كتبهم المقدسة، وهدم كنائسهم، وإصدار قرار يحرم عتق الارقاء منهم، فضلاً عن طردهم من الوظائف العامة ونفى الكثيرين منهم، وجعل أجسادهم طعمة للنيران، الأمر الذى جعل المصريين يطلقون على السنوات الأخيرة من حكمه «عصر الشهداء» بل ويتخذون سنة ولايته فى الحكم (٢٨٤) بداية للتقويم القبطى إشارة إلى الجور والظلم والاضطهاد الذى عاناه الأقباط فى مصر على يدى ذلك الإمبراطور، حتى تخلى كثير من المسيحيين عن عقيدتهم وتحولت السنوات الأخيرة من حكم دقلديانوس إلى محنة للمسيحية وأتباعها لا سيما فى مصر.

وعلى الرغم من أن الإمبراطور قسطنطين (٣٠٥-٣٣٧م) قد أصدر مرسوم التسامح الذى كفل الحرية الدينية لجميع الرعايا، وأقر إلى حد ما الأمور الدينية فى أنحاء الإمبراطورية، وعلى الرغم أيضاً من أن المسيحية قد أصبحت الديانة الرسمية فى الدولة على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس العظيم أواخر القرن الرابع الميلادى، إلا أن كل ذلك لم ينه متاعب أقباط مصر من هذه

الناحية، إذ سرعان ما تفجرت مشكلة أخرى حول طبيعة المسيح أذكت الصراع وتسببت فى موجه جديدة من الاضطهاد لمسيحى مصر. ففى حين اعتنق المصريون مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتى)، أخذت السلطات البيزنطية بمذهب الطبيعتين (الملكانى)، ومن هنا اتسمت العلاقات بين الجانبين بكثير من العنف والاضطهاد وساءت أحوال البلاد واضطربت الأمور الدينية فيها وتفجر الصراع المذهبى بينها وبين السلطة الحاكمة.

وإذا انتقلنا إلى الأحوال الاقتصادية والاجتماعية نجدها قد ساءت كثيراً فى مصر قبيل الفتح العربى، فقد أثقلت ضرائب البيزنطيين كاهل الرعايا المصريين وحولت حياتهم إلى حياة بؤس وشقاء، فى حين جرى اتباع نظام الموظفين غير المأجورين، الذين أذاقوا الأهالى الذل والهوان للحصول على الأموال والهبات وزاد العبء على الفلاحين وصغار الملاك، فهجر كثير منهم أراضيهم فاستولى عليها الإقطاعيون، وكبار الملاك حتى كادت تختفى طبقة صغار الملاك الزراعيين وأصاب الخلل أيضاً البناء الاجتماعى فاعتبر المصريون الطبقة السفلى من طبقات المجتمع وترتب على ذلك قيامهم بأشد الالتزامات قسوة، وحرمانهم من حقوقهم الاجتماعية، ومعاملتهم معاملة غير انسانية.

ولقد أدى إلى زيادة الفوضى والاضطرابات فى مصر ما حدث من انتهاز الفرس الفرصة لغزو مصر فى أوائل القرن السابع الميلادى (٦١٦م) إذا استولوا عليها واحدثوا بها الكثير من الخراب والدمار، وعلى الرغم من أن الأمبراطور هرقل قد نجح فى طرد الفرس من مصر، وجهات أخرى، وذلك سنة ٦٢٩م، فإنه فشل فى كسب ود المصريين أو وقف الصراع معهم لا سيما وقد ظلت مشكلة المذهب المونوفيزيتى تلقى ظلها على العلاقات بين الجانبين وتعرض المصريين لكره واضطهاد البيزنطيين وتخلخلت الثقة بين السلطات من ناحية والأهالى فى مصر من ناحية أخرى.

على أن هرقل أقدم بعد ذلك على فعلة تسبب بها فى زيادة سوء الفهم بين الجانبين حتى بلغ الكره بينهما مداه، وذلك حين ارسل هرقل حاكماً عاماً على مصر يجمع فى يده السلطتين الدينية والزمنية، وذلك سنة ٦٣١م أى قبيل الفتح العربى بنحو عشر سنوات، وهذا الحاكم هو قيرس الذى عرفه كتاب العرب باسم المقوقس، وقد اشتهر هذا الرجل بالعنف والغلظة، الأمر الذى أضاف إلى سود الأحوال فى مصر، وأدى إلى هروب كثير من رجالها لا سيما رجال الدين وعلى رأسهم البطريرق الانبا بنيامين، لما كان ينتظرهم من اضطهاد وعنف على أيدى الحاكم

الجديد، وبدت مصر قبيل الغزو العربى متهالكة ضعيفة، بعد أن اختلت أحوالها الدينية والاقتصادية والاجتماعية، وفر رجالها وكبار المسئولين فيها واضطربت شئونها فى الوقت الذى كان عمرو بن العاص يعد العدة لفتحها.

فكرة فتح مصر:

كانت حركة الفتوح الإسلامية قد بدأت على عهد أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذى بادر بإنفاذ جيشين فى وقت واحد إلى الشام والعراق أحدهما لقتال الروم والآخر لقتال الفرس، ونجح الجيشان فى إنزال الضربات المتوالية بالإمبراطوريتين القديمتين ففى بلاد الشام حلت الهزيمة سريعاً بالروم فى موقعة إجنادين سنة ١٤هـ (٦٣٤م) على الرغم مما حشدوه من جند، ثم أذعنت للعرب كل من دمشق وحمص سنة ١٥هـ (٦٣٥م) بعد أن تولى الخلافة عمر بن الخطاب، وعندما حاول جيش بيزنطى كبير استعادة دمشق وحمص تعرض لهزيمة ساحقة فى موقعة اليرموك سنة ١٦هـ (٦٣٦م) وتوالى سقوط المدن فى أيدى المسلمين مثل عكا وصيدا وصور وبيروت واللاذقية سنة ١٧هـ (٦٣٧م) ودانت بيت المقدس وإنطاكية فى العام التالى، وخضعت ماردين والرها وميافارقين فى أرض

الجزيرة وأرض العراق سنة ١٩هـ (٦٤٠م) كما سقطت قيصرية سنة ٢٠هـ (٦٤٠م) وبذلك حال العرب بين بيزنطة وبقية أملاكها فى مصر وشمال افريقية، وجاء دور مصر بعد ذلك.

ولقد حدث عند سقوط بيت المقدس سنة ١٧هـ ١٨هـ (٦٣٨م) أن أصر بطرقها ألا يسلم مدينته إلا للخليفة عمر بن الخطاب نفسه،وفعلاً حضر عمر وتسلم منه المدينة، ثم اتجه بعد ذلك إلى الجابية جنوبى دمشق للاجتماع بقادته ورجاله ومن بينهم عمرو بن العاص الذى كان من بين القادة الكبار، والذى عمل فى الجبهة الشامية، وإليه يرجع الفضل فى فتح مدن فلسطين وتصفية النفوذ البيزنطى فيها. ويقال أن عمر بن الخطاب فوتح فى موضوع فتح مصر وهو فى الجابية، وكان عمرو بن العاص أكثر القادة تحمساً لهذا المشروع وأشدهم حرصاً على إتمامه، لما كان يعرفه عن مصر من رخاء وثراء، وضعف فى نفس الوقت عن الدفاع عن نفسها، فضلاً عن أنه أدرك بفطرته وهو القائد الطموح أن تأمين سلامة العرب فى بلاد الشام رهن بالاستيلاء على مصر والحيلولة بين البيزنطيين وبين اتخاذها مركزاً لهجوم من جديد على بلاد الشام، ولابد وأنه أدرك أيضاً أن مصر والشام كثيراً ما خضعتا فى العصور المختلفة لحاكم واحد، لأن كل منهما يتمم الآخر ولأنه لا يمكن

اعتبار الحدود بينهما حدوداً منيعة فاصلة. كما أنهما يقعان على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب، فكانت تربطهما مصالح تجارية وحربية واحدة مصيرهما يعتبر مصيراً واحداً.

ويبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب فكر ملياً فى المشروع الذى عرض عليه لفتح مصر بل أنه تردد فى إجابة عمرو إلى مطلبه، وتريث فى ذلك ربما لضخامة المشروع من ناحية ولعدم اطمئنانه إلى كفاءة عمرو بن العاص من جهة أخرى، لا سيما وأن عمرو لم يكن قد أكد عظمته وكفاءته كقائد كبير بعد، وتكثر القصص حول الظروف والملابسات التى أذن فيها عمر بن الخطاب لعمرو بالمسير إلى مصر. وأكثر هذه القصص شيوعاً أن عمر بن الخطاب سير عمرو بن العاص لفتح مصر، وكان لايزال متردداً، واتفق معه على أنه سوف يستخير الله تعالى فى هذا المشروع، ثم يرسل لعمر وكتاباً «فأن أدركك كتابى وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف، وأن كنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره». ونظراً لتحمس عمرو لهذا المشروع فقد تعمد الا يتسلم كتاب الخليفة من الرسول إلا بعد أن دخل أرض مصر فعلاً ليمضى قدماً فى مشروعه حتى لو كان الخليفة قد أمره بالانصراف عنها

عمرو بن العاص:

هو أبو عبد الله عمرو بن العاص بن وائل السهمى فاتح مصر ومؤسس الحكم العربى الإسلامى بها، لعب عمرو قبل إسلامه دوراً هاماً فى مناهضة الإسلام والمسلمين وكان أحد دعائم الكفر وقادة الشرك، لكنه اسلم فى العام الثامن للهجرة بعد نحو عشرين عاماً من المكابرة والمعاندة فاسند إليه الرسول قيادة بعض الفرق وبعث به فى بعض الحملات لتأديب القبائل المناوئة، ثم اشترك بعد وفاة الرسول فى حروب الردة وبعثه أبو بكر على رأس أحد الجيوش لفتح فلسطين فشارك بجيشه فى موقعه إجنادين واليرموك وفى الاستيلاء على دمشق، وكان له فضل فى إخضاع إقليم الأردن وبقية فلسطين، لكن شهرته تستند كلية على فتحه مصر وربطها بعجلة الدولة الإسلامية الفتية.

كان عمرو قائداً عسكرياً طموحاً صاحب حصافة وبعد نظر بل كان داهية من دهاة العرب ومن المعدودين فى أعمال الحيلة والمكر، كما كان تواقاً إلى المجد محباً للدنيا، وليس هناك شك فى أن ذلك كله له علاقة بفتح مصر، إذ تذهب الروايات إلى أنه كان قد زار مصر فى جاهليته ورأى مبلغ ثرائها من ناحية ومدى ضعفها من ناحية أخرى، وأمدته سفرته بقدر من المعلومات عن مدى ما

بين أهلها من الأقباط والسلطات البيزنطية من عداء وعدم ثقة، ولهذا قرر القيام بفتحها منتهزاً هذه الأوضاع.

خطة فتح مصر:

سار عمرو بن العاص على رأس جيش صغير، يتراوح حسب أقوال الرواة بين ثلاثة وأربعة الآف مقاتل، لكن يبدو أنه أخذ يتزايد باستمرار بانضمام أعداد كبيرة من عرب جنوبى فلسطين وسيناء وشرقى الدلتا، وهى الجهات التى كانت تعمرها فى ذلك الوقت قبائل عربية كثيرة وبطون من قضاعة وبنى راشدة وقبائل أخرى من لخم وجذام. وكانت العريش أول مدينة مصرية يستولى عليها عمرو بن العاص فى أوائل سنة ١٩هـ (أوائل سنة ٦٤٠م) ثم سار بعد ذلك إلى الفرما (بلوزيوم) شرقى بورسعيد الحالية التى كانت تقع على رأس الطريق الصحراوى القديم المؤدى إلى مصر، وعلى الرغم مما صادفه العرب عندها من مقاومة لحصانتها ولقلة خبرة العرب فى دك الحصون وتخريبها فقد استطاع عمرو أن يستولى على الفرما بعد حصار لم يستمر أكثر من شهر واحد، ثم قرر بعد ذلك هدم أسوارها وحصونها حتى لا يضطر لترك حامية فيها مع قلة عدد جنده وصغر جيشه، ثم تقدم بعد ذلك نحو بلبيس وحاصرها نحو شهر آخر

استطاع فى نهايته أن يلحق الهزيمة بحامية الروم فيها، ويتقدم بعد ذلك بخطى ثابتة نحو نهر النيل إلى قرية أم دنين شمالى حصن بابليون، وكانت هذه القرية ميناء هاماً على النيل شمالى حصن بابليون يسهل الاتصال بينها وبين هذا الحصن.

وصل عمرو بن العاص إلى أم دنين فى جمادى الأول سنة ١٩هـ (مايو سنة ٦٤٠م) فادرك القائد الرومانى تيودور، وكذلك المقوقس أن الأمر يعد خطيراً، فعادا إلى حصن بابليون ينظمان الدفاع فيه ويحشدان قواتهما للذود عنه. ويبدو أن عمرو أحس بدوره بعظم المقاومة فى هذه البقعة، فأرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستنجد به ويطلب المدد فأمده عمر بجيش قوامه نحو خمسة آلاف جندى على رأسه أربعة من كبار الصحابة هم الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد وقيل خارجة بن جذافه بدل مسلمة. وكان حصن بابليون يقع جنوبى عين شمس فى مواجهة جزيرة الروضة، ويعد هو والمنطقة من حوله مركز القوة الفعلية البيزنطية فى مصر، وكان الروم قد تأهبوا للحرب وحفروا حوله خندقاً، ولهذا لقى عمرو ومن معه عناء شديداً لقلة عددهم من ناحية وقلة الأقوات من ناحية أخرى واضطر عمرو إلى ارسال السرايا لجلب المؤن من الجهات المجاورة، ولكن بعد وصول المدد ارتفعت روح العرب

المعنوية وقويت عزائمهم، وبدأ عمرو يعد العدة لمعركة فاصلة مع الروم في مصر.

ولقد تأكد عمرو بن العاص أن أمر الروم سيطول خلف أسوار الحصن، ولهذا عمل على جذبهم إلى الخارج والدخول معهم في معركة فاصلة، ووفق في ذلك فعلاً إذ وضع خطة فيها كثير من المكر والخداع وقسم جيشه إلى مجموعة من الفرق، وجعل بعضها في كمائن خلف تلال رملية وبعض الكثبان والسواتر على حين جعل فرقة منها تهاجم الحصن وتتظاهر بالانهزام حتى يخرج الروم في أثرها، وحين اندفعت القوات الرومية خلف تلك الفرقة المنهزمة برزت لها الفرق الأخرى من مكامنها، فأبادت أغلبها وشتت شمل الباقي منها، ولاذت فلول الروم بالحصن على حين هامت جموع كثيرة منهم في مصر السفلى. وهكذا لحقت الهزيمة بالروم فيما عرف بموقعة عين شمس وهي التي حدثت في رجب سنة ١٩هـ (يوليو سنة ٦٤٠م) وقررت هذه المعركة مصير مصر كلها.

ويبدو أن وقع الهزيمة كان ثقيلاً على بقية الحاميات البيزنطية في مصر، إذ فزع حاكم الفيوم الرومي على أثر ما بلغه من أخبار انتصار العرب وتداعي قوة الروم فترك مدينته ليلاً وفر إلى

نقيوس فى الشمال تاركاً مدينته دون حام أو مدافع، فأرسل عمرو إليها فرقة من جيشه ادخلتها فى طاعة المسلمين، وذلك فى صيف سنة ١٩هـ كما غزت فرقة أخرى إقليم وسط الدلتا حتى منوف الحالية منتهزة فرصة الهلع الذى أصاب الحاميات البيزنطية والفزع الذى سيطر عليها فى شتى البقاع.

أصبح فى وسع عمرو بعد انتصاره فى عين شمس - تشديد الحصار على الحصن فهاجمه من جميع جهاته، ونصب عليه منجنيقات، وبرز قادة الروم حينئذ تيودور وأوقيانوس، وذكرت الرواية العربية قائداً آخر سمته الأعيرج، وهرع إلى الحصن جماعات من الأهالى من غير الجند من المناطق المحيطة ومن الأديرة المجاورة فضلاً عن جماعات جند الأقباط ومقدميهم. أما المقوقس فقد غادره حين اشتد حصار العرب له فعبر إلى جزيرة الروضة، وأمر بقطع الجسر الذى يصلها بالحصن ولحق به الأعيرج فى نفر قليل من أعوانه حيث اتخذوا الروضة مقراً لقيادتهم.

ومع ذلك فيبدو أن المقوقس أحس بعبث المقاومة، وأدرك أنه من الأوفق طلب الصلح من العرب فبدأ بالاتصال بعمرو يعرض المفاوضة فرد عليه عمرو بإرسال وفد من رجاله، على رأسه عبادة

بن الصامت الذى عبر فى حديث بليغ عن روح العرب الأصيلة فى الجهاد وطرح فى نهاية حديثه شروط العرب الثلاثة: الإسلام أو الجزية أو القتال فمال المقوقس إلى الجزية على الرغم من معارضة رجاله وكبار أعوانه، غير أن سقوط الحصن فى يد عمرو أثناء المفاوضات أجبر المعارضين على الاذعان فتم عقد معاهدة بابليون التى جاءت بداية التفاهم بين عمرو وأهل مصر، وكان من أهم شروطها أن يخرج الجند من الحصن فى ظرف ثلاثة أيام وأن يرحلوا عن طريق نهر النيل وإلا يحملوا معهم سوى ما يكفيهم من القوت بضعة أيام، وأن يؤول الحصن إلى العرب بجميع ما فيه من ذخائر وآلات وعدة وعتاد، وهكذا سقط الحصن فى يد العرب وبدأت مرحلة هامة فى قصة الفتح العربى لمصر.

موقف الأقباط فى مصر من الفتح العربى:

قبل أن نمضى فى خطة إتمام الفتح لابد أن نشير إلى موقف أقباط مصر من الفتح العربى لمصر، إذ يبدو أنهم أدركوا بعد تقدم جيش عمرو أن المسألة أكبر من مجرد غارة من غارات العرب، وأنه غزو منظم يهدف إلى طرد البيزنطيين من البلاد، ولهذا فقد برز بطريرق الأقباط الأنبا بنيامين من مخبئه بعد أن اختفى نحو عشر سنوات قبيل الفتح على أثر عزله واضطهاده على أيدى

السلطات البيزنطية ويقال أنه كتب بعد خروجه من مكمنه إلى إخوانه يقول «أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم انقطع، ويأمر القبط بتلقى عمرو، فيقال أن القبط الذين كانوا بالفرما صاروا يومئذ لعمرو إخوانا».وعلى كل حال حدد اقباط مصر موقفهم بعد سقوط الفرما، ومالوا مع العرب ضد الروم غير أن هذا الميل لم يأخذ شكلاً علنياً إلا بعد سقوط حصن بابليون وفتح العرب للفيوم، وتأكد نصر العرب النهائى على المقاومة البيزنطية.

ولقد ساعدت سياسة عمرو بن العاص فى مصر على الفصل بين الأقباط والحامية البيزنطية قبيل موقعة عين شمس، لاسيما أولئك الأقباط الذين حافظوا على ولائهم للرورم، وشاركوا فى الدفاع عن الحصن، فاتصل عمرو برجلين من زعماء الأقباط وتحدث معهما حديثاً طيباً رقيقاً وذكر لهما وصية رسول الله صلى الله عيله سولم بالأقباط وعرض عليهما الإسلام وقال: «فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجبنا إليه عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة» وكان لكلامه أثر عميق فى نفسيهما فردا عليه رداً جميلاً، ثم اندلعت بعد ذلك الحرب فى عين شمس، ولكن ليس هناك شك فى أن قلوب الأقباط فى مصر مالت إلى جهة العرب.

وبعد سقوط حصن بابليون أصبح تأييدهم للعرب سافراً، إذ أخذوا ينضمون صراحة للعرب ويعملون فى جانبهم، فحين شرع عمرو فى السير إلى الاسكندرية لاستكمال الفتح، أصلحوا له الطرق، واقاموا الجسور والأسواق وأمدوه بالمئون. وخلاصة القول أن أقباط مصر وجدوا فى غزو العرب لمصر فرصة التخلص من حياة الظلم والعسف التى عاشوها فى ظل الحكم البيزنطى، ولم يكن ثمة ما يمنعهم عن التعبيير عن فرحهم وتأييدهم لهذا الفتح، ثم الانضمام صراحة إلى جانب العرب بعد أن تأكدوا من نجاح العرب فى خطتهم وسقوط حصن بابليون.

استيلاء العرب على الإسكندرية وإتمام الفتح:

استقر رأى عمرو بعد ذلك على المسير إلى الإسكندرية للاستيلاء عليها، وكانت الاسكندرية عاصمة لمصر وكبرى مدنها، كما كانت إحدى مدن الدنيا الهامة قديماً، لها أسوار شاهقة وأبراج قوية ودفاعات متينة، فضلاً عن وقوعها على ساحل البحر مما يسهل لها الاتصال بالعاصمة البيزنطية ولم يلق عمرو فى طريقه إلى الاسكندرية مقاومة تذكر فى المدن التى قابلته وأهمها طرنوط (الطرانة) ونقيوس وسلطيس وكوبون وهذه الأخيرة كانت آخر حصن فى الطريق إلى الاسكندرية،

وبسقوطها فتح الطريق تماماً إلى العاصمة المصرية وكانت الاسكندرية كما سبقت الإشارة المعقل الكبير للروم فى مصر كما أنها المركز الأول للنشاط السياسى والاقتصادى والثقافى فى مصر منذ عهد البطالمة كما كان موقعها على ساحل البحر الأبيض المتوسط يكفل لها حماية بحرية، فضلاً عن حصانة أسوارها وقوة حصونها وسهولة الاتصال بينها وبين القسطنطنية، وإمكان إمدادها بالمؤن والرجال والعتاد، حشد فيها الروم قوتهم الحقيقية إدراكاً منهم أنها مفتاح مصر الحقيقى، بل أن الإمبراطور هرقل أعلن أنه عازم على الخروج إليها بنفسه ليمنع العرب من الاستيلاء عليها لولا أن دهمه الموت فى أوائل سنة ٢٠هـ (٦٤١م) حيث قضى نحبه وهو يحاول عبثاً منع العرب من الاستيلاء على أغلى درة فى عقد إمبراطوريته ألا وهى مصر.

تأكد عمرو بن العاص من استحالة اقتحام أسوار الاسكندرية وحصونها، فضلاً عن استحالة إحكام الحصار عليها من جهة البحر، لا سيما وأن العرب كانوا لا يزالون يرهبون البحر ولا سبيل إلى منع أسطول الروم من إمدادها بالمؤون والعتاد والرجال للدفاع عنها ولهذا قرر عمرو ترك قوة من جيشه تواصل حصارها من جهة الجنوب، وسار على رأس بعض فرقه لإخضاع

بعض مدن مصر السفلى مثل دمنهور وسخا وأواسط الدلتا، ثم عاد إلى حصن بابليون ومنه سار إلى الصعيد حيث أتم فتح جانب كبير من مصر الوسطى.

وكانت أحوال الامبراطورية البيزنطية قد ساءت عقب وفاة هرقل وتولى العرش بعده ولده فى وصاية الإمبراطورة، التى أدركت استحالة المقاومة ضد العرب، ولهذا منحت المقوقس سلطات واسعة لعقد الصلح مع العرب، وفعلاً نجح المقوقس فى عقد الصلح الأخير مع عمرو بن العاص، وهو ما عرف بصلح الاسكندرية تمييزاً له عن صلح بابليون، ولأنه تناول فى جملته شروطاً تختص بأهالى الاسكندرية دون غيرها، ومن أهم شروطه:

أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد، وأن تعقد هدنة أمدها أحد عشر شهراً ويتم خلالها جلاء الروم عن مصر مبحرين إلى بلادهم وأن يلتزم العرب ببقائهم فى مواضعهم لا يسعون لقتال الروم، كما يكف الروم كذلك عن قتال العرب، وأن يسمح لجند الروم بالخروج من الاسكندرية بسلاحهم وأمتعتهم وأموالهم على أن يرحلوا بطريق البحر، وعلى كل من يريد اتخاذ طريق البر أن يدفع مبلغاً معلوماً فى كل شهر ما بقى فى أرض مصر

إلى أن يتم ترحيله، وأن يتعهد جيش الروم بعدم السعى للعودة إلى مصر أو محاولة استردادها، وأن يتعهد العرب من جانبهم بعدم المساس بدور العبادة المسيحية أو منع المسيحيين من إقامة شعائرهم أو التدخل فى شئونهم الدينية، وأن يسمح لليهود بالإقامة فى الاسكندرية، وأن يثبت الروم حسن نيتهم بتقديم عدد من الرهائن يبلغ مائة وخمسين من الجنود وخمسين من غير الجنود ضماناً لالتزامهم بتنفيذ بنود المعاهدة. وتم الاتفاق على هذه المعاهدة فى شهر نوفمبر سنة ٦٤١م. وأبحر جنود الروم فى سبتمبر من العام التالى (٢١هـ) .

وتم لعمرو الاستيلاء على مصر وإدخالها فى حظيرة الدولة الإسلامية الفتية. وكان لعمرو أن يتيه فخراً بأنه القائد الذى أهدى للعرب أغنى وأثمن ما ملكه الروم، ووضع لهم قدماً ثابتة فى شمال أفريقية، أتاحت لهم بعد ذلك الاستيلاء على المغرب والأندلس، وفتحت لهم باباً للدخول إلى جوف القارة الإفريقية.

ولم يغب عن عمرو أن للبيزنطيين قواعد فى غربى الإسكندرية فى برقة وطرابلس وليبيا وشواطئ مفتوحة على البحر، ولهذا بعث ببعض فرقه لتأمين هذه النواحى وطرد البيزنطيين منها، فاستولى جنوده على برقة واقتحموا طرابلس

وأوغلوا إلى أبعد منها، ثم عادوا إلى برقة بعد أن سدوا المنافذ أمام الروم وأمنت حدود مصر الغربية، فى الوقت الذى اتجه فيه عمرو إلى إحكام السيطرة على أنحاء مصر، ولم تنته سنة ٢٥هـ (٦٤٥م) إلا وكانت مصر بأكملها قد صارت فى قبضة المسلمين فضلاً عن عقد اتفاقية البقط مع النوبة لتأمين حدود مصر من ناحية الجنوب.

إرساء قواعد الحكم العربى الإسلامى فى مصر:

اتجه عمرو بعد إتمام الفتح إلى إرساء قواعد الحكم العربى الإسلامى فى مصر، فاتخذ للبلاد عاصمة جديدة هى الفسطاط، التى أسسها قرب حصن بابليون فى موقع متوسط بين مصر السفلى ومصر العليا على طريق الصحراء إلى جزيرة العرب، ثم أعاد حفر الخليج الذى كان يخرج من النيل شمالى بابليون إلى القلزم على البحر الأحمر، والذى أطلق عليه خليج أمير المؤمنين، وأسس جامعه المعروف باسمه بالفسطاط، وأقر الحرية الدينية للأقباط ورفع الاضطهاد والغبن عنهم فأخذ هؤلاء يتمتعون بفترة جديدة من التسامح والسلام لم يشهدوها منذ زمن بعيد.

على أن عمرو أظهر بصيرة نافذة وبصراً بالأمور حين عمد إلى إبقاء الجهاز الإدارى والمالى كما هو، حتى لا تضطرب الأمور

بانتقال مقاليد السلطة إلى العرب، ولهذا بقى بعض كبار الإداريين من الروم فى مناصبهم، أما من نزح منهم فقد حل محله نفر من أقباط مصر، وبقى الإشراف العام للعرب بطبيعة الحال.

ولقد وجه عمرو اهتمامه منذ البداية للموارد المالية من الجزية والخراج وسلك فى ذلك مسلكاً يتسم بقدر كبير من العدل والرحمة، فجعل جزية أهل الذمة فى مصر دينارين على كل رجل وأعفى منها الصغير والشيخ والنساء والرقيق والمرضى والمعدومين بل جعلها على الطبقة الوسطى من الناس مخففاً عن الفقراء مضيفاً إلى التزامات الأغنياء، وجعل الخراج متغيراً بحسب علو الفيضان ووفرة المحصول، تقرره لجنة فى كل قرية بما يناسب المحصول ويطابق الحال، ويخصص جزء منه لإصلاح مرافق القرية والاهتمام بشئونها الدينية والمدنية، لكن يبدو أن توخى عمرو حد القصد والاعتدال فى جباية الخراج وكذلك عنايته بأحوال العمران، فضلاً عما أثير حول حجزه جانباً من الدخل لنفسه، قد جعله يتباطأ أحياناً فى ارسال الخراج إلى المدينة أو يرسل قدراً لا يتناسب وفكرة الخليفة عمر عن ثراء مصر ورخاءها ولهذا فقد حفظت لنا المراجع بعض الخطابات المتبادلة بين الرجلين فيها عتب وعنف بل فيها اتهام لعمرو بنهب جانب

من خراج مصر حيث قال له عمرو «لم أقدمك إلى مصر لأجعلها لك طعمة ولقومك» وكان رد عمرو فيه عتاب بليغ حيث قال «معاذ الله... فإن الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها» ومهما يكن من أمر فقد أرسل عمر مبعوثه الخاص محمد ابن مسلمة الأنصاري ليقاسم عمرو ثروته ويجبي المال بمعرفته ثم أردف ذلك بتولية عبد الله بن سعد بن أبي سرح واليا على الصعيد، وترك عمرو والياً على الوجه البحري، ولما توفي الخليفة عمر سنة ٢٤هـ (٦٤٤م) ذهب عمرو إلى المدينة لمقابلة الخليفة عثمان وطلب منه عزل عبد الله بن سعد وإسناد الولاية إليه هو، لكن عثمان أبى ذلك لأن ابن سعد كان أخا له من الرضاعة، بل إنه بادر بعزل عمرو وأسند الولاية كلها لابن سعد.

فتح الاسكندرية الثاني سنة ٢٥هـ:

عزل عمرو بن العاص إذن من مصر، لكنه لم يكد يمضي وقت طويل على عزله حتى دبت أساطيل الروم وجيوشهم في البحر تبغي استعادة مصر وطرد العرب منها، فاحتلت الاسكندرية بسهولة وتقدمت إلى أبعد منها، وعندئذ طلب عرب، مصر من الخليفة عثمان إعادة عمرو قائدا عاما لخبرته بقتال الروم وهيبته فيهم فأعاده عثمان. فنجح عمرو في إنزال الهزيمة

بالروم عند نقيوس وألجأهم إلى الارتداد إلى الاسكندرية للاحتماء بأسوارها، ثم ألقى الحصار عليها، ومالبث ان فتحها عنوة فى سنة ٢٥هـ [٦٤٥م] وهو ماعرف بالفتح الثانى، ولهذا حاول عثمان أن يسترضى عمرو فعرض عليه ولاية الشئون العسكرية بمصر دون الشئون المالية لكن عمرو رفض رفضا باتا وقال قولته الشهيرة «إننى إذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها».

ومن ثم ظل عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى ولاية مصر فى حين انسحب عمرو ليعتزل الحياة العامة لفترة، ومتنقلا بين فلسطين ومكة قبل أن يعود إلى مصر من جديد عقب أحداث الفتنة الكبرى، وبعد أن انضم إلى جانب معاوية واشترط عليه أن يحوز مصر طعمة لا يؤدى عنها خراجا وقبل معاوية ذلك، وبعد أن أدى عمرو دوره فى صف معاوية أتى لمصر وحازها من والى على بن أبى طالب بعد حرب استطاع فيها أن ينتصر على ذلك الوالى سنة ٣٨هـ ويربط مصر بعجلة الخلافة الأموية الجديدة. وعلى العموم أصبحت مصر منذ فتحها على يد عمرو بن العاص وطرد البيزنطيين منها جزءا من الدولة الاسلامية وجزءاً من الوطن العربى الكبير. وكان لعمرو فعلا أن يتيه فخرا بأنه استطاع أن يحوز لقومه أغلى درة فى عقد الامبراطورية البيزنطية فى العصور الوسطى.

الدور الذى نهضت به الفسطاط
كأول عاصمة لمصر الاسلامية

تأسيس مدينة الفسطاط:

أشرنا من قبل إلى أن عمرو بن العاص اتخذ للبلاد عاصمة جديدة هى الفسطاط التى أسسها قرب حصن بابليون وقد أشارت الروايات إلى أن عمراً فكر فى اتخاذ الاسكندرية عاصمة لمصر بعد فتحها، حين رأى عظمة الاسكندرية وقصورها وعمائرها إذ قال: «مساكن قد كفيناها» وأرسل إلى عمر يستأذنه فى ذلك إلا أن عمر كتب إليه: «انى لا أحب ان ينزل المسلمون منزلا يحول الماء بينى وبينهم فيه شتاء ولاصيفا».

فتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى الفسطاط، لأنه أحب أن يؤسس مدينة جديدة تصبح حاضرة لمصر الاسلامية وتحمل ملامح العهد الجديد وصبغته، وتكون بداية تحول جديد فى حياة الشعب المصرى، وتنهض برسالة سامية فى حياة سكان ذلك القطر العريق.

استقر رأى عمرو بن العاص على أن يختط مدينته الجديدة التى سميت الفسطاط سنة ٢١هـ [٦٤٢م] فى الفضاء المجاور لحصن بابليون قلعة الدفاع الرومانية وفى المنطقة التى كانت

مـركز القـوة الفعلية لبيزنطيـة فى مـصـر. ولقـد كثـرت الروايات والآراء حـول سـبب اخـتـيـار هذا المكان بالذات لاقـامـة الحـاضـرة الجـديدة وسـبـب تسـمـيـتهـا بالفـسطاط ولعل أكـثـر هذه الروايات شـيوعـا هـى قصـة اليـمامـة التى عشـشـت فى فـسطاط عمـرو فى المكان الذى نزل فيع العرب أثناء حصار حصن بابليون.

غيـر أن ثمة آراء أخـرى تذهب إلى القول بـأن هذا المكان اختـير بناء على دراية تامة بميزاته وحسناته، ولتوسطه بين مصـر العليا ومصـر السفلى ولتحكمه فى رأس الدلتا ولإشرافه على الوجهين، ولوقوعه على شـاطئ النيل فضلا عن أنه اشتهـر فى كل العصـور بأنه كان مركزاً حربيا واستراتيـجيا هاما، يحده النيل من الناحية الغربيـة ويسـهل الاتصال بينه وبين أنحـاء البلاد، كما يحـده جبل المقطم من الناحية الشرقية فيشكل حـدا طبيعيا وحماية حربية له ولهـذا اتخذ هذا المكـان من قبل لإقـامة عـواصـم ومـراكز دفـاع عن البلاد. فأقيمت فيه منف قـديما وحصـن بابليون الذى جهد العرب فى إسقـاطه أكثـر من سبـعة أشـهر، اى أن اختـيار هذا المـكان كان بسـبب مميزاته ومـوقعه دون جدال.

أما تسـميـتها بالفسطاط فأقرب الآراء الى الصـحة ما ذهب إليه أحـد المؤرخين المحـدثين من ان العـرب سـمـوه بالـفـسطاط أى

«المدينة» أو «مجتمع أهل المدينة» أى المكان الذى يجتمعون فيه حول جامعهم ومنزل قائدهم. ومهما يكن من أمر فإن اختيار مكان بناء الفسطاط واختيار اسمها لم يأت عفوا، وإنما بناء على بصر بالأمور وتقديرا للميزات والمحاسن قبل كل شئ.

بنى عمرو فى حاضرته الجديدة مسجده الجامع الذى عرف بجامع عمرو، وكان أول جامع يبنى فى مصر الاسلامية، كما شيد إلى الشرق منه دارا له ليتخذها مقرا، وسمح بعد ذلك للقبائل العربية أن تختط حول جامعه واهتم بتقسيم هذه الخطط بين القبائل منعا لحدوث أى نزاع بينها. واتصفت مبانى الفسطاط بأنها كانت بسيطة دون تعقيد بنيت من اللبن، وكانت ذات طابق واحد وليس فيها نوافذ، وإنما لها كوى أو فتحات صغيرة قرب السقف، بل إن مسجد عمرو الجامع كان غاية فى البساطة، سقفة منخفض وليس له صحن أو نوافذ للتهوية او الإنارة، كما لم يكن للفسطاط فى أول أمرها سور يحيط بها وأن كان قد بنى فى عصر لاحق فى عهد صلاح الدين سور كبير يضم القاهرة والفسطاط وما بينهما.

ومن الطبيعى ألا تظل الفسطاط على مساحتها فترة طويلة إذ سرعان ما ازدحمت بسكانها وعمرت أرجاؤها وعلت منازلها

وتطورت عمائرها وامتدت مساحتها لتقتطع من الفضاء حولها وتعمر فى الجهات القريبة، وبمرور الوقت كثرت أسواقها وقيسارياتها وفنادقها وعلت مبانيها وكثرت مصانعها ومتاجرها وحماماتها، كما اختصت بعض أحيائها بسكن علية القوم على حين اختصت أحياء أخرى بسكن عامة الناس والفقراء منهم، وغدت المدينة بعد ذلك مقر القادة العرب وكبار الصحابة الذين وفدوا على مصر، كما ظلت لمدة طويلة سكنا لرجال الدولة ووزرائها أو قضائها وعلمائها وفقهائها والمبرزين من رجالاتها.

الرسالة التى نهضت بها مدينة الفسطاط:

لم يكن اتخاذ الفسطاط عاصمة لمصر الإسلامية فى حد ذاته أمرا على جانب كبير من الأهمية كما لم يكن اتساعها وتطور عمائرها ومبانيها وتحويلها إلى سكن لوجهاء القوم ورجالات الحكومة، أمرا خطيرا، وإنما الأخطر من ذلك الرسالة التى كان على الفسطاط أن تنهض بها كأول عاصمة لمصر الاسلامية، فتصبح مركزا هاما لتكوين حضارة علمية جديدة فى مصر ومنطلقا كبيرا لنشر الدين الاسلامى وتعاليمه بين المصريين. والحق أن الفسطاط نهضت بجانب كبير من هذه الرسالة إذ

تحول جامع عمرو بعد تأسيسه الى مدرسة عظيمة يفد اليها كبار الصحابة ومشاهير الفقهاء لتدريس العلوم العربية كما غدت الفسطاط مركزا علميا كبيرا لتدريس العلوم المتصلة بالقرآن وتفسيره والحديث وروايته، وأصبح الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص الرائد الأول لهذه المدرسة العلمية فى الفسطاط ومؤسس المدرسة العربية فى مصر.

ولقد حرص الخلفاء على إيفاد بعض الصحابة والفقهاء إلى مصر ليفقهوا أهلها ويعلمونهم أمور دينهم فبعث الخليفة عمر ابن الخطاب «حبان ابن أبى جبلة» إلى مصر وتتابع من بعده وصول كبار الصحابة والفقاء، وعلماء الدين إلى مصر، ونبغ من المصريين كثيرون من تلامذة هذه المدرسة ومنهم: سليم بن عتر التجيبى فى القرن الأول الهجرى، كما أصبح يزيد بن أبى حبيب الأزدى من أبرز الشخصيات العلمية فى القرن الثانى الهجرى، وكان واسع المعرفة فى الناحيتين التاريخية والفقهية، فقد اخذ عنه كثير من أخبار الفتح العربى لمصر فضلا عن أنه كان أول من عنى بالتشريع الدينى فى مصر، ونبغ من تلاميذ يزيد اثنان من أعلام المدرسة المصرية هما: عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد وقد نهض هذان العالمان بحركة تدوين الكتب وتأليفها فى مصر مسايرة للاتجاهات التى سادت فى مختلف ولايات الدولة

الاسلامية حين شرع علماء الاسلام فى تدوين الحديث والفقه والتفسير.

ولقد سايرت مصر أيضا أقطار العالم الاسلامى فيما ظهر من اتجاهات مذهبية. فبعد ظهور أبى حنيفة ومالك، وتعصب كل فريق من أنصار هذين المذهبين لمذهبه، وقيام المجادلات والنقاش بينهم حدث نفس الشئ فى مصر وعكست مصر تلك الاتجاهات المذهبية حتى كان وصول الإمام الشافعى إلى مصر حيث لقى ترحيبا كبيرا من المصريين، واستضافته أسرة من خيرة الأسر وأعلمها وأكثرها مالا وكرما فى الفسطاط وهى أسرة بنى عبد الحكم، فاتخذ الشافعى لنفسه حلقة فى جامع عمرو يتلقى عليه أتباعه ومريدوه وطلاب العلم، حيث ظل يفسر القرآن ويروى الحديث ويعلم العربية فى مصر نحو خمس سنين حظى خلالها بحب واحترام المصريين وذاع صيته فيها ونال منزلة سامية. لعلمه وأدبه وعروبته، وانتشر خلالها مذهبه فى مصر فأصبح له أتباع ومشايعون يضافون إلى أتباع المذاهب الأخرى المالكية والحنفية والحنبلية.

ولم تقتصر النهضة العلمية فى الفسطاط على المسلمين من العرب الذين نزحوا إلى مصر وإنما برز أيضا نفر من أهل البلاد

الأصليين من المصريين الذين دخلوا فى الاسلام ومنهم على سبيل المثال: عثمان بن سعيد المصرى المعروف بورش الذى نبغ فى قراءة القرآن، واشتهر بإحدى القراءات المنسوبة إليه، وكذلك ذو النون الاخيمى أحد رؤوس الصوفية ومؤسسها فى مصر الذى توفى سنة ٢٤٥هـ [٨٥٩م] وغيرهما من أبناء مصر الذين شاركوا فى ركب العلم فى مدينة الفسطاط.

وهكذا اهتمت الحركة العلمية فى الفسطاط بدراسة القرآن وتفسيره وروايته واللغة العربية وعلومها، غير أنها اتجهت منذ البداية أيضا إلى كتابة التاريخ والعناية بالتاريخ المصرى بصفة خاصة ولعل ظهور المؤرخ المصرى ذائع الصيت عبد الرحمن ابن عبد الحكم صاحب كتاب «فتوح مصر والمغرب والأندلس» والمتوفى سنة ٢٥٧هـ [٨٧١م] خير دليل على عناية هذه المدرسة بالتاريخ، واذا كانت رواية التاريخ قد تأثرت فى البداية برواية الحديث إلا أنها ما لبثت بمرور الوقت أن أخذت تتحرر من ذلك الأثر، وتقدم عدداً كبيراً من المؤرخين النابغين. ويبدو أن كل علماء مصر فى ذلك الوقت قصروا نشاطهم على الفسطاط والاسكندرية، فأقاموا فيها وكونوا لهم أتباعاً وتلاميذ فى كليهما بإعتبارهما المركزين الرئيسين فى ديار مصر. وحازت الفسطاط بصفة خاصة المكانة الأولى علمياً فى مصر فى ذلك الوقت.

ومن الدراسات التى عنيت بها المدرسة المصرية أيضاً الدراسات الأدبية ورواية الشعر لا سيما وأن كثيراً من العلماء الذين وفدوا على مصر كانوا شعراء أيضاً ومنهم الشافعى نفسه، بل أن كثيراً من شعراء العرب المشهورين وفدوا على مصر وأقاموا فيها، ومنهم من توفى بها ودفن بأرضها. فقد وفد على مصر كبار شعراء العرب أمثال: جميل بثينة وكثير عزة، وعبد الله بن قيس الرقيات، وفى العصر العباسى وفد عليها أبو نواس حوالى سنة ١٩٠هـ (٨٠٦م) والمتنبى وغيره من مشاهير الشعراء، وفى القرن الثالث والرابع الهجريين أصبح فى الفسطاط نخبة من الشعراء والأدباء والمؤرخين.

والواقع أن مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط غداً مسرحاً لحلقات متنوعة فى الدراسات المختلفة إلى جانب ما تكون من حلقات فى المساجد الأخرى التى انشئت بعد ذلك فى الفسطاط وضواحيها، بل عقدت هذه الحلقات العلمية فى دور الوزراء والأمراء وبعض أسواق الفسطاط كسوق الوراقين، وشهدت الفسطاط حركة علمية نشطة وعاشت مرحلة هامة فى تاريخها الفكرى والثقافى منذ البداية.

ولقد اتجهت المدرسة الفكرية فى مصر إلى الناحية العلمية

البحتة أيضاً وعرفت كثيراً من العلماء فى تلك المرحلة دون شك، صلة لما كان قائماً فى مصر فى العصور القديمة والحقبة السابقة على الفتح العربى، وكانت الاسكندرية مهد هذه الحركة العلمية، التى عنيت بدراسة الطب والفلك والتنجيم والهندسة، والتى نقلت الكتب القديمة عن السريانية واليونانية والقبطية، وإذا كانت هذه الحركة قد نهض بها فى البداية لفيف من النصارى واليهود، فإنه لم يلبث المسلمون أن شاركوا هؤلاء فى هذه الحركة بل نبغوا فى هذا الميدان أيضاً مثلما نبغوا فى الميادين الأخرى، فقد أشار ابن النديم إلى أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية، وكان معنياً بدراسة الكيمياء، والذى أمر بعض العلماء المقيمين بالاسكندرية بنقل بعض الكتب فى الكيمياء من اليونانية والقبطية إلى العربية فتوفر بعضهم على نقل هذه الكتب حتى ليعد هذا العمل أول نقل إلى العربية فى الإسلام.

وفى مجال الطب نجد أن مدرسة مصر نبغت أيضاً وقدمت لفيفاً من أشهر اطباء العصر، فقد أشار ابن ابى اصيبعة إلى بعض أطباء المصريين المشاهير الذين ذاع صيتهم على عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز وعهد الخليفة هارون الرشيد. وغنى عن البيان شهرة أطباء أحمد بن طولون الذين كانوا دون شك امتداداً لعهد زاهر فى الطب قبل ذلك، منذ ان أسهمت مصر

وأسهم أطباؤها فى النهضة العلمية مجاراة لما ساد العالم الإسلامى من نهضة فى ذلك الوقت، بل والتفوق أحياناً على علماء غيرها من الأمصار الإسلامية فى تلك المرحلة والمراحل التالية على وجه الخصوص.

انتشـــار الإســـلام وحـركـــة تعـــريب مصـــر

تم الفتح العربى لمصر، وأرسى العرب دعائم الحكم الاسلامى فيها، وجرى تأسيس مدينة الفسطاط وأخذت تلك العاصمة تنهض برسالتها السامية، والواقع أن ذلك كله لم يكن نهاية المطاف بالنسبة لهذا الحدث الفريد، وإنما الأخطر من ذلك ما حدث من تعريب لمصر وانتشار للدين الإسلامى واللغة العربية فيها، وتكوين العشب المصرى الجديد الذين يدين أغلبه بالاسلام ويتحدث اللغة العربية، أى أن الأمر لم يقف عند حدوث تغييرات فى نظم الحكم وأسلوب إدارة البلاد بعد فتح العرب لمصر، وإنما تعدى ذلك إلى إحداث ثورة شاملة انتهت بتعريب مصر واعتناق غالبية أهلها الدين الإسلامى وتكوين الشعب المصرى الجديد فى حركة كبيرة جرى تعريفها بحركة تعريب مصر.

انتشار الإسلام فى مصر

كانت السرعة التى انتشر بها الإسلام فى مصر سبباً فى كثير من المزاعم التى خرج بها بعض كتاب الغرب وتبنتها الكنيسة، فبعد أن استرعى انتباه المعاصرين واللاحقين سرعة انتشار الاسلام وتحول الأقباط إلى الإسلام بدليل تناقص خراج مصر إلى أقل من النصف فى مدى سنوات قليلة، بسبب دخول

كثير من أهل مصر فى الإسلام، وسقوط الجزية عنهم، ولهذا ادعت الكنيسة أن الإسلام انما انتشر بحد السيف، وأن المسلمين فرضوا دينهم الجديد فرضاً على أهل البلاد المفتوحة. ولكن فى الحقيقة لم ينتشر الاسلام بطريق الإكراه ولم يحاول المسلمون فرض دينهم، أو عقيدتهم، على أهل البلاد المفتوحة كرهاً أو بحد السيف، فمن الثابت أن الاسلام اتصف بالتسامح فى معاملة المغلوبين، وترك المسلمون حرية العقيدة وممارسة الشعائر الدينية حرة أمام الشعوب التى سادوها. ومع هذا انتشر الاسلام انتشاراً واسعاً بين تلك الشعوب التى لا شك اهتدت إلى ما فيه من أسس تكفل الخير للناس فى الدنيا وفى الأخرة، وإلى ما دعا اليه من وحدانية وتطهر ومساواة وما أتى به من نظم وتشريع قويم وجد طريقه بسهوله إلى قلوب الناس فضلاً عما اتصف به وما دعا إليه من تسامح كل ذلك كان له ضلع فى انتشار الدين الجديد رغباً لا رهباً وطواعية لا كرهاً.

ولم يكن دخول الاقباط فى الدين جماعات تهرباً من دفع الجزية كما ادعى البعض أيضاً، لأن هذه الجزية كان مقدارها دينارين على كل شخص قادر على القتال دون الأطفال والشيوخ والنساء والمرضى والمعوزين، أى أنها بمثابة ضريبة دفاع مقابل حماية الأرواح والممتلكات وبدلاً نقدياً مقابل الإعفاء من الخدمة

الحربية، وليس من المعقول أن هذا المبلغ السنوى البسيط الذى كان يؤدى على ثلاثة اقساط فى السنة، هذا المبلغ الضئيل يتسبب فى تحويل شخص عن عقيدته، والمعروف أن اقباط مصر تحملوا على عهد البيزنطيين ألواناً من العذاب والاضطهاد وفضل كثير منهم الهيام فى الصحراء والهرب إلى الفيافى تمسكاً بعقيدته ودينه، فليس من المعقول أن يتخلى شعب كهذا عن عقيدته فى سبيل الإعفاء من مبلغ سنوى بسيط يمكن تدبيره على مدار السنة، والحقيقة التى لا يخالجنا فيها شك أن اقباط مصر وجدوا فى الإسلام على حد تعبير بعض مؤرخى الغرب المسيحيين:

«حياة تقوم على الحرية الدينية التى لم ينعموا بها قبل ذلك» فاقبلوا على الدين الجديد فى شغف ونهم ودخلوا فيه عن اقتناع وليس عن إكراه أو إرغام. وكان تحولهم السريع دليل اقتناع وإيمان كما كان نفياً لما ذهب إليه البعض من مزاعم.

ولعل أبلغ دليل على سرعة انتشار الاسلام فى مصر ما حدث من استمرار تناقص الخراج، فقد بلغ خراج مصر على عهد الخليفة عثمان بن عفان ٢٣-٣٥هـ (٦٤٣-٦٥٥م) إثنى عشر مليون دينار، فإذا بهذا المبلغ يتناقص إلى أقل من النطف على

عهد معاوية بن أبى سفيان ٤١-٦٠هـ (٦٦١-٦٧٩م) فبلغ نحو خمسة ملايين دينار. ويبدو أن والى مصر على عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ٩٩-١٠٢هـ (٧١٧-٧٢٠م) وهو أيوب بن شرحبيل أحس بتناقص الخراج كثيراً، فأرسل إلى عمر يقترح استمرار تحصيل الجزية ممن أسلم، فإذا بعمر يعنفه على ذلك ويقول له: «قبح الله رأيك إن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً، فضع الجزية عمن أسلم ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الإسلام على يديه». وظل تحول الأقباط إلى الإسلام يتقدم بمعدل سريع حتى أصبح أغلب أهل مصر مسلمين فى أوائل القرن الثالث بدليل اختفاء ثورات الأقباط على مصر اعتباراً من سنة ٢٣٩هـ (٨٥٣م) فضلاً عن استمرار تناقص الأسماء القبطية فى أوراق البردى وزيادة الأسماء الإسلامية حتى انتهى الأمر فى القرن الثالث الهجرى بغلبة أسماء المسلمين على أسماء المسيحيين الأمر الذى يؤكد ازدياد انتشار الإسلام بين أهل مصر وتحول الأقباط تباعاً إلى الدين الجديد.

انتشار اللغة العربية:

ومثلما حدث من انتشار الإسلام انتشاراً واسعاً سريعاً فى

مصر، انتشرت اللغة العربية وذاعت وتسيدت سريعاً أيضاً، فأصبحت العربية بمرور الوقت لغة الخاصة والعامة بين أهل مصر، ولم يكن ذلك بسبب سهولتها أو بساطتها كما قد يتبادر إلى الذهن، فالعربية ليست باللغة السهلة التى يمكن استيعابها بسهولة ومعرفة أسرارها فى بساطة، ولكن لأنها ضرورية لكل من اعتنق الإسلام، لحاجته إلى حفظ فاتحة القرآن وبعض آياته وسوره، أى أن انتشار الإسلام سبق انتشار اللغة العربية، هذا بالإضافة إلى حاجة الأهالى حتى من لم يسلم منهم إلى الإلمام بلغة الحكام الجدد ليستطيع مخاطبتهم وتقديم شكاياته إليهم، والتقرب إليهم ونيل الحظوة عندهم أو دفع المظلمة.

وكان تعريب الدواوين فى العصر الأموى عاملاً هاماً فى انتشار اللغة العربية فى مصر إذ غدت لغة الحكومة، ولغة الدواوين فأعطاها ذلك دفعة قوية تفوقت بها على ما عداها. فإذا كانت العربية قد عاشت لفترة إلى جانب اللغتين القائمتين فى مصر فعلاً وهما القبطية واليونانية، فإن تعريب الدواوين فى ولاية عبد الله بن عبد الملك قد أسهم إلى حد كبير فى إعطاء العربية ذلك التفوق والسيادة. وعلى حين ظلت القبطية لغة التخاطب بين عامة الناس لفترة ربما استمرت إلى القرن الثالث الهجرى نجد أن انتشار الإسلام انتشاراً واسعاً أدى إلى انكماش

القبطية حتى بين الأقباط أنفسهم حتى لم ينته القرن الرابع إلا وكانت العربية قد أصبحت هى السائدة بين أهالى مصر لتصبح كل من القبطية واليونانية لغة الأقليات. والواقع أن أوراق الدواوين فى مصر ظلت تكتب فى القرن الأول الهجرى باللغة اليونانية فى حين كانت بعض الأوراق تكتب باللغتين العربية واليونانية، لكن ما لبثت العربية أن أخذت تسود فى كتابات الدواوين حتى أن أقدم ورقة كتبت باللغة العربية فقط يرجع تاريخها إلى سنة ٩٠هـ (٨٠٩م) أى إلى أواخر القرن الأول الهجرى. فالمسألة كانت تحول من الكتابة باللغة اليونانية فى الدواوين والتخاطب بالقبطية بين عامة المصريين إلى الكتابة والحديث باللغة العربية. وقد ظل هذا التحول يسير سيراً حثيثاً طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة حتى إذا كان القرن الرابع الهجرى كان أغلب الشعب المصرى يتحدث العربية ولا يفهم القبطية وإن ظلت القبطية موجودة لم تندثر تماماً، ومعروفة فى نطاق ضيق بين بعض سكان مصر لا سيما فى الجهات المتطرفة أو النائية.

هجرة القبائل العربية إلى مصر وأثر ذلك فى حركة التعريب:

ويجب إلا يغيب عنا أن انتشار الإسلام واللغة العربية وحركة تعريب مصر لا تدين للفتح العربى كحدث عسكرى سياسى فى حد ذاته، بقدر ما تدين لحركة الامتزاج بين العرب والأهالى وهى الحركة التى صاحبت كل هذه الأحداث والتى استمرت بعد ذلك لفترة طويلة بعد الفتح، أو بعبارة أخرى إن ثمة تفاعل بين العرب وسكان البلاد الأصليين كان له الدور الرئيسى فى عملية التعريب التى عاشتها مصر بعد الفتح.

ولقد كان الجيش الذى قام بفتح مصر لا يتعدى بمن انحاز اليه من العربان اثنى عشر ألف جندى، ولم يكن هذا العدد يكفى لإحداث امتزاج بين الجانبين يعطى نتائج سريعة أو ثمار سريعة لا سيما وقد اتجه الجيش الفاتح فى البداية إلى الظهور بمظهر الأرستقراطية العربية المنعزلة، التى لا تكاد تشارك الشعب فى حياته الاجتماعية أو تمتزج بها إمتزاجاً مؤثراً، على أنه لم يمض وقت طويل حتى أخذ العرب يتدفقون على مصر فى أفواج كثيرة متلاحقة.

إذ يقال أن أحد ولاة مصر استقدم فى سنة ٤٣هـ (٦٦٣م)

نحو اثنى عشر ألفاً من العرب أنزلهم مصر فاستقروا بها، غير أن أكبر تلك الهجرات العربية هجرة القبائل القيسية إلى مصر سنة ١٠٩هـ (٧٢٧م) على عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك وولاية الوليد بن رفاعة على مصر، إذ نزح إلى مصر أربعمائة أهل بيت من بطون قيس نزلت بالحوف الشرقى حول بلبيس. فقد كانت سياسة بنى أمية هو تشجيع القيسية على النزوح إلى مصر خشية أن يستبد اليمنية بأمر مصر لاكثريتهم فيها، وتوالى تدفق البطون والعشائر القيسية على مصر طوال الفترة الباقية من عهد بنى أمية.

وفى عهد الخلافة الفاطمية تدفقت القبائل العربية على مصر أيضاً، فقد نقل الوزير اليازورى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى بعض القبائل الضاربة فى جنوب الشام وحول غزة إلى مصر وأقطعهم إقليم البحيرة، بعد أن إشتدت وطأتهم هناك وعمت ثوراتهم، كما نقل اليازورى أيضاً قبيلتى بن سليم وبنى هلال إلى الوجه القبلى، ثم سمح لهم بعبور النيل والاتجاه إلى شمال افريقية للتخلص من شغبهم من ناحية ورغبة منه فى تأديب بنى زيرى الخارجين عن طاعته من ناحية أخرى. وكان لبنى هلال وبنى سليم دور هام فى تعريب شمال إفريقية وتهذيب البربر هناك. وفى أواخر عهد الخلافة الفاطمية وعلى

عهد الخليفة الفائز نزحت قبائل أخرى إلى مصر حيث نزلت فى منطقة دمياط والبرلس ومنطقة زفتى وميت غمر.

ولما ضاقت أقاليم الوجه البحرى بالقبائل العربية تحولت هذه القبائل إلى سكن جهات الوجه القبلى فانتشر العرب فى منفلوط وأسيوط والأشمونين وإخميم وفى الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر ولا سيما فى صحراء عيذاب وحول أسوان وفى جنوبها وفى كافة نواحى مصر العليا.

إسقاط العرب من ديوان الجند فى مصر وأثر ذلك:

تدفقت القبائل العربية على مصر بعد الفتح العربى، غير أن تلك القبائل ظلت تمثل أرستقراطية عربية فترة من الزمن، اختصت بشرف الخدمة الحربية والدفاع عن البلاد وتمتعت أيضاً بالحصول على العطاء من بيت المال واحتكرت المناصب الرئيسية فى الولاية كما تمتعت بالإعفاء من دفع الخراج فى حالة الملكية الزراعية، ولكن بمرور الوقت ساحت هذه القبائل فى ريف مصر وقراها، ولم ينته القرن الأول الهجرى حتى كان العرب قد انتشروا فى قرى مصر وتغلغوا فى صميم مجتمعها، وأقبلوا على الاشتغال بالزراعة إلى جانب الرعى واحتكار الجندية.

ولقد ظلت الأمور على هذا المنوال حتى عهد الخليفة المعتصم بالله العباسى ٢١٨-٢٢٧هـ (٨٣٣-٨٤١م) الذى كان معنياً بالاكثار من الجند الأتراك فى عاصمته فأرسل إلى واليه فى مصر يأمره بإسقاط العرب من ديوان مصر وقطع أعطياتهم ومنذ ذلك الحين ساح العرب فى ريف مصر وقراها يلتمسون العيش من الزراعة والتجارة وانتهت الأرستقراطية العربية ليحل محلها امتزاج بالأهالى، وتذوب الحواجز بين الجانبين وتنكمش الفوارق وتتم أكبر عملية امتزاج بينهما أسهمت إلى حد بعيد فى تعريب مصر وصبغها بالصبغة العربية الإسلامية وتكوين العشب المصرى الجديد الذى أصبح أغلبه يدين بالإسلام ويتحدث اللغة العربية.

علاقة العرب بالأقباط فى مصر وأثرها:

وضح من العرض السابق أن العرب لم يحاربوا المصريين بل حاربوا الروم، وأن الأقباط مالوا منذ البداية للعرب لما كانوا يلقونه من الروم من الذل والهوان والاضطهاد ولما سمعوه عن عدل العرب وتسامحهم، واتخذت حركتهم صفة العلنية بعد سقوط حصن بابليون فى يد عمرو بن العاص، فصحب عمرو فى زحفه على الاسكندرية – كما سبقت الإشارة – جماعة من رؤساء

القبط وأصلح الأقباط لعمرو الطرق وأقاموا له الجسور والأسواق، ورد عمرو على ذلك بإصدار الأمان للبطريرق بنيامين الذى كان قد هرب واختفى سنوات طويلة من وجه المقوقس فعاد هذا البطريرق إلى كرسيه فى الاسكندرية، وتحددت العلاقة بين العرب والأقباط أكثر باعتبار الأقباط أهل ذمة وفرضت جزية على كل من بلغ الحلم منهم مقدارها دينارين يستثنى منها النساء والصبية والشيوخ والضعفاء.

ولما أظهره العرب من تسامح تجاه الأقباط فقد شيد هؤلاء كنائسهم وأعادوا إصلاح ما تخرب منها على أيدى الروم، كما بنوا الأديرة الكثيرة فى كافة الأنحاء وأفادوا من إعفاء العرب لرهبان الأديرة من أية جزية فاستكثروا من الرهبان وأنعشوا الحياة الديرية فى أرجاء مصر، فضلاً عما تمتع به الأقباط من حق تولى الوظائف العامة لا سيما جباية الضرائب وحكم الكورات ونال بعضهم مكانة سامية من خلال هذه الوظائف بل وجمعوا ثروات طائلة، ونالو الحظوة عند الأمراء.

ولكن يبدو أن الأمور لم تسر على هذا المنوال سوى قرن واحد من الزمان فلما فكر ولاة مصر فى زيادة مقدار الجزية عكرت هذه المسألة صفو العلاقات بين الجانبين وتذمر الأقباط،

بل وصل الأمر حد رفعهم العصيان والثورة فى وجه الولاة الأمر الذى اضطر معه الولاة إلى اخماد هذه الثورات بالقوة. فلقد لجأ والى مصر عبد العزيز بن مروان إلى فرض جزية على الرهبان لأول مرة وتعسف خليفته عبد الله بن عبد الملك بن مروان فى جمع الأموال، وزاد من الجزية المفروضة على الأقباط وألزم البطريرق بدفع ثلاثة آلاف دينار، فأدى ذلك إلى تذمر الأقباط ولجأ بعضهم إلى التنقل من منطقة إلى أخرى ليهرب من دفع الجزية، وفى ولاية قرة بن شريك بلغ التعسف مداه إذ أنزل هذا الوالى بالنصارى شدائد كثيرة واهتم بطلب المتأخر من الجزية، وفرض زيادة على خراج البلاد، وفى سنة ١٠٥هـ (٧٢٣م) وعلى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك لجأ واليه الحر بن يوسف وعامل الخراج وهو عبيد الله بن الحبحاب إلى ذيادة الضريبة فثارت بعض كور مصر واضطر الوالى إلى إخماد الثورة بالقوة سنة ١٠٧هـ وكانت هذه أول ثورة للأقباط بعد الفتح العربى، وتوالت ثوراتهم بعد ذلك كلما اشتدت وطأة الضرائب عليهم أو جرؤا على رفعها.

وعلى الرغم من أن الأقباط لم يكونوا وحدهم المقصودين بهذه الزيادات وإنما عانى منها أيضاً كافة أهل مصر بما فيهم المسلمون والعرب الذين غدوا بمرو الوقت ملاكاً للأراضى، فقد

اعتبر الأقباط أنفسهم دون شك الجانب الأعظم المضار بهذه الزيادات، ولم يقلل من هذا الشعور اشتراك العرب معهم فى ثوراتهم ضد الولاة المتشددين وعمال الخراج المتعسفين.

وطبقاً لهذا فحركة تعريب مصر وتكوين العشب المصرى الجديد أسهمت فيها عوامل مختلفة منها هجرة القبائل العربية إلى مصر فى الجزء الأخير من عصر الخلافة الأموية وما تلاه من عصور وما اقترن بتلك الهجرات من تزاوج واندماج بين العرب والمصريين، ومنها انتشار الاسلام واللغة العربية فى مصر وتحول الدواوين المصرية من اليونانية والقبطية إلى العربية، فإذا أضفنا إلى ذلك ما ترتب على ثورات الأقباط فى القرن الثانى وأوائل القرن الثالث (١٠٥-٢١٦هـ) من تفاعل الجانبين لا سيما وقد اشترك فى هذه الثورات بعض العرب، وما حدث من اسقاط العرب من ديوان الجند وقطع أعطياتهم بأمر الخليفة المعتصم بالله العباسى وسياحتهم فى ريف مصر وقراها وأقاليمها واشتغالهم بالزراعة والتجارة والصناعة وتزاوجهم من المصريات، أيقنا أن عملية تعريب مصر وصبغ الشعب المصرى بالصبغة العربية كانت تسير بخطى ثابتة فى ذلك الوقت ليخرج ذلك الشعب الجديد الذى يدين أغلبه بالإسلام ويتحدث معظمه اللغة العربية ولتكتمل بمرور الوقت حركة تعريب القطر المصرى وصبغه بالصبغة العربية الإسلامية.

موقف مصر من أحداث الدولة الإسلامية

أصبحت مصر بعد الفتح العربى قسماً من أقسام الدولة العربية الإسلامية وأصبح المصريون جزءاً من أهل الوطن الإسلامى، يتأثرون بما يتأثر به أهل ذلك الوطن، ويستجيبون للأحداث التى تمر بالخلافة الإسلامية وينفعلون لما ينفعل به أهلها، ولقد ساعد على ذلك أن مصر كانت تمثل بموقعها الجغرافى الممتاز وثرواتها وتراثها الحضارى قلباً نابضاً فى كيان الدولة الإسلامية لا يمكن أن يقف سلبياً من أحداثها السياسية والحربية والحضارية بل إن مشاركة مصر فى تلك الأحداث كثيراً ما غير من نتائج تلك الأحداث، ولا سيما وقد ماجت الدولة الإسلامية بعديد من الحركات السياسية والدينية التى شكلت معضلات للدولة وزعزعت أحياناً من سلطاتها، وكان لمصر فيها أثر واضح، بل شاركت مصر بنصيب فى تلك الحركات المختلفة، وصار لأهلها دور كبير فى صنع تاريخ الدولة الكبرى.

فلم تكد تمضى سنوات قليلة على فتح مصر، حتى حدثت الفتنة التى انتهت بقتل عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين على أثر تضافر عوامل مختلفة أدت إلى وقوع هذه الفتنة. إذ يبدو أن عثمان اتجه فى خلافته إلى تفضيل أقاربه وذوى رحمه

واستعمالهم على الولايات المختلفة الأمر الذى أثار فريقاً من المسلمين لا سيما أنصار على ابن أبى طالب الذين كانوا يحاولون تحويل الخلافة إليه، ويكثرون من نقد أسلوب عثمان فى الخلافة هذا فضلاً عن سماح عثمان لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم واقتناء الضياع والدور وتكوين الثروات، الأمر الذى بدا مغايراً لما عرفه المسلمون على عهد الرسول من تقشف وما شهدوه على عهد أبى بكر من بساطة وما عرفوه على عهد عمر من تشدد، يضاف إلى ذلك ما حدث من شعور عرب الجنوب من تسلط قريش والاستياء الذى أبدته بعض القبائل لخضوعها لحكم قريش وسيادة المجاهدين والأنصار من قريش دون سواهم.

على أن الأهم من ذلك كله أن ثمة تيار بدأ يقوى فى جوف الدولة الإسلامية يهدف إلى محاولة الكيد للإسلام والنيل من دولته وإشعال الفتنة فى البلاد، وهذا التيار لا شك حصيلة رواسب قديمة وعقد كانت لا تزال قائمة لم تحل، فإذا كان الإسلام قد أصبح شامخاً لا يمكن التصدى له أو النيل من دولته، فلا بأس من محاولة تفجيره من الداخل وإضرام الفتن فيه والوصول إلى نفس الغرض بأيدى أتباعه والقائمين على دولته، ولا بأس أيضاً من لبس مسوح التشيع والتظاهر بمساندة حق على ابن ابى طالب فى الخلافة، ولكن الهدف هو إثارة الفتنة

ومحاولة هدم الصرح الكبير الذى أقامه المسلمون فى فترة وجيزة. ولقد تمثل هذا التيار فى رجل من أهل صنعاء باليمن يدعى عبد الله بن سبأ، وكان يعرف بابن السوداء لسواد أمه، وكان يهودياً ثم أسلم، ويقال انه تظاهر بالإسلام ليتمكن من بث بذور الفتنة وليعمل على هدم أركان الدولة ويفرق بين أهلها، وقد أخذ بالطواف فى أمصار الدولة الإسلامية، يثير الشكوك وينتقد سياسة عثمان، فبدأ بالحجاز والبصرة والكوفة والشام، ولكنه لم ينجح فى الحجاز، بل طرد من البصرة والكوفة، ولم يصغ اليه فى الشام سوى أبى ذر الغفارى وكان عاملاً لعثمان على الشام، وكان أبو ذر صحابياً جليلاً ومحدثاً عرف بالزهد والتقوى والورع والتدين وطيبة القلب، وكان قد راعه ما كان يراه من إقدام عثمان على استعمال أقاربه والتمكين لهم فى الولايات وما ترتب على ذلك من تكالب هؤلاء الولاة على اقتناء العقار وتكوين الثروات، فواصل أبو ذر حملاته على سياسة عثمان مدفوعاً دون شك برغبته فى عودة عثمان إلى تعاليم الإسلام وبساطة الرسول. وخليفته غير مدرك لدوافع عبد الله بن سبأ الذى أوغر صدره وأسهم فى إثارته ضد سياسة عثمان، وظل أبو ذر يواصل هذه الحملات حتى توفى سنة ٣١هـ (٦٥١م).

فإذا لم يكن ابن سبأ قد أحرز نجاحاً فى بلاد الشام أو البصرة أو الكوفة فإنه حين انتقل إلى مصر وجد فيها مرتعاً خصباً لدعوته وظروفاً مهيأة أدت إلى استياء الناس من عثمان وأخيه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وفى مقدمة هذه العوامل وجود نفر من أعداء عثمان فيها منهم محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر، وانضم عمار بن ياسر إلى الحزب المعادى لعثمان فى مصر، بالاضافة إلى انشغال عبد الله ابن سعد بن أبى سرح فى حروبه الخارجية فى إفريقية والنوبة ضد الروم فى ذات الصوارى سنة ٣٤هـ وما لبث ابن سبأ أن أحكم خطته لتوحيد جهود المتذمرين فى بقية الأمصار الأخرى، وعقد الزعامة فى تلك الحركة لأهل مصر، وتم الاتفاق على أن يخرج من كل قطر وفد، لتتلافى هذه الوفود فى المدينة وقبل أن يخرج وفد مصر سافر عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٣٥هـ (٦٥٥م) لمقابلة الخليفة فى المدينة فانتهز الثوار الفرصة وطردوا نائبه من الفسطاط، وحين أرسل الخليفة مبعوثه سعد ابن أبى وقاص إلى مصر لتهدئتهم رفضوا استقباله ومنعوه من دخول مصر، ولما وصل بعده عبد الله بن سعد نفسه حالوا بينه وبين الدخول وأجبروه على التحول إلى عسقلان، وصارت الأمور فى يد ابن أبى حذيفة، ثم خرج وفد مصر إلى المدينة والتقى ببقية

الوفود وانتهى الأمر بمحاصرة عثمان فى داره اثنين وعشرين يوماً حتى اقتحموها عليه وقتلوه فى نفس العام فعدت هذه الثورة أول فتنة فى الإسلام بل الفتنة الكبرى فى الإسلام وعاد وفد مصر إلى بلاده بعد ذلك.

انفجر الصراع بعد ذلك بين على بن أبى طالب الذى بويع بالخلافة بعد مقتل عثمان ومعاوية بن أبى سفيان والى الشام من قبل عثمان، وانعكست الفوضى والنزاع بين الجانبين على مصر، فاغتصب محمد بن أبى حذيفة ولاية مصر بعد أن نصب نفسه زعيماً للحزب العلوى فيها وراح يتصدى لشيعة عثمان والمنادين بالانتقام لمقتله. غير أن معاوية لم يفقد الأمل فى الاستحواذ على مصر معتمداً على قوة شيعة عثمان بها ونجح فعلاً فى إثارة القلاقل فى وجه ابن أبى حذيفة حيث انتهى الأمر بقتله وظل معاوية يتربص بكل وال جديد يعينه على بن أبى طالب فى مصر، فتسبب فى عزل قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى عنها، ودبر مؤامرة لقتل الأشتر النخعى ونجح فى قتله وساعدته الظروف حين ولى محمد بن أبى بكر أمر مصر من قبل على، وكان هذا الرجل سيئ التدبير أثار بحمقه أهل مصر وفتك بشيعة عثمان، فاستغل معاوية ذلك وبعث بجيش يقوده عمرو بن العاص سنة ٣٨هـ (٦٥٨م) الحق الهزيمة

بمحمد بن أبى بكر وقتله وانهى حكم الخلفاء الراشدين فى مصر، حيث صارت مصر منذئذ ولاية تابعة للدولة الأموية.

وكان لمصر أيضاً دور فى الثورة التى أعلنها عبد الله بن الزبير ابان خلافة يزيد بن معاوية، فقد ثار عبد الله فى الحجاز، ودعا لنفسه بالخلافة سنة ٦١هـ (٦٨٠م) وبايعه بعض أهالى الأمصار الإسلامية وجماعة من أهل مصر، وأرسلوا إليه وفداً يسأله أن يبعث إليهم بأمير، فاستجاب لهم ابن الزبير وبعث إليهم بعبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهرى لينوب عنه فى حكمها، وذلك سنة ٦٤هـ (٦٨٣م) ونجح عبد الرحمن فى استخلاص مصر من عامل الأمويين بها، غير أن يزيد بن معاوية ما لبث أن توفى وآلت الخلافة إلى مروان بن الحكم الذى لم يرض بضياع مصر من حوزة الخلافة الأموية، فبعث بجيش يقوده ابنه عبد العزيز بن مروان ولحق به بنفسه وعلى الرغم من استعداد عبد الرحمن بن عتبة وحفره خندقاً حول الفسطاط للدفاع عنها فقد نجح مروان بن الحكم فى إلحاق الهزيمة به فى عين شمس، ثم دخل الفسطاط سنة ٦٥هـ (٦٨٤م) وحصل على بيعة أهل مصر وضرب رقاب من تمسك ببيعته لابن الزبير وأقام مروان بمصر شهرين وبنى بها الدار البيضاء لتكون مقراً له، ثم ما لبث أن عاد إلى الشام وولى على مصر ابنه عبد العزيز إبن مروان.

لم تهدأ الأمور لبنى امية بالاستحواذ على الخلافة، ونقل العاصمة إلى دمشق والقضاء على ثورة ابن الزبير وذلك لأن موقفهم من على ابن أبى طالب وذريته وما اتصف به هذا الموقف من خداع وعنف وقسوة أثار شعوراً بالعطف لدى كثير من الناس على العلويين وسرعان ما تحول هذا الشعور إلى حركة ضخمة زعزعت كيان الدولة الأموية وأسهمت فى زلزلة قواعدها. هذا فضلاً عن حركة الخوارج التى نادت بأن الخلافة حق لكل المسلمين يتولاها الأصلح، وليست حكراً على قريش تستأثر بها دون غيرها هذا بالإضافة الى استياء الموالى من سياسة بن أمية القائمة على تفضيل العرب عليهم والتى لم تساو بينهم وبين العرب فى الحقوق والواجبات وفقاً للشريعة الإسلامية. فإذا أضفنا إلى ذلك عوامل الانقسام داخل البيت الأموى نفسه منذ عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ١٢٥-١٢٦هـ (٧٤٣-٧٤٤م) تأكدنا أن الخلافة الأموية كانت تترنح وتوشك أن تتداعى بعد أن نخرت فى جسدها عوامل الضعف وأسهمت الحركات المشار اليها فى زلزلة قواعدها.

انتهز بنو العباس - عم الرسول - هذه الفرصة وأخذوا فى الدعوة لأنفسهم مستفيدين دون شك من حنق الشيعة ونقمة الموالى، وعمدوا إلى جعل الدعوة إلى بنى هاشم بوجه عام أو

«الرضا من آل بيت محمد» الأمر الذى جعل الشيعة يظنون أن الدعوة لآل على بن أبى طالب دون غيرهم من أهل محمد ومن بنى هاشم وانتشر دعاة العباسيين سراً فى كثير من أمصار الدولة الإسلامية يبثون دعوتهم ومن بينها مصر، وإن كانت المراكز الأساسية لهذه الدعوة فى المشرق لا سيما إقليم خراسان حيث أفاد العباسيون من تحمس الموالى وحنق المتذمرين على سياسة بنى أمية، فاندلعت الثورة هناك سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م) وألحق العباسيون الهزيمة بمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فى موقعة الزاب الأصغر بالعراق حيث فر إلى الموصل فحران ثم إلى فلسطين، ولما توالت عليه الهزائم يمم وجهه إلى مصر وعبر إلى الناحية الغربية للنيل وأمر بحرق كافة السفن فى النيل وحرق جميع المدن الواقعة على الضفة الشرقية وعلى رأسها مدينة الفسطاط نفسها حتى لا يفيد منها البعاسيون اللذين كانوا فى أثره غير أن ذلك كله لم يفد مروان بن محمد لأنه أخطأ فى معاملة أهل مصر والأقباط فيها، إذ يبدو أنه فى غمرة احتياجه للمال قرر مبالغ كبيرة على الأقباط يدفعونها له وبادر بالقبض على بطريرقهم الأنبا ميخائيل وزج به فى السجن مع عدد كبير من أعوانه وقساوسته حتى يرغمهم على دفع ما طلبه، إلا أن ذلك جعل الأقباط يرحبون بالعباسيين بل ويرشدونهم إلى

مسالك البلاد، فأفاد من ذلك القائد العباسي صالح بن على الذى وجد فى الأقباط حليفاً مخلصاً، فواصل تتبعه لمروان بن محمد حيث لحق به فى قرية بوصير من ضواحى الفيوم وقتله بها فى ذى الحجة سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م) لتشهد مصر بذلك مصرع آخر خلفاء بنى أمية ولتصبح منذئذ ولاية عباسية.

لم يقف دور مصر عند أحداث الفتنة الكبرى وأحداث ثورة ابن الزبير، وإنما شاركت مصر أيضاً فى الأحداث التى صاحبت حركة العلويين والدعوة لآل على ابن أبى طالب، إذ يبدو أن العلويين قد أدركوا بعد إعلان الخلافة العباسية انهم خدعوا على أيدى العباسيين الذين نادوا بشعار «الرضا من آل محمد» وفازوا وحدهم بالخلافة دون آل على، ولهذا ناصبوا الدولة العباسية العداء واخذوا فى بث دعاتهم فى كافة الأنحاء يدعون لآل على ابن أبى طالب ويستقطبون الأنصار والاشياع ويهيئون الأذهان لحركة كبرى ضد الخلافة العباسية.

والواقع أنه كان على العلويين أن يتعرضوا لموجه اضطهاد على أيدى العباسيين تفوق ما تعرضوا له على أيدى بنى أمية إلا أنهم لم يستسلموا بل واصلوا دعوتهم وعملوا على تقويض دعائم الخلافة الجديدة بشتى الطرق، إذ بادر محمد بن عبد الله

بن الحسن المعروف بالنفس الزكية بالخروج على الخلافة العباسية بعد إعلانها بسنوات قليلة ودعا لنفسه بين أهل الحجاز، واتخذ المدينة المنورة مركزاً لدعوته فوجد صدى وتأييداً قوياً، فارسل أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر الدعوة بالعراق كما أرسل ابنه على محمد بن النفس الزكية إلى مصر، وكان واليها حينئذ حميد بن قحطبة ١٤٣-١٤٤هـ (٧٦٠-٧٦١م) من قبل الخليفة أبى جعفر المنصور، ويبدو أن هذا الوالى كان يعطف على قضية آل على لأن الخليفة ما لبث أن عزله واتهمه بالتغاضى عن مطاردة علىّ بن محمد النفس الزكية، وعين بدلاً منه يزيد بن حاتم ١٤٤-١٥٢هـ (٧٦١-٦٧٩م) فمنع هذا الوالى أهل مصر من الحج سنة ١٤٥هـ (٧٦٢م)، حتى لا يتأثروا بثورة محمد النفس الزكية فى الحجاز، وفى هذه الأثناء انتهى أمر محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم إلى القتل سنة ١٤٥هـ، فاذن والى مصر لأهلها بالحج فى العام التالى. أما على بن محمد النفس الزكية فقد لقى تأييداً ومبايعة فى مصر لا سيما من قبل الأمويين المقيمين بها من أبناء عبد العزيز بن مروان، ولكن الأقوال تضاربت بشأن نهايته، فقيل أنه قبض عليه وحمل إلى أبى جعفر المنصور، وقيل أنه ظل مختفياً حتى توفى على عهد المهدى العباسى. لكن ما يجدر التنويه به أن حلقات ثورة

العلويين ضد الخلافة العباسية اتصلت بعد ذلك ولم تنقطع، فعلى عهد الخليفة الهادى خرج أحد أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب ويدعى الحسين عن الطاعة ودعا لنفسه بالخلافة فى المدينة أيضاً وأيده فى ذلك أخوين لمحمد النفس الزكية هما: يحيى وإدريس إلا أن العباسيين ما لبثوا أن أوقعوا به وقتلوه فى موقعة فخ الشهيرة وأتبع ذلك هروب يحيى إلى بلاد الديالمة فى حين هرب إدريس إلى مصر ميمماً وجهه شطر المغرب، ويقال أن والى مصر من قبل هارون الرشيد ويدعى على بن أبى سليمان ١٦٩-١٧١هـ (٧٨٥-٧٨٧م) تستر على إدريس الذى اختفى بمصر فترة قبل أن يعبر إلى بلاد المغرب حيث أسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى.

ولقد تعرض العلويون المقيمون بمصر لموجات من الاضطهاد على أيدى خلفاء بنى العباس لا سيما على عهد الخليفة المتوكل العباسى ٢٣٢-٢٤٧هـ (٨٤٦-٨٦١م) الذى أمر واليه على مصر بطرد العلويين المقيمين بمصر منها، فأخرجوا إلى العراق ومنها إلى المدينة، كما تعسف الخليفة المنتصر فى معاملتهم الأمر الذى جعل هؤلاء يرحبون بكل ثورة ضد الخلافة العباسية وينضمون لكل ثائر فى مصر، كما حدث إبان ثورة جابر بن الوليد المدلجى سنة ٢٥٢هـ (٨٦٦م) فى الاسكندرية ضد الخليفة المعتز

٢٥٢-٢٥٥هـ (٨٦٦-٨٦٩م) إلا أن الأمر انتهى بالقضاء على تلك الثورة وتوقيع العقوبة على أشياعها من العلويين، ولم يهدأ العلويون فى مصر إلا بقيام الدولة الفاطمية سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) فى مصر وهى الدولة التى أنهت شقاء هذا الحزب بعد اضطهاد طال إبان الحقبتين الأموية وجزء كبير من عهد الخلافة العباسية.

هذا وقد تأثرت مصر أيضاً بالنزاع بين الأمين والمأمون قرب نهاية القرن الثانى الهجرى، ونشأ فيها حزبان حزب يناصر الأمين والآخر يؤيد المأمون، ولابد وأن إقدام الأمين على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد وجعلها لابنه موسى قد أغضب فريقاً من أهل مصر وجندها بدليل تطور الأمور فيها حد إعلان خلع الأمين من الخلافة فى الوقت الذى جد فيه المأمون لمحاولة كسب مصر بإرساله رسائل إلى وجهاء القوم فى مصر يطلب مؤازرتهم، فأجابه فريق منهم، وانتهى الأمر فى مصر بخلع الأمين سنة ١٩٦هـ (٨١١م) حيث جرى طرد عامله على البلاد ويدعى جابر بن الأشعت وحل محله عباد بن محمد من قبل المأمون. على أن الأمين لم يستسلم لضياع مصر من يده، فبادر بالكتابة إلى زعيم القيسية بالحوف وهو ربيعة بن قيس الجرشى بولايته على مصر، كما كتب إلى زعماء القبائل يستميلها، فأظهرت القبائل

جميعها الولاء له وخرجوا بقيادة ربيعة إلى الفسطاط سنة ١٩٧هـ (٨١٢م) لمحاربة والى المأمون وأهل الفسطاط وجندها ولم يفد عباد بن محمد ما حفره من خندق حول الفسطاط لحمايتها إذ لحقت به الهزيمة بعد معارك ضارية تم النصر فيها لاشياع الأمين، وقبض على عباد وجرى إرساله إلى الأمين حيث تم إعدامه، ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى أخذت الأنباء تتردد بانتصار المأمون وقتل الأمين وعندئذ انسحب أهل الحوف وصفت مصر للمأمون ثانية الذى بادر بتعيين المطلب ابن عبد الله الخزاعى والياً عليها.

غير أن الفوضى استمرت فى مصر بعد ذلك فترة فأرسل المأمون عبد الله بن طاهر سنة ٢١٠هـ (٨٢٥م) ليعيد الاستقرار إليها ويعالج أمورها، ولقد نجح هذا الرجل فعلاً فى القضاء على رؤوس الفساد وأقر الأمور فى الاسكندرية، ولكنه حين عاد إلى العراق عادت الفوضى من جديد إلى البلاد واتصلت الثورات، فثار القبط ورفع الحزب المناصر للأمين رأسه ثانية، وعندئذ أرسل المأمون قائده الإفشين واضطر للمجئ هو بنفسه إلى مصر سنة ٢١٧هـ (٨٣٢م) حيث قضى بها أكثر من شهر ونصف، عنى إبانها بإعادة الاستقرار والأمن إلى ربوع البلاد وإصلاح أحوالها والقضاء على الفتن فيها.

الأحوال الداخلية والحضارية فى مصر فى عصر الولاة

لم تكن مصر عند فتحها على يد العرب بلداً عادياً كبقية البلاد التى دخلت فى حوزة الدولة الإسلامية، وإنما كانت قطراً عريقاً يضرب بحضارته فى عمق التاريخ ويسمو بتراثه فوق كثير من الأمم، إذ كان لها حينئذ نظمها العريقة وحضارتها الشامخة التى نمت وتطورت على مر العصور، ولهذا قرر العرب الا يمسوا تلك النظم أو يحدثوا فيها تغييراً بل أبقوا عليها مع شغلهم بعض المناصب الهامة ليتسنى لهم الإشراف على نظم الحكم والإدارة عموماً، وبعبارة أخرى ترك العرب لأهل الذمة فى مصر مواصلة نشاطهم الحضارى محققين لهم قدراً كبيراً من التسامح وحياة خالية من التعصب فازدهرت لذلك الحضارة المصرية بعد الفتح العربى واستقر الحكم والإدارة وانتعشت الحياة الاقتصادية وسمت الحركة العلمية والثقافية، وعاشت مصر حياة رغد وانتعاش استمرت زمناً طويلاً.

ففيما يختص بنظم الحكم، نجد أن الخليفة كان يعين والياً فى مصر من قبله تكون مهامه إمامة المسلمين فى الصلاة بوصفه نائباً عن الخليفة، وكذلك قيادة الجيش فى وقت الحرب وتأميناً

لسلامة الولاية، وكان الوالى يجمع أحياناً إلى سلطته إدارة المالية أو ما يسمى بالخراج الأمر الذى جعله مطلق التصرف فى الدولة، وأحياناً كان الخليفة - يعين عاملاً للخراج يكون مستقلاً تماماً عن الوالى مسئولاً أمام الخليفة مباشرة تقييداً لسلطة الولاة ومنعهم من التصرف فى الشئون المالية كما يشاءون. وكان من مهام الوالى أيضاً الإشراف أحياناً على بلاد برقة وما يليها من شمال إفريقية وعلى الجيوش المرسلة إلى المغرب، ولم يمنع ذلك من وجود عمال وولاة لبرقة وبلاد المغرب، وإنما جرى ضم برقة والمغرب أحياناً تحت سلطة والى مصر مباشرة. وكان ولاة مصر فى عهد الخلافة الراشدة وعهد بنى أمية من العرب فى حين وجد ولاة لمصر فى العهد العباسى من أصل فارسى وفى عهد المعتصم ولاة من الترك.

ويعاون الوالى عدد من كبار الموظفين منهم صاحب الشرطة، أى المسئول عن الأمن فى أنحاء البلاد والمنوط به تأديب الخارجين على النظام، وكان الوالى هو الذى يعين صاحب الشرطة وفى حالات نادرة جداً كان الخليفة هو الذى يعين صاحب الشرطة، أما صاحب البريد فكان المسئول عن الاتصال بين مصر ومركز الخلافة والاتصال بين مختلف الأنحاء فى مصر ولم تكن هذه الوظيفة موجودة على عهد الخلفاء الراشدين، وإنما استحدثتها

الدولة الأموية ثم تقدم نظام البريد على عهد الدولة العباسية، وإلى جانب الوالى وعامل الخراج وصاحب الشرطة وصاحب البريد وجد القضاة وكانوا مسئولين عن تحقيق العدالة بين الرعية والفصل بالعدل بين الناس، وكان عليهم أن يفصلوا فى المنازعات فى جلسات خاصة تعقد فى جامع عمرو بالفسطاط. ونظراً لتعدد مهام الوالى فقد أضحت الحاجة ماسة لعدد كبير من الكتبة ليتولوا تحرير رسائل الوالى إلى مختلف الجهات فى القطر من ناحية، وإلى الخليفة فى العاصمة من ناحية أخرى، ولهذا ذيلت رسائل ذلك العصر بأسماء الكتبة الذين تولوا تحريرها، الأمر الذى يدل على وجود ديوان للرسائل أو ديوان إنشاء فى ذلك الوقت أى من الفتح العربى حتى بداية عهد الدولة الطولونية وإن لم تكن أهمية هذا الديوان قد برزت بعد كما حدث فى العصور التالية، وفيما عدا ذلك أبقى العرب على معظم النظم المعمول بها فى مصر، كما تركوا الوظائف والأعمال الأخرى فى يد أهل البلاد.

أما بالنسبة للنظام الإدارى فقد حافظ العرب على التقسيم الإدارى الذى عرفته مصر على عهد الرومان إذ كانت مصر مقسمة إلى قسمين رئيسيين هما: مصر العليا ومصر السفلى وهذان القسمان الرئيسيان كانا منقسمين إلى أقسام أو كور بلغ

مجموعها ثمانين كورة وكل كورة منقسمة إلى قرى، ويبدو أن هذه الكور كانت هى بعينها الأقاليم المعروفة فى العهد البيزنطى باسم بجارشى وكانت جميع هذه الأقسام تحت سلطة الوالى العليا مباشرة، فلم يعط الولاة فرصة لعمال الأقاليم للتمكين لأنفسهم والاستقلال محلياً بأمور أقاليمهم أى أن الحكم فى مصر كان حكماً مركزياً مطلقاً لا مجال فيه لاستقلال محلى، أو نزعات إقليمية حتى لقد تغلغلت سلطة الوالى المطلقة فى شئون البلاد حتى بالنسبة للقضاء الذى كان يعد مستقلاً، فكثيراً ما كان الوالى هو الذى يعين القاضى حيث يجرى بعد ذلك تصديق الخليفة على ذلك التعيين.

أما بالنسبة للنظام المالى والإدارة المالية. فكما سبقت الإشارة كان الوالى هو الذى يشرف عليها أحياناً أو يعين الخليفة موظفاً مسئولاً يعرف بعامل الخراج للإشراف عليها وتمثل ضريبة الأرض الجانب الأكبر من متحصلات الإدارة المالية، فقد اعتبر العرب أن مصر قد فتحت صلحاً وليس عنوة، ولهذا تركوا الأرض بأيدى أصحابها ولم يقوموا باغتصابها، بل اكتفوا بتحصيل الضريبة عنها وهى التى عرفت باسم الخراج وكانت تجبى نقداً أو عيناً، ولقد توخى العرب جانب العدل فى تقدير هذه الضريبة فكانت تقدر حسب جودة الأرض وما تغله من محصول

وإلى جانب ضريبة الأرض أو الخراج كانت هناك ضرائب أخرى فقد فرضت الجزية على الذميين واختلفت هذه الجزية باختلاف الأشخاص وتفاوتت حسب مقدرة الشخص وحالته المالية وكانت هذه الضريبة تجبى نقداً، وكما فرضت الجزية على أهل الذمة كان يجبى من المسلمين الزكاة أو الصدقة إذ كان الولاة فى مصر يقومون بجباية فريضة الزكاة ويسلمون الأهالى براءات أو إيصالات تفيد تأديتهم الزكاة طبقاً للشريعة الإسلامية. هذا بالإضافة إلى ضرائب الصناعة والتجارة، حيث قام العرب بفرض الضرائب على الصناع والأجراء كلٍ حسب قدرته وحالته المالية، كما فرضوا ضرائب على التجارة الداخلية، وكذلك التجارة الخارجية التى تمر بالثغور مثل دمياط وتنيس ورشيد وعيذاب وأسوان والاسكندرية هذا فضلاً عن ضرائب غير عادية فرضوها كلما دعت الحاجة مثلما فعل أحمد بن المدبر قبيل ولاية أحمد بن طولون على مصر.

على أن العرب اتبعوا فى جباية الضرائب النظام الذى اتبعه البيزنطيون من قبل فى مصر إذ كانت كل قرية مسئولة بالتضامن عن الضرائب المفروضة عليها «فيجتمع عرفاء كل قرية ورؤساء أهلها فيتناظرون فى العمارة والخراب حتى إذا أقروا القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسم إلى الكورة ثم اجتمعوا هم

ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع» أى أن المسئولية كانت مشتركة بين أهل كل قرية، فإذا عجز أحد من سكان القرية عن الوفاء بما عليه وزع أهل القرية ما عجز عنه على ذوى الاحتمال. وهكذا توخى العرب جانب العدل فى جباية الضرائب ولم يلجأوا إلى الأساليب التعسفية التى لجأ إليها البيزنطيون من قبل. على أنه جرى فى مصر فى العصر العباسى نظام آخر لجباية الضرائب وهو نظام قبالات الأراضى ويشبه نظام الالتزام الذى عرفته مصر فى العهد الرومانى إذ كان التقبل لأربع سنوات وكان المتقبل يخصم من المبلغ المطالب بدفعه ما ينفقه فى الإصلاحات الضرورية.

وإذا كان عبد الملك بن مروان هو صاحب الفضل الأول فى إصلاح نظام السكة أو النقود وتوحيدها فى أنحاء الدولة الإسلامية والاستغناء عن النقود الأجنبية فان المعاملات بين الأهالى فى مصر ظلت بعد الفتح أيضاً أساسها العملة الذهبية المعروفة بالدينار يؤكد ذلك «أن خراج مصر فى قديم الدهر وحديثه إنما هو الذهب» وتؤكد الدلائل كلها ذلك فقد كانت الجزية والضرائب الأخرى وايجار الأراضى والأمور وسائر المعاملات كلها تدفع بالدنانير وأقسامها. وهى الدنانير الذهبية التى كانت معروفة قبل الفتح. وقد حرم عبد الملك بن مروان كل

السكة والنقود الأجنبية عند قيامه بالإصلاح المشار اليه، وقد استقلت السكة فى مصر عن سكة الخلافة بعد استقلالها على عهد أحمد بن طولون.

أما بالنسبة للأحوال الاقتصادية فى مصر فى عصر الولاة، فليس من شك فى أن السلم الذى شهدته مصر بعد الفتح، والتسامح الدينى والعدالة الاجتماعية التى كفلها العرب للمصريين قد أسفرت عن استقرار فى أمورها وانتعاش فى أوضاعها الاقتصادية فى كافة الميادين الزراعية والصناعية والتجارية. ففى الميدان الزراعى واصلت مصر نشاطها كبلد زراعى كبير يعتمد اعتماداً كبيراً على ماء النيل وفيضانه وطميه وزراعة أرضها الخصبة وعرف العرب مقدار ثراء مصر فى هذا الميدان فعنوا عناية خاصة بالزراعة وشق الترع وإقامة الجسور وإقامة مقاييس النيل فبنى عمرو بن العاص مقياسين الأول بأسوان ثم الثانى بدندرة، وأقيم مقياس أخر بانصنا على عهد معاوية، ثم بنى عبد العزيز بن مروان مقياساً أخر بحلوان وبنى أسامة بن زيد التنوخى مقياساً بجزيرة الروضة بأمر الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧هـ (٧١٦م) وبنى المأمون مقياساً أخر بنفس الجزيرة سنة ٢١٧هـ (٨٦١م) وفى الميدان الصناعى ظلت مصر تشتهر بصناعاتها وفنونها بعد الفتح العربى، وتعهد

العرب هذه الفنون بالرعاية والعناية وصبغوها بصبغة عربية إسلامية، فواصلت صناعة النسيج ازدهارها على عهد العرب وذاعت فكرة المنسوجات الكتانية والصوفية والحريرية التى تنتجها كل من الاسكندرية وتنيس ودمياط فى الوجه البحرى والبهنسا والأشمونين وأسيوط وإخميم فى الوجه القبلى. وحازت إخميم بصفة خاصة شهرتها بسبب مهارة بعض سكانها لا سيما الأقباط فى صناعة النسيج وخاصة المنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية، ولازالت بعض الملابس الحريرية التى عثر عليها فى إخميم تؤكد شهرتها فى القرون الأولى للهجرة فى هذا الميدان، بالاضافة إلى صناعة المسنوجات ازدهرت فى مصر صناعات أخرى كصناعة الزجاج حيث عثر على عدد وافر من الأوانى الزجاجية التى تؤكد رقى المستوى الفنى والخبرة والطويلة فى هذه الصناعة، وصناعة المعادن والأخشاب والعاج والعظم وتؤكد قطع الأخشاب المطعمة أو المرصعة بالعاج أو العظم وتحف العاج الجميلة دقة الصنع وعلو المهارة فى هذه الصناعة الدقيقة. هذا فضلاً عن صناعة الورق من نبات البردى التى تفوقت فيها مصر حيث أعدت مصر أوراق البردى على هيئة صفحات سماها العرب «القراطيس». اما بالنسبة للميدان التجارى فلقد أدرك العرب أهمية مصر التجارية وموقعها الفريد

فى التجارة بين الشرق والغرب، فاهتموا بإصلاح الطرق وتأمينها وحفر الآبار على امتدادها والعناية بالموانى الساحلية على البحرين الأبيض والأحمر. وأعاد العرب بعد الفتح مباشرة حفر القناة التى كانت تخرج من النيل لتصب فى البحر الأحمر، وهى التى سميت «بخليج أمير المؤمنين» والتى عنى بإعادة حفرها الخليفة عمر بن الخطاب، وقد أدت هذه القناة خدمة جليلة للتجارة، وهكذا انتعشت التجارة فى مصر وامتلأت أسواقها ببضائع الشرق لاسيما الجلود والفراء والتوابل والمنسوجات والرقيق والأخشاب والخيول وجنت مصر حصيلة هذا الانتعاش.

أما بالنسبة للنظام الحربى، فقد أولى العرب الجيش اهتماماً كبيراً وقصروا الخدمة العسكرية على أنفسهم دون المصريين أى أن الجيش العربى ظل خالصاً بعد الفتح دون تطعيم بأهل البلاد الأصليين باستثناء أعمال ثانوية اسندها إلى طائفة المطوعة من المصريين والمعروف أن الخليفة عمر بن الخطاب حرم على الأجناد فى مصر وفى غيرها من الأقطار الإسلامية المفتوحة امتلاك الأراضى أو الاشتغال بالزراعة حتى لا يركنوا للدعة والكسل. ويتشاغلوا بذلك عن الجهاد ويفقدوا حماستهم المتقدة وروحهم الوثابة واستعاض عن ذلك بانشاء ديوان الجند الذى سجلت به أسماء المقاتلين وحددت أرزاقهم وأعطياتهم. وكانت كل قبيلة قد

اختطت لنفسها خطة بالفسطاط فتم تسجيل الجند على حسب ترتيب القبائل التى ينتمون إليها وظل عطاء الجند قائماً فى مصر وحتى عصر المعتصم بالله العباسى الذى أمر بإسقاطهم من الديوان وقطع أعطياتهم، وترتب على ذلك انتشار العرب فى انحاء مصر يسعون وراء الرزق عن طريق آخر غير طريق الجهاد والحرب.

وليس من شك فى أن مصر تمتعت أيضاً بأهمية حربية كبيرة لفتت أنظار الغرب لموقعها الهام بين إفريقيا وآسيا وأوربا، ولأنها منطلق الفتوحات فى شمال إفريقية وجنوباً فى بلاد النوبة أى أنها غدت بعد الفتح قاعدة للتوسع، فكان لابد وأن تكون قوية ليتسنى لها القيام بهذا الدور، ولهذا عنى العرب بزيادة الحامية العربية فيها زيادة كبيرة، فأمنت مصر حدودها الجنوبية بالحروب فى النوبة وحدودها الغربية بفتح برقة، ثم شاركت بعد ذلك فى الحملات الذاهبة إلى المغرب لضمه لحظيرة الدولة الإسلامية.

على أن العرب أبدوا اهتماماً كبيراً بحماية مصر بحرياً والعناية بسواحلها، لأنهم أدركوا أن خطر البحرية الرومية على الاسكندرية كان خطراً مستمراً إذ لم ينس الروم أنهم خسروا

مصر الدرة الغالية فى عقد إمبراطوريتهم، ولابد وأنهم سيجدون فى محاولة استردادها وقد حدث ذلك مراراً فقد حاولوا استردادها سنة ٢٥هـ (٦٤٥م) إلى أن طردهم منها عمرو بن العاص مرة ثانية، كما اشتبك عبد الله بن سعد فى حرب مع الأسطول البيزنطى تحت قيادة الإمبراطور قنسطانز الثانى فى موقعة ذات الصوارى سنة ٣٤هـ (٦٥٤م) قرب سواحل الاسكندرية، وتكررت محاولات الروم ضد مصر مرات أخرى حيث هاجموا سواحلها وموانيها فى الاسكندرية وتنيس ودمياط، ففى سنة ٥٣هـ (٦٧٣م) وأثناء ولاية مسلمة بن مخلد نزل البيزنطيون بالبرلس ودافعهم المسلمون براً وبحراً واستشهد منهم الكثيرون، وهاجم البيزنطيون دمياط أيضاً فى سنوات ٩٠هـ (٧٠٩م)، ١٢١هـ (٧٣٩م)، ٢٣٨هـ (٨٥٣م) كما هاجموا تنيس سنة ١٠١هـ (٧١٩م) أى أن العرب كانوا محقين فيما اظهروه من عناية بحماية مصر بحرياً والاهتمام بثغورها وسواحلها واقامة الجند لرباط الاسكندرية، وقد اظهرت هذه العناية منذ الفتح ، فقد كاتب الخليفة عمر بن الخطاب واليها قائلا «لا تغفلها ولا تكشف رابطتها ولا تأمن الروم عليها».

ولقد أسهمت مصر نفسها بنصيب وافر فى وضع نواة البحرية الإسلامية فى البحر المتوسط وغدا عبد الله بن سعد

الذى خلف عمرو بن العاص فى ولاية مصر أمير البحر الثانى فى الإسلام بعد معاوية بن أبى سفيان أمير البحر الأول أثناء ولايته على الشام وقبل أن تصير إليه الخلافة. فكانت غزوات المسلمين ضد الروم تخرج من الشام بقيادة معاوية ومن مصر بقيادة عبد الله بعد سعد. والواقع أن العرب استفادوا فعلاً من خبرة أهل مصر لا سيما الأقباط فى صناعة السفن وتشييد دور الصناعة وأصبحت دور الصناعة فى الروضة والاسكندرية ودمياط والقلزم ترسانات كبرى لكافة أنواع السفن، وأسهمت خبرة المصريين والعمال فى مصر فى اقامة قاعدة بحرية كبرى فى مصر، فضلاً عن مد سفن الخلافة بالملاحين والعمال المهرة المدربين على شئون البحر. أى أن المصريين كان لهم الفضل الأكبر فى عظمة الدولة الإسلامية البحرية، فقد كان بناء السفن الإسلامية يتم فى البداية فى مصر فقط حتى زمن معاوية، واستطاعت الدولة الإسلامية بعد عهد الخليفة عمر أن يكون لها شأن فى البحر، فقد استولى العرب منذ عهد عثمان على بعض جزر البحر المتوسط، كما استطاعت فى خلافته أيضاً أن تلحق بالروم هزيمة ساحقة فى موقعة ذات الصوارى البحرية. وتحولت القوة البحرية الإسلامية والمصرية بمرور الوقت إلى الهجوم على بلاد الروم ذاتها وغدت الحرب البحرية بين الجانبين سجالاً،

وأظهر الخليفة المتوكل العباسى وأمير مصر فى ذلك الوقت وهو عنبسة بن اسحق، اهتماماً كبيراً بالبحرية فى مصر لا سيما بعد أن تعددت إغارات الروم على دمياط «فأنشئت الشوانى وجعلت الأرزاق لغزاة البحر.. وانتدبت الأمراء له الرماة..». وهكذا كانت عناية العرب بالبحرية المصرية ودور مصر فى دعم وتقوية هذه البحرية.

الفصل الثانى

مصر فى عهد الدولة الطولونية

٢٥٤-٢٩٢هـ / ٨٦٨-٩٠٥م

الدولة الطولونية

رأينا كيف أسفرت الفتنة التى اندلعت بين بنى هاشم وبنى أمية بعد مقتل عثمان عن فوز بنى أمية بالخلافة، ونقل العاصمة إلى دمشق وإقامة خلافة عربية خالصة، تعتمد فى وجودها على العنصر العربى وتستمد من تعصبها للعرب أسسا لمقومات وجودها ومن ضربها بشدة على أيدى الثائرين والمتذمرين - لاسيما من آل على منهاجاً لسياستها، ولكن ذلك لم يمنع العلويين من إشعال الثورات المتعددة وخلق تيار مناهض لبنى أمية لزلزلة دولتهم وأخذ الخلافة منهم، فانتهز العباسيون الفرصة لاستخلاص الخلافة لأنفسهم بعد أن دعوا لآل بيت محمد بصفة عامة وبصيغة فيها كثير من الدهاء والمكر معتمدين على العنصر الفارسى الذى تبنى دعوتهم فى خراسان وكان له الفضل الأكبر فى إظهار تلك الدعوة وإقامة الخلافة العباسية، على الرغم من أن ذلك أدى إلى إهمال العنصر العربى وإضعاف العصبية العربية بمرور الوقت.

ولقد تنبه العباسيون منذ البداية إلى خطورة الاعتماد على العنصر الفارسى والتمكين للخراسانية فى الدولة فاضطروا لقتل أبى مسلم الخراسانى فى بداية عهدهم ثم تصفية نفوذ

البرامكة فى مرحلة ثانية، وإن لم يحل ذلك دون اشتداد الصراع بين العرب والفرس خلال فتنة الأمين والمأمون فى أواخر القرن الثانى الهجرى.

غير أن العباسيين أدخلوا عصبية جديدة فى الدولة بعد عهد المأمون هى العصبية التركية للاعتماد عليها بدل الفرس والعرب، بعد أن استكثر المعتصم بالله العباسى (٢١٨-٢٢٧م) من جلب الأتراك والتمكين للعنصر التركى وإقصاء العرب عن المراكز القيادية فى الدولة وفى الجيش وفى الوظائف الإدارية فصار الوزراء والولاة فى الأمصار من الأتراك. وهذه العصبية التركية هى التى ينتمى إليها أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية فى مصر فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ٢٥٤هـ (٨٦٨م) - ٢٩٢هـ (٩٠٥م) وصاحب التجربة الاستقلالية الأولى فى تاريخ مصر الإسلامية.

أحمد بن طولون:

كان والد أحمد بن طولون مملوكاً تركياً جلب إلى بلاط الخليفة العباسى سنة ٢٠٠هـ (٨١٦م). وتقلد بعض الوظائف الصغرى فى البلاط وتدرج فيها حتى وصل إلى رئاسة حرس الخليفة. وقد ولد أحمد بن طولون ببغداد فى أغلب الظن سنة

٢٢٠هـ (٨٣٥م) وتلقى تعليماً دينياً وعسكرياً، فسمع الحديث ودرس الفقه على المذهب الحنفى ومال لصحبة الزهاد وأهل الورع، وفى نفس الوقت تلقى تعليماً عسكرياً خاصاً وعاش فترة فى مدينة طرسوس وتعلق بها كثيراً، ونال هو وأخوه موسى رعاية الجند الأتراك بعد وفاة والدهما طولون سنة ٢٤٠هـ (٨٥٤م) ولا سيما وقد تزوجت والدته زعيماً يدعى «بغا» ثم تزوجت للمرة الثالثة من «باكباك» كما تزوج أحمد بن طولون من ابنة أحد زعماء الترك أيضاً ويدعى «يارجوخ» وهى التى أنجبت له ابنه البكر «العباس».

وكانت العادة قد جرت بإقطاع زعماء الترك الإقطاعات الكبيرة فى الدولة كما جرت عادة أولئك المعطين بعدم الذهاب إلى مقر ولاياتهم أو اقطاعاتهم بل الاستقرار فى العاصمة العباسية واختيار من ينوب عنهم فى إقطاعاتهم، خشية أن يكون فى خروجهم إلى مقر ولايتهم وبعدهم عن العاصمة فرصة لأعدائهم للنيل منهم، وطبقاً لهذا اقطعت مصر لباكباك الذى اختار أحمد بن طولون لينوب عنه فيها، وظل هو مقيماً فى العاصمة العباسية.

استقلال أحمد بن طولون بمصر:

كان أحمد بن طولون أول وال فى مصر ينجح فى إقامة دولة مستقلة عن الخلافة لا تدين للخليفة العباسى سوى بتبعية إسمية. دخل أحمد بن طولون مصر فى رمضان سنة ٢٥٤هـ نائباً عن باكباك. وكان عليه أن يبذل جهداً كبيراً فى سبيل تثبيت أقدامه فى مصر والانفراد بشئونها السياسية والمالية ولهذا دخل فى صراع مع بعض موظفى الحكومة المركزية منهم عامل الخراج - أحمد بن المدبر - وعامل البريد شقير الخادم - وأفلح فى النهاية فى التخلص منهما والانفراد بشئون الولاية، ونجح فى إظهار الكيان المصرى وإبرازه كما منحه تجربة الاستقلال الذاتى لأول مرة منذ الفتح العربى.

كان أحمد بن طولون إذن غريباً عن مصر، أى أنه كان أجنبياً، لكنه أصبح بمرور الوقت من أبرز رجال التاريخ المصرى، إذ كرس حياته لبلورة الكيان المصرى داخل نطاق الكيان الإسلامى الكبير، وبذل جهوداً صادقة فى النهوض بأمر هذا الكيان المستقل بما اشتهر عنه من مهارة فى الشئون السياسية والعسكرية والإدارية، ولهذا فليس بوسعنا إلا أن نؤكد قول القائلين أنه إذا كان عمرو بن العاص صاحب الخطوة الأولى فى بناء مصر

الإسـلامـيـة. كـان ابن طولون صـاحب الخطوة الـثـانيـة فى ذلك البناء..

شـرع أحـمد بن طولون فى الاسـتـئثار بالسـلطة فى مصـر وتثـبيت أقدامه فيها فى السنوات الأولى لولايته وساعـده فى ذلك.

١ – ما حدث من انشغال الخلافة فى إخضاع الثورات المتأجمة فى المشرق من جهة.

٢ – ومـا كـان له من علاقـات طيـبـة مع بعض كـبـار الموظفين فى الحكومة المركزية فى العاصمة من جهة أخرى.

٣ – فضـلاً عن قيام الجند الأتراك بالفتن والثورات.

حـتى أدت فتن الاتراك هـذه إلـى تنحى الخـلـيـفـة المعـتـز عن الخـلافـة وانتـهى الأمـر بمقـتله سنة ٢٥٥هـ (٨٦٩م) ولحق به الخليفة المهتدى الذى أجبر هو الآخر على التنحى بعد تعذيبه، ثم قتل سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) وليس مـن شك فى أن ابن طولون أفاد كثيراً من هـذه الاحداث فى تثبيت أقدامه وتثبيت سلطته، والدليل على ذلك قـيامـه بفـرض سلطانه على عـمـال الأقـاليم فى مـصـر الذين درجـوا على الاستـهانة بالوالى وعـدم الانصيـاع لأوامره، لما حـققـوه لأنفسـهم من سلطة من ناحـيـة ولضعف الولاة قـبل ابن طولون من ناحية أخرى.

غير أن الأمور تطورت فى بلاد العراق والشام تطوراً جاء فى مصلحة ابن طولون دون شك حين حملت دسائس الأتراك فى العاصمة - الخليفة المهتدى على التخلص من باكباك وإقطاع مصر ليارجوخ الذى كان والداً لزوجة ابن طولون فقام بتثبيت ابن طولون فى النيابة عنه بمصر بل ومنحه سلطاناً تاماً على الولاية وكتب له: «تسلم من نفسك لنفسك وزاده الأعمال الخارجة عن قصبة مصر» إذ ضم إليه الاسكندرية وبرقة وبعض نواحى الحدود التى كانت خارجه عن سلطانه «فعظمت بذلك منزلته».

وإذا كانت أحداث العراق قد هيأت لابن طولون فرصة لتثبيت أقدامه واتساع نفوذه فقد أمدته فتنة ابن شيخ والى فلسطين المستبد بفرصة أخرى لتكوين جيش قوى، يكون عدته فى الاستقلال بمصر، بعد أن حصل من الخليفة على تفويض بشراء عدد كبير من المماليك بحجة إخضاع ذلك الوالى المستبد وكان ابن الشيخ قد طرح طاعة الخليفة المهتدى واستولى على سبعمائة وخمسين ألف دينار كانت فى طريقها من مصر إلى العراق ورفض إعادتها إلى الخليفة، ولما قتل الخليفة المهتدى سنة ٢٥٦هـ وبويع للمعتمد رفض ابن شيخ المبايعة له أو الخطبة باسمه فحاول الخليفة استرضاءه فأضاف إليه ولاية أرمينية زيادة

على ما بيده، لكن ذلك لم يرضه، لأنه يبدو كان يطمع فى ولاية مصر إلى جانب ولاية الشام ولهذا لم يستقم للخلافة، وظل يمارس دوره الانفصالى فى بلاد الشام وعند ذلك بعث الخليفة المعتمد إلى أحمد بن طولون يحرضه ضد ابن الشيخ ويطالبه بحربه فى الوقت الذى لم يكن فيه ابن طولون بحاجة إلى تحريض لأنه كان يرقب محاولات هذا الوالى بعين القلق ويرى فيه منافساً خطيراً وجاراً مقلقاً ينبغى القضاء عليه حتى يقر هو بمصر.

وعلى الرغم من أن ابن طولون كان متحمساً للقضاء على ابن شيخ، الا أنه بدأ بالكتابة إليه يدعوه للخضوع، ويطلب منه رد مال الخليفة والامتثال لأمره إلا أن ابن شيخ لم يمتثل، فخرج ابن طولون على رأس جيشه إلى فلسطين، وأخذ يتأهب لمهاجمته، وفى تلك الأثناء بلغه أن الخليفة سير أحد رجاله ويدعى أماجور على رأس جيش آخر لإخضاع ابن شيخ فتعمد ابن طولون التريث والتمهل حتى يقف على نتائج حملة أماجور، فقد كان فى أغلب الظن حريصا على الاحتفاظ بجيشه سليما ليكون عدته فى المستقبل وسندا له فى مشروعاته المقبلة، وفعلا جنبته الاقدار الدخول فى تلك الحرب إذ ما لبث ان علم بنجاح أماجور فى إلحاق الهزيمة بابن شيخ ودخول أماجور دمشق سنة ٢٥٧هـ [٨٧٢م]

فعاد ابن طولون إلى مصر بينما عقدت ولاية الشام لأماجور.

وتشير الدلائل إلى أن أماجور والى الشام الجديد كان يرقب محاولة ابن طولون تثبيت أقدامه فى مصر بقلق بالغ، فبعث يخوف الخليفة المعتمد منه ويحذره من أطماعه الأمر الذى جعل الخليفة يكتب الى ابن طولون يأمره بترك مصر والعود الى سامراء ليتولى منصباً فيها قاصداً إبعاده عن مصر، ولم يكن من العسير على ابن طولون أن يخرج من هذا المأزق إذ سارع بإرسال أحد ثقاته إلى سامراء سنة ٢٥٧هـ وبعث معه الهدايا الكثيرة والأموال للخليفة وحاشيته وكبار رجال دولته لاسيما الوزير الحسن بن المخلد فى الوقت الذى وقف يارجوخ فى صف زوج ابنته إبن طولون. وهكذا نجح الجميع فى إلغاء أمر الاستدعاء وإبقاء ابن طولون فى مصر دون أن يكلف هذا نفسه مشقة المثول بين يدى الخليفة وقد أدى هذا إلى يأس أعداء ابن طولون وفقدهم الأمل فى زحزحته عن مصر لاسيما عامل الخراج ابن المدبر الذى اقتنع حينئذ بعدم جدوى البقاء فى مصر إلى جانب ابن طولون، فآثر الانسحاب واخلاء مصر له، فطلب من أخيه إبراهيم بن المدبر صاحب الحظوة فى البلاط العباسى أن يتلمس له ولاية خراج أخرى غير مصر، فحصل له هذا على خراج فلسطين

ودمشق والأردن فخرج إلى هناك يائسا قبل أن يلاحقة ابن طولون ويعزله عنها حين آلت اليه بلاد الشام بالاضافة إلى مصر.

وثمة حادثة أخرى كان لها دور فى تثبيت أُقدام ابن طولون بمصر واسقلاله بها، وأعنى بها تولى ابن طولون أمر الخراج بنفسه. وذلك أن الخليفة المعتمد كان قد عقد ولاية العهد لأخيه الموفق بعد ولى العهد الشرعى جعفر المفوض بن المعتمد وأتبع ذلك بتقسيم الدولة بين الاثنين فخص الموفق الجزء الشرقى من الدولة، وخص المفوض الجزء الغربى منها بما فيه مصر، وهكذا غدا الموفق شريكا فى إدارة الدولة العباسية بينما انصرف المعتمد إلى حياته العابثة بين جواريه ومغانيه، فقد كان مؤثرا للذات الحياة مبالغا فى حياة اللهو والترف، ويبدو أنه حاول أن يحصل على خراج مصر لنفسه لينفقه على ملذاته ويكتم مقداره عن أخيه الموفق وعن رجال الدولة الأتراك، فأرسل إلى ابن طولون يطلب الخراج منه سرا، فتعلل ابن طولون بعدم استطاعته إرسال الخراج دون أن يعلم مقداره رجال الدوله فى مصر وفى العراق مالم يكن متولياً أمر الخراج بنفسه، ولهذا بعث له المعتمد بتقليد خراج مصر وأضاف إليه الثغور الشامية أيضا.

غير أن ابن طولون أظهر حنكة ومهارة عظيمة بعدم جمعه بين كل الوظائف المخولة له، فأبقى عامل الخراج وجعله متوليا هذا الأمر من قبله، واحتفظ بالسلطة العليا فى الشئون المالية، وبادر بإلغاء بعض المكوس والضرائب التى استحدثها ابن المدبر، والتى أثقل بها كاهل الشعب، وبدا أن الامر قد استقر لابن طولون بعد نحو خمس سنوات قضاها فى محاولة تثبيت أقدامه والانفراد بالسلطة الإدراية والمالية وتكوين جيش قوى يخدم اغراضه ويحقق به أهدافه العريضة.

الثورات الداخلية ضد ابن طولون:

ولم تمض تلك الفترة دون قلاقل داخلية وفتن وثورات، تعرض لها ابن طولون أولها: فتنة بغا الأصغر الذى نزل مع فريق من أنصاره بين برقة والاسكندرية ثم أعلن الثورة، ولما يمض على ولاية ابن طولون عدة أشهر واتجه إلى الصعيد لكن ابن طولون سارع بإرسال جيش لحربه والحق به الهزيمة وقتله وحمل رأسه الى إلفسطاط.

وشهد الوجه القبلى أيضاً ثورات لبعض العلويين مثل الصوفى العلوى الذى أعلن الثورة وهزم فرقة أرسلها ابن طولون لقتاله، ومثل بجثة قائدها، إلا أن ابن طولون أفلح فى النهاية فى

الإيقاع به قرب إخميم وأجبره على الهرب إلى الواحات، حيث قضى هناك نحو خمس سنوات يتحفز للثورة من جديد، واتفق أن خرج رجل آخر يدعى العمرى كان فقيهاً وعالماً يرتفع نسبه إلى الخليفة عمر بن الخطاب، وقضى شطراً من حياته فى القيروان نال فيها الحظوة لدى بنى الأغلب فى المغرب الأدنى، ثم انتقل إلى أقصى جنوب مصر، وعلى حدود النوبة حيث نجح فى جمع الأنصار وشراء الرقيق وتكوين جيش لا يستهان به شجعه على اعلان الثورة ضد ابن طولون. غير أن حركة العمرى هذا أقلقت ابن الصوفى العلوى فخرج من مكمنه فى الواحات سنة ٢٦١هـ (٨٧٤م) يبغى القضاء على هذا الثائر المناوئ، إلا أنه تعرض للهزيمة على يد رجال العمرى، ففر إلى عيذاب ومنها إلى مكة، وحينئذ أرسل ابن طولون جيشاً لقتال العمرى، لكن هذا نجح فى إنزال الهزيمة به، إلا أن الأمر انتهى بمقتل هذا الثائر على يد بعض غلمانه، وأرسلت رأسه إلى ابن طولون بمصر. وبذلك تخلص ابن طولون ممن رفعوا رايه العصيان ضده بجنوب البلاد.

علاقةابن طولون بالأمير أحمد الموفق:

لم تكن الثورات والقلاقل الداخلية خطراً حقيقياً على ابن

طولون وإنما جاء الخطر الحقيقى من ناحية الموفق ولى عهد الخلافة، فبعد أن نجح فى استخلاص تفويض من أخيه المعتمد بحكم الولايات الشرقية، عاد يلح من جديد فى طلب مصر طمعاً فى أموالها متعللاً بأنه فى حاجة إلى المال لأخضاع ثورة الزنج المتأججة فى المشرق، ولم يجد المعتمد بدأ من الموافقة على ذلك.

ولم يلبث الموفق أن أخذ يطلب الأموال والهدايا من ابن طولون، كما بعث رسولاً من لدنه لمحاولة استمالة كبار أعيان مصـرو ورجال دولة ابن طولون وليعمل على زعزعة بن طولون فى مصر توطئة لخلعه منها. غير أن الخليفة المعتمد بعث رسالة سرية إلى ابن طولون يسدى له فيها النصح ويحذره من رسول الموفق ويحمله على اليقظة لدسائسه.

وعلى الرغم من أن ابن طولون أجاب الموفق إجابة رقيقة، وبعث إليه الأموال والهدايا، إلا أن هذا لم يمنع الموفق من إعلان عدائه سافراً لابن طولون، فبعث إليه يعنفه ويطلب مزيداً من الأموال، ويحاول ممارسة سلطة استبدادية تجاهه، بل إنه استدعى موسى بن بغا وأمره بصرف ابن طولون عن مصر وتوليتها أماجور، إلا أن أماجور لم يجرؤ على إبلاغ ابن طولون

بقرار عزله، الأمر الذى دفع موسى بن بغا إلى التأهب للمسير إلى مصر لانتزاع الولاية من ابن طولون بالقوة، وزاد من حدة النزاع ما حدث من رد ابن طولون على الموفق رداً فيه جفوة وفيه تعنيف مما أهاج الموفق وأحنقه فاستحث موسى بن بغا على المسير إلى مصر.

وحين علم ابن طولون بتقدم جيش ابن بغا أخذ فى تحصين مصر وشيد أسطولاً حربياً لحماية عاصمته من جهة النيل، وأقام حصناً قوياً فى جزيرة الروضة لتأوى إليه أسرته وثروته، غير أن الحظ حالفه من جديد، فقد ثار جند ابن بغا فى وجهة مطالبين بما تأخر من رواتبهم وأعطياتهم، ووقف ابن بغا فى الرقة لايبرحها، ثم أجبر على العودة إلى العاصمة حيث جاز إلى ربه بعد نحو شهرين فى الوقت الذى أنهكت فيه حروب الزنج قوى الموفق وألهته أحداث المشرق عن مصر وشئونها، واقتنع بقوة خصمه وثبات قدمه فتجاوز فى تلك المرحلة عن مصر وواليها وآثر العافية معه، فاطمأن بن طولون وهدأ خاطره، وخرج من هذا الصراع منتصراً.

على أن مرحلة أخرى من الصراع بين الرجلين اندلعت على أثر تفجر مشكلة الخلافة من جديد بين الموفق وأخيه المعتمد،

واستفحال أمر الموفق واستبداده بشئون الخلافة وحجبه المعتمد وإذلاله له. وعندئذ أدلى أحمد بن طولون بدلوه فى هذا الموضوع، فأرسل من جانبه إلى الخليفة المعتمد يحثه على الخروج إلى مصر، والتخلص من حياة الامتهان التى يحياها فى ظل الموفق قانعاً بسلطة شكلية وخلافة اسمية إلى حدٍ بعيد. ولا يخفى على الباحث هدف ابن طولون من ذلك حتى يجعل مصر قلب العالم الإسلامى وحامية الخلافة العباسية، ويحرم الموفق من السند الشرعى الذى يستند إليه فى تصريف شئون الدولة، ويؤكد استقلاله بمصر والشام فى ظل الخليفة الحقيقى من ناحية أخرى.

ووجدت فكرة الخروج إلى مصر هوى فى نفس الخليفة المعتمد، الذى أمل فى الخلاص من حياته التعسة هناك وفى إرضاء حاجته إلى المال فى مصر، والفوز بسكينة وأمن فيها فى ظل واليها القوى أحمد ابن طولون، وخرج فعلاً فى طريقه إلى بلاد الشام إلا أن الموفق نجح فى إعادته بالقوة قبل أن يتلقاه ابن طولون على مشارف الشام التى كانت قد آلت اليه.

ولقد أهاجت هذه الحادثة الموفق الذى أدرك أن ابن طولون يبغى هدم كل مخططاته، فأعلن خلع ابن طولون من ولاية

مصر، وعين بدلاً منه اسحاق بن كنداج فرد عليه ابن طولون بإعلان نفسه حامياً للخليفة المغلوب على أمره «المعتمد». وحصل من الفقهاء على فتوى بإبطال دعوى الموفق فى ولاية العهد والخلافة، وقطع ما كان يرسله من أموال إلى العراق، وسك اسمه بجانب اسم الخليفة المعتمد على العملة، ولكنه ظل يدعو للمعتمد على المنابر. واستمر العداء بين ابن طولون والموفق حتى سنة ٢٧٠هـ (٨٨٤م)، عندما اقتنع كل منهما بعدم جدوى الخلاف والنزاع فمالا إلى الصلح وإقامة علاقة طيبة بينهما، غير أن ابن طولون ما لبث أو وافته منيته فى ذى القعدة من نفس العام سنة ٢٧٠هـ فانتهى بذلك الصراع بين الرجلين، وانتهى حكم ابن طولون لمصر بعد نحو سبعة عشر عاماً وبدأت مرحلة جديدة فى حكم آل طولون بمصر.

أحمد بن طولون يضم بلاد الشام إلى حكمه:

بعد فشل حملة موسى بن بغا وعودته إلى العاصمة العباسية دون الوصول إلى مصر اطمأن أحمد بن طولون فى مصر وهدأ خاطره لا سيما وقد استنفدت حرب الزنج قوى الموفق وألهته أحداث المشرق عن مصر وشئونها، ولهذا تطلع أحمد بن طولون لمد نفوذه فى بلاد الشام، لتأكيد زعامته واستقلاله من ناحية

وتأمين دولته المستقلة فى مصر من ناحية أخرى، وأمدته وفاة أماجور سنة ٢٦٤هـ (٨٧٨م) بفرصة مواتية لتحقيق أطماعه.

ولقد تعلل أحمد بن طولون فى خروجه إلى بلاد الشام برغبته فى إعلان الجهاد ضد الدولة البيزنطية، وتأمين حدود الدولة الإسلامية، وأناب عنه بمصر ابنه العباس، وخرج إلى دمشق حيث استقبله على بن أماجور ودخل فى طاعته، كما سارعت حمص وحماة وحلب للانضواء تحت رايته، إلا أنه اضطر لمقاتلة انطاكية ودخولها عنوة سنة ٢٦٥هـ (٧٨٩م)، كما دخل طرسوس المدينة المقربة إلى قلبه والتى كان دائم الحنين إليها، كما بعث بعض فرقه فدخلت حران وما حولها من قرى والرقة، وبذا بلغ المد الطولونى مداه وأقصى غايته.

وتشير الروايات إلى أن ابن طولون كان ينوى إعلان الحرب على البيزنطيين فعلاً، لولا ما بلغه من ثورة ابنه العباس مما اضطره للعودة إلى مصر ليضع حداً لهذه الثورة ويستعيد الولاية منه. وكان بعض القادة قد غرروا بالعباس وزينوا له الخروج على والده، فأعلن تلك الثورة واستبد بشئون الولاية، الأمر الذى أجبر ابن طولون على العودة سريعاً حيث نجح فى

إخماد الفتنة، ونكل بالمسئولين عنها، لكنه اكتفى بأن زج بابنه العباس فى السجن.

وعلى الرغم مما يثار من شكوك حول يد الموفق فى ثورة العباس واستمرار مناصبته ابن طولون العداء فى تلك المرحلة، خاصة بعد اتساع نفوذه فى مصر والشام والنوبة وقبل أن يهدأ الصراع بينهما، فان ابن طولون ظل يحرص حينئذ على ألا يعلن عداءه سافراً للخلافة، وظل يدعو للخليفة المعتمد وابنه المفوض ثم الموفق من بعده فى الخطبة، بل إنه ظل يرسل الأموال إلى بغداد فى كل عام، إلا أن ذلك كله لم يفده فى شئ، فقد ظل الموفق يتربص به الدوائر ويتحفز للايقاع به - كما سبقت الإشاره - وكان أن نجح الموفق فى استمالة لؤلؤ مولى أحمد بن طولون وقائده وعامله على بلاد الشام، فخلع هذا طاعة ابن طولون وأعلن العصيان، الأمر الذى اضطر ابن طولون للخروج من جديد إلى بلاد الشام لتأديب هذا الوالى العاصى سنة ٢٦٩هـ (٨٨٢م). وهكذا غدت بلاد الشام ضمن أملاك ابن طولون واتسع نفوذه كثيراً وبدأ فى إرساء دعائم إمارة جديدة أو دولة جديدة تحكم مصر الشام ومستقلة عن الخلافة العباسية ولم يشغل ابن طولون عن ذلك عداء الموفق له، وهو العداء الذى استمر حتى سنة ٢٧٠هـ عندما اقتنع كل منهما بقوة خصمه وثبات قدمه

فمالا إلى عقد الصلح وإحلال العلاقة الطيبة محل الفرقة والتنازع، ولم يعمر ابن طولون كثيراً بعد ذلك إذ وافته منيته فى ذى القعدة سنة ٢٧٠هـ بعد نحو سبعة عشر عاماً قضاها فى الحكم.

خلفاء أحمد بن طولون:

لعل أكبر دليل على نجاح أحمد بن طولون فى الاستقلال بمصر ومنحها عهداً جديد فى تاريخها وإبراز دورها بين أقطار العالم الإسلامى، ما حدث من قيامه بجعل الحكم وراثياً فى أبنائه وتحويل ولاية مصر والشام إلى إمارة مستقلة، وكان ذلك فى حد ذاته تحولاً خطيراً فى تاريخ مصر الإسلامية، على الرغم من أنه لم يبرز بين خلفاء ابن طولون شخص له ما عرف عن أحمد ابن طولون من مهارة فى الشئون السياسية والعسكرية والمهارة فى تسيير دفة الحكم، إلا أن الدولة الطولونية استمرت فى الحكم بعد وفاة ابن طولون أكثر من عشرين عاماً، وسط ظروف بالغة الصعوبة وفى ظل تكالب المطامع وبروز النزعة الهادفة إلى تصفية استقلالها وعادت مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية كما كانت من قبل، وعلى كل حال نجح أحمد بن طولون فى إرساء قواعد الحكم الطولونى فى الإمارة ومهد الطريق لإبنائه

للاستمرار فى الحكم فترة أخرى قبل أن تتلاحق الأحداث وتفقد تلك الإمارة استقلالها وتعود أدراجها إلى التبعية الكاملة للخلافة العباسية.

١ - خمارويه وتدعيم الإستقلال ٢٧٠هـ -٢٨٢هـ (٨٨٣-٨٩٥م)

كان أحمد بن طولون قد زج بابنه البكر «العباس» فى السجن بعد العصيان المسلح الذى قام به هذا الإبن وتوفى أحمد بن طولون ولا يزال العباس فى سجنه، ولهذا فقد اعتلى خمارويه بن أحمد بن طولون عرش الدولة الطولونية، وبايعة الجند أميراً على مصر خلفاً لوالده. ولكن أخاه العباس أظهر احتجاجاً وهو فى سجنه على هذه المبايعة، ولا سيما وأن أحمد بن طولون كان قد أوصى للعباس ببلاد الشام ومنطقة الثغور بشرط أن يبايع أخاه خمارويه أميراً على مصر.

ويبدو أن خمارويه تخوف الفتنة التى ربما يسببها أخوه العباس فعجل بقتله فى سجنه لتصفو له الإمارة كلها، وليحفظ وحدة الدولة الطولونية ويجنبها عوامل الخلاف والفرقة والتفت بعد ذلك ناحية الجيش لكسب ثقته حتى يتمكن من حفظ استقلال الإمارة خاصة وقد تحفز الموفق للقضاء على

هذا الاستقلال منتهزاً فرصة وفاة غريمه القوى أحمد بن طولون.

وقد صح ما توقعه خمارويه إذ لم يكد الموفق يعلم بنبأ وفاة أحمد بن طولون حتى تقدمت جيوشه فى بلاد الشام يقودها ابن كنداج ومحمد بن أبى الساج وانحاز اليها عامل ابن طولون على دمشق وسلم لابن كنداج أنطاكية وحلب وحمص ولهذا فقد بادر خمارويه بإرسال جيشين إلى بلاد الشام: أحدهما بقيادة كاتب أبيه أحمد بن محمد الواسطى والآخر بقيادة سعد الأيسر، كما بعث بقوة بحرية كبيرة لترابط فى السواحل الشامية.

تقدمت جيوش الموفق فى بلاد الشام، وفى نفس الوقت لجأ إلى محاولة استمالة رجال خمارويه ونجح فعلاً فى استقطاب الواسطى قائد جيش خمارويه، الذى كان يخشى غدر خمارويه لأنه هو الذى حرضه على قتل أخيه العباس. وفى ظل اضطراب خمارويه استولت جيوش الموفق على الرقة وقنسرين والعواصم ونفذت فى بلاد الشام حتى استولت على دمشق، ثم تجاوزتها إلى الجنوب وتقدمت بعد الرملة لغزو مصر ذاتها، وأوشكت الإمارة الطولونية على الانهيار. وعندئذ خرج خمارويه بنفسه من مصر لمحاولة صد القوات العباسية ولكنه تعرض للهزيمة فى

موقعة الطواحين بين الرملة ودمشق فعاد إلى مصر وترك ابن الأيسر يحاول اعادة تنظيم صفوف الجيوش الطولونية، ونجح ابن الأيسر فعلاً فى الانتصار على القوات العباسية وإجلائها عن بلاد الشام.

على أن ابن الأيسر ما لبث أن استغل هذا النصر وأخذ يعمل لحسابه وطرح طاعة خمارويه ودخل دمشق واستولى عليها لنفسه، ومرة أخرى يضطر خمارويه للخروج من مصر فى عام ٢٧٢هـ (٨٨٥م) إلى الشام حيث استطاع أن ينزل الهزيمة بابن الأيسر ويضع حداً لمشروعاته فى بلاد الشام ولحياته معاً، ثم تحول إلى ابن كنداج حليف الموفق فالحق به الهزيمة هو الآخر وطرده نهائياً من بلاد الشام، فعظمت بذلك هيبته، وبدا وقد صفت له الإمارة فعلاً، ولهذا اقتنع الموفق بأنه من العسير تحقيق القضاء على استقلال خمارويه بمصر والشام، وأنه بهذا لا يقل كفاءة عن والده فمال إلى الصلح معه، لا سيما وقد تقدم خمارويه بطلب الصلح، فأجابه الموفق بولايته على مصر والشام جميعه والثغور ثلاثين سنة نظير مبلغ يؤديه خمارويه كل عام.

غير أنه لم يمض على هذا الصلح وقت طويل حتى علم

خمارويه بتحرك محمد بن أبى الساج - حليف الموفق وعميله - يبغى غزو الشام ومصر لانتزاعها من الطولونيين. وعندئذ لم يتردد خمارويه فى الخروج إليه حيث أفلح فى إلحاق هزيمة ساحقة به على نهر دجلة وذلك فى سنة ٢٧٦هـ (٨٨٨م)، وأدى ذلك إلى امتداد نفوذ الطولونيين إلى شمال العراق بخضوع الموصل والجزيرة فضلاً عن خضوع والى طرسوس الذى كان قد خرج عن طاعتهم، وأضحت أطراف دولته تلاصق حدود الروم مما أغرى الطولونيين باستئناف حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية فاضطر البيزنطيون إلى طلب الصلح سنة ٢٨٣هـ (٨٩٦م).

وقد آذنت متاعب خمارويه على الانتهاء حين توفى الموفق سنة ٢٧٨هـ (٨٩١م) ولحق به الخليفة المعتمد فى العام التالى وتولى الخلافة العباسية أبو العباس أحمد بن الموفق باسم «المعتضد» لتبدأ صفحة جديدة فى العلاقات بين الخلافة العباسية من ناحية والدولة الطولونية من ناحية أخرى.

التفت خمارويه بعد ذلك إلى الشئون الداخلية وعول على كسب ود الأهالى محتذياً فى ذلك حذو والده فأظهر تسامحاً جماً مع النصارى وبالغ فى الإحسان إليهم كما تقرب من المسلمين وتودد اليهم وأجزل لهم العطاء الأمر الذى جعله محبوباً بين

الناس، وساعده على ذلك ما شهدته البلاد من رخاء وثراء وما ورثه عن والده من أموال طائلة. وشهدت الأيام الأخيرة من عهد خمارويه إسرافاً شديداً، إذ أقبل خمارويه على عمارة قصر أبيه وإقامة منشآته وتجميلها وأقام حديقة جامعة للنباتات والطيور والحيوانات فاقت فى أناقتها كل وصف، زرع فيها الرياحين وأصناف الشجر وأنواع الورود، وكسى أجسام النخيل نحاساً مذهباً، وجعل بين النحاس وأجسام النخيل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء، وأقام فى هذا البستان استراحة خاصة له أطلق عليها اسم «دار الذهب» لأن جدرانها كلها طليت بالذهب وأقام لنفسه بركة من الزئبق يوضع له على سطحها فراش لينام نوماً هادئاً جميلاً، كما أقام خمارويه داراً كبيرة أسماها دار الحرم نقل إليها أمهات أولاد أبيه مع أولادهن وضم اليهن المعزولات من أمهات أولاده، وخصص لهن جميعاً الخدم والأتباع والمال الجزيل واستكثر من الجوارى والغلمان، وبالغ فى الانفاق على طعامه وشرابه حتى لتذكر الروايات أن الطعام الفائض كل يوم من دار الحرم كان يوزع على الخدم والطباخين وغيرهم، فيفوز كل واحد منهم بكميات ضخمة من الدجاج ولحم الضأن. والقطائف والهرائس الشئ الكثير فكانوا يبيعون تلك الكميات الضخمة من الطعام للأهالى، وعلى أثر ذلك بدد خمارويه الثروة التى أجهد

والده نفسه فى جمعها وأتلف الأموال التى جد والده فى ادخارها لا سيما وأنه أسرف كثيراً فى تجهيز ابنته قطر الندى التى تزوجها الخليفة المعتضد وبالغ كثيراً فى جهازها حتى لتعد قصة زواج قطر الندى ملحمة فريدة فى تاريخ مصر، ودليلاً ناطقاً بعظمتها ومبلغ ثرائها.

فقد أجمعت الروايات على أن خمارويه تأنق كثيراً فى ذلك الجهاز وصرف فى إعداده أموالاً طائلة، واختار لإعداده تاجر الجواهر الشهير أبى عبد الله الحسين بن الجصاص فحشد لقطر الندى من الجهاز ما لم يحشد لعروس قط كان من جملته سريراً أربع قطع من الذهب تعلوه قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق به حجر من الأحجار الكريمة لا يعرف له قيمة، ومن أدوات المطبخ ألف هاون من الذهب ومن الثياب ألف تكة سروال ثمنها عشرة آلاف دينار.

وقد أمر خمارويه لتوفير أسباب الراحة لابنته فى طريقها إلى بغداد أن يبنى على رأس كل مرحلة قصر تنزل فيه، وأعدت هذه القصور بكل ما يحتاج إليه النازل من فاخر الأثاث والرياش فبسطت المخادع وعلقت الستور وهيئت الموائد وغصت بالخدم والحشم والجوارى والولدان، لتكون فى ترحالها ممتعة بكل

وسـائل الرفاهيـة كمـا لـو كـانت فـى قصـر أبيـهـا لـم تبـرحـه، وكـان مـوكبـهـا إلى بغـداد تحـف بـه مظاهـر الأبهـة والعظمـة حـيث جلست فـى هـودجها بين النمارق والحشـايا ناعمـة كأنها لـم تترك مـجلسـها من قصـر أبيها.

على أن أهمية هذا الزواج لا تكمن فى دلائله العادية على ثروة مصـر وعظم غناهـا أيام بنى طولون فحسب، بل أيضـاً فى كشف النقـاب عن خـبـايا العلاقـات بين مـصـر المسـتقلة تحت حكم هـذه الأسـرة، وبين الخلافـة العباسيـة الطامعة فى استـعـادة نفوذها فى تلك الإمارة الشـاردة فإن صح ما قـيل من أن الخليفـة المعتضـد مـا قـصـد بهـذا الزواج إلا افـقـار آل طولون وإفـلاس خـزائنهم توطئة لهـدم اسـتقـلالهم فـان الدلائل كلـهـا تشـيـر إلى أنه نجح فـعـلاً فى ذلك. فـقـد افـتقـر خـمـارويه وأفلسـت خـزائنه وعـزت عليـه ابسـط الأمـور كـمـا يذكـر المؤرخـون «حـتى طلب شـمـعـة فاحـتبسـت عليه سـاعـة إلى احـتيلـت» فقـال «لعن الله ابـن الجـصـاص افـقـرنى فى السـر». لكن أميـر مـصـر الشـاب اشـتـرى بذلك أمنـاً واطمـئنانـاً مـن جهة الخـلافة العباسـيـة وحـقق هدفه فى إزالة الوحشـة القائمة بين الجانبين وحـسـن العلاقات مع الخلافـة العباسـيـة وأحل بينه وبين المعتضـد مـودة كـبيرة بـدل الخلاف والحروب ولا سـيمـا وقـد ذكـرت

الروايات أن المعتضد أعجب بعروسه قطر الندى إعجاباً شديداً وافتتن بجمالها وأدبها وسرعة بديهتها، وظل خمارويه يحكم مصر والشام طوال اثنتى عشرة سنة حتى اغتيل فى دمشق على يد بعض خدمه وجواريه وهو ثمل وذلك فى سنة ٢٨٢هـ (٨٩٥م).

٢ – نهاية الدولة الطولونية:

الواقع أنه بانتهاء عهد خمارويه انتهت عظمة الدولة الطولونية فقد حكم مصر بعد مقتل خمارويه ثلاثة أمراء من آل طولون لم يزد حكمهم جميعاً عن عشر سنوات بل أن أولهم لم يزد حكمه عن ستة أشهر وآخرهم عن تسعة أيام، ولم يكن لأحد من هؤلاء الأمراء ما كان لأحمد بن طولون أو ابنه خمارويه من مهارة فى الشئون السياسية والعسكرية أو ما يؤهلهم لتسيير دفة الحكم بنجاح فى تلك الظروف الحرجة، فقد كانوا جميعاً من الصبية الصغار، فضلاً عن وقوعهم تحت وصاية لفيف من رجال خمارويه وقادة الجيش وكبار رجال الدولة وكان هؤلاء قد اتسعت سلطتهم منذ أواخر عهد خمارويه فتدخلوا فى شئون الحكم لاسيما منذ هدأت الأحوال فى بلاد الشام مع الخلافة العباسية، ولم تعد ثمة حروب تشغل قادة الجيش أو مشكلات تلهى كبار

رجال الدولة فاتسع نفوذهم وقوى تدخلهم فى السياسة العليا للدولة، وفرضوا أنفسهم على الأحداث فيها.

ولى الإمارة «أبو العساكر جيش» بعد مقتل والده خمارويه وكان صبياً لا يتعدى الرابعة عشر من عمره، لم تصقله التجارب بعد أو تحنكه الأيام، ولعل تحمس القائمين على شئون الدولة لحصر الإمارة فى أبناء خمارويه يستند فى حقيقته إلى رغبتهم فى الوصاية على أولئك الصبية وحجب الإمارة عن أبناء أحمد بن طولون الكبار والأشداء. وبعبارة أخرى لم يكن ولاؤهم لبيت خمارويه يستند إلى وفاء أو إخلاص بقدر ما كان يهدف إلى تحقيق مكاسب لهم وتنفيذ مخططاتهم فى الاستمرار فى الهيمنة على شئون الدولة.

استهل «أبو العساكر جيش» عهده بقتل عمه أبى العشائر بن أحمد بن طولون خوفاً من أن ينازعه الولاية، وأقبل على مجالس الشرب واللهو متخذاً له بطانة من «أوباش الناس» قربهم وأغدق عليهم وأخذ يستأنس برأيهم الفاسد حتى أنهم هم الذين زينوا له قتل عمه أبى العشائر وأردف ذلك بإظهار نية الغدر ببعض القادة ورجال الدولة، ولهذا فر منهم نحو ثلاثمائة إلى العراق فى أوائل سنة ٢٨٣هـ حيث لاذوا بالخليفة المعتضد الذى أكرم وفادتهم

وإستقبلهم وأمنهم، وزاد فى حنق القادة ورجال الدولة أن أبا العساكر استمر فى بغيه وسفكه للدماء حتى أنه قتل عمه الثانى مضر بن أحمد بن طولون وقذف برأسه إلى الجند، وعندئذ تخلى عنه القادة ورجال الدولة وخلعوه من الإمارة وحبسوه فى نفس العام، وانتهى الأمر بقتله فى سجنه بعد بِضعة أيام وجرى نهب داره والتنكيل بأعوانه وبطانته الفاسدة.

وقع اختيار القادة بعده على أخيه هارون بن خمارويه تمشياً مع سياستهم فى الحفاظ على الإمارة فى هذا البيت واستمراراً لفرض وصايتهم عليه، وتخوفاً من إمرة أحد ابناء أحمد بن طولون الأقوياء، وقام بالوصاية على هارون – الذى كان صبياً صغيراً – أبو جعفر محمد بن أبىّ وكانت المبايعة لهارون فى جمادى الآخر سنة ٢٨٣هـ (سبتمبر سنة ٨٩٦م) والواقع أن هذا الصبى لم يكن أحسن حالاً من سلفه أو يؤمل كبير إصلاح على يده خاصة وقد فقد الجيش وحدته ووقع فريسة للفتن والمنازعات ولم يصبح أداة فى يد آل طولون، بل أصبح عبئاً على الدولة الطولونية وليس أداة طيعة لتنفيذ أهدافها. فقد اعتمد هارون اعتماداً رئيسياً على السود فى الجيش، فأحنق بذلك الروم الذين برز على رأسهم فى ذلك الوقت بعض القادة منهم بدر وفائق وصافى، وفى الوقت الذى ظهرت فيه هذه الانقسامات داخل

الجيش ومزقته المطامع الشخصية والعصبية نهض أحد أمراء الأسرة الطولونية من أبناء أحمد بن طولون وهو ربيعة بن أحمد بن طولون يطلب السلطة لنفسه محاولاً خلع ابن أخيه الصبى، إلا أن هذا تمكن بفضل جنده السود من القضاء على ربيعة ووضع حد لتطلعاته وحياته معاً، فقتل شر قتلة وبقى الصبى هارون فى الحكم نحو ثمانى سنين وثمانية أشهر. وعلى الرغم من أن أبا جعفر بن أبىّ تولى أمر هارون ومضى فى خطة إصلاح فى البلاد، فإنه وقع فى نفس الخطأ أيضاً حين تعسف مع الروم وعاملهم معاملة سيئة وفرق قادتهم فى البلاد، فزاد بذلك حنق الجند وفرق وحده الجيش وأثار البغضاء فيه، الأمر الذى ضاعف فى اضطراب الأمور فى البلاد وفى زيادة اضمحلال الدولة الطولونية، فقد شهدت مصر حينئذ آخر انقلاب سياسى فى عهد الطولونيين راح ضحيته أميرها هارون بن خمارويه فى صفر سنة ٢٩٢هـ (نوفمبر سنة ٩٠٤م) على يد عمه شيبان بن أحمد ابن طولون الذى تقدم بذبح ابن أخيه هارون بيده واستولى على مقاليد السلطة فى البلاد.

وعلى الرغم من أن شيبان هذا كان شاباً فى عنفوان شبابه بل كان كما وصفه المؤرخون «جسيماً جلداً شديد البدن» فإنه كان أهوجاً «صار يسرع فى أموره» بما لا يخدم مصالح البلاد، فضلاً

عن أنه عانى من قلة الأموال وإفلاس خزائن الدولة، الأمر الذى لم يمكنه من استرضاء الجند والقضاء على تذمر الجيش فازدادت الأحوال سوءاً وتفاقمت مشاكل الدولة فى الوقت الذى أخذت فيه جيوش الخلافة العباسية تتقدم فى أملاك الطولونيين متجهة نحو مصر لاستردادها من آل طولون.

على أن ثمة أحداث كان لها دور فى زيادة الاضطراب فى الدولة الطولونية فى أواخر أيامها وزعزعة الحكم فيها، وهو ظهور القرامطة على مسرح الأحداث ونشاطهم فى بلاد الشام. والقرامطة جماعة من الخوارج ادعو النسب إلى العلويين ونادوا بمبدأ شيوع الثروة فلقيت دعوتهم قبولاً لدى فريق كبير من الناس لا سيما الفقراء أو المعد مين وجموع الدهماء، وكان أول ظهور القرامطة من منطقة واسط سنة ٢٧٧هـ (٨٩٠م) ثم نقذوا إلى بلاد الشام بعد ذلك بنحو اثنى عشر سنة حيث ساعدتهم الظروف حينئذ على نشر تعاليمهم الهدامة لا سيما وقد عجز والى دمشق عن صدهم، وقد ظل القرامطة يسببون إزعاجاً للسلطات الطولونية فى مصر والشام حتى تم القضاء على خطرهم حينئذ فى بلاد الشام على يد جيش عباسى أرسله الخليفة العباسى المكتفى بقيادة محمد بن سليمان وهو نفس الجيش الذى استولى على مصر والشام وقضى على دولة آل

طولون واستعادهما منها بعد استقلال دام نحو ثمانية وثلاثين عاماً.

والواقع أن نشاط القرامطة فى بلاد الشام لم يمثل الخطر الوحيد الذى هدد النفوذ الطولونى هناك، بل أن ولاة دمشق والثغور اتجهوا منذ مقتل خمارويه إلى طرح طاعة الدولة الطولونية وإظهار نزعة انفصالية تهدف إلى الاستقلال بما فى ايديهم، وساعدهم على ذلك ما كانت فيه مصر من فوضى واضطراب وما حصلوا عليه من تأييد الخلافة العباسية، بل إن الخلافة نفسها ما لبثت أن انتهزت الفرصة لاسترداد منطقة الجزيرة من أيدى الطولونيين، كما تمسكت بأحقيتها فى حكم العواصم من ديار مضر وديار ربيعة واضطر الأمير الطولونى هارون بن خمارويه إلى دفع مبلغ ٤٥٠ الف دينار سنوياً للخليفة العباسى والاعتراف بما حصلت عليه الخلافة مؤخراً من المناطق التى استردتها من أيدى الطولونيين.

وإذا كان خمارويه قد حصل على سلام وأمن مع الخليفة العباسى المعتضد منذ تمت المصاهرة بينهما فإن الاوضاع مالبثت أن تغيرت بعد قيام المكتفى فى الخلافة الذى مكنته أوضاع العراق والهدوء الذى ساده والإفاقة التى عاشتها الخلافة

العباسية بعد القضاء على ثورة الزنج سنة ٢٧٠هـ (٢٨٣م) من اجتياح بلاد الشام بجيش يقوده القائد محمد بن سليمان والذى أفلح فى إنزال ضربة قاصمة بالقرامطة قرب مدينة حماة حيث حمل زعماءهم أسارى إلى العراق، وتقدم تجاه مصر لإعادتها إلى حظيرة الخلافة العباسية يعاونه الأسطول البحرى العباسى بقيادة دميانة.

حشد هارون بن خمارويه قواته عند العباسية بالشرقية أملاً أن ينجح فى صد جيوش العباسيين فى حين التقى الأسطول الطولونى بأسطول دميانة عند تنيس إلا أن الأسطول العباسى انتصر حينئذ واستولى على مدينة دمياط، ثم نجح بعد ذلك فى عزل مدينة الفسطاط عن الصعيد بإحراق جسرها الشرقى وبعض جسرها الغربى، وفى هذه الأثناء قتل هارون بن خمارويه وتولى الأمر شيبان بن أحمد بن طولون، وتقدم محمد بن سليمان ليقف على مشارف مدينة الفسطاط، وذلك سنة ٢٩٢هـ (٩٠٥م). وتشير الروايات إلى أن شيبان حاول مناوشة العباسيين، إلا أنه اكتشف قلة رجاله وكثرة العباسيين، فضلاً عن انهيار الروح المعنوية لجنده، وعندئذ مال إلى التسليم، ولم يكد يتسلم كتاباً من القائد محمد بن سليمان يعده بالأمان هو وأهله، حتى سارع بالمسير إليه مستأمناً تاركاً جيشه فى المصاف

لا يعلم من أمر هذا الاستسلام شيئاً، غير أنه حين سرى الخبر بين الجند اضطربوا وماجوا وتفرقوا ووقعوا نهباً للجيش العباسى يذبح ويقتل فيهم، وأخيراً دخل محمد بن سليمان القطائع فجعلها طعمة للنيران، بينما نهب الفسطاط نهباً شديداً، وأصاب أهلها أذى عظيماً، وانتهت دولة بنى طولون فى مصر ولم يهنأ آخر أمرائها بالحكم سوى تسعة أيام فى حين استصفى ابن سليمان أموال الطولونيين ومحا آثارهم ونهب ثرواتهم وحمل جانباً منها إلى بغداد واحتفظ لنفسه بجانب آخر. وهكذا انتهت هذه الدولة بعد نحو ثمانية وثلاثين عاماً.

جهود الدولة الطولونية فى الميادين العمرانية والحضارية

جهود أحمد بن طولون العمرانية والحضارية

اختلفت الآراء كثيراً فى أحمد بن طولون فصوره البعض أحياناً بالغلظة والقسوة وعدم التورع عن عمل أى شئ فى سبيل تحقيق مأربه، وصوره البعض احياناً أخرى بالتقوى والورع والكرم وحسن الخلق. والواقع أن أحمد بن طولون احتاج فعلاً فى البداية إلى الضرب بيد من حديد على يد الخارجين عليه وتأكيد سلطانه فى مصر وتثبيت أقدامه فيها، وربما سلك فى ذلك طريق العنف والقسوة، ولكنه سرعان ما استعاد توازنه وثقته فى إمكان استمرار وجوده فى مصر دون مضايقات ولهذا اتسم الجزء الأخير من عهده بالتعاطف مع المصريين ورجال الدولة والإحسان إلى الناس وتقريب الأعوان وإظهار الكرم مع الرعية.

ونجح أحمد بن طولون لأول مرة فى تأسيس دولة مستقلة بمصر ضمت إليها الشام وامتد نفوذها إلى النواحى القريبة، كما أفلح فى إقامة جيش كبير غدا عدته وسنده فى كل مشروعاته منذ أن أخذ الأمر بتكوينه من الخليفة العباسى للقضاء على الوالى الثائر فى بلاد الشام وفلسطين «عيسى بن شيخ» وبلغ

ذلك الجيش على حد قول بعض الروايات مائة ألف جندى أغلبهم من العبيد المعتقين أو الجند المرتزقة، وهو جيش كبير حتى بمقاييس العصر، وكان بعض عناصر ذلك الجيش من الجند السودانيين والبعض الآخر من أصل رومى أو تركى أو حبشى، ولعل أكبر ميزات ذلك الجيش نظمه المستحدثة وقيامه فى وقت الحرب وفى السلم أيضاً. وقد اهتم ابن طولون بالبحرية أيضاً لربط شواطئ مصر بالشام بعد أن آلت هذه إليه لحماية شواطئه من سفن البحرية البيزنطية ومن عدوان الموفق فحصن جزيرة الروضة وأبقى على دار الصناعة بل زاد فيها وعين لها مديراً وشيد مائة سفينة حربية جديدة وأنشأ قاعدة بحرية فى عكا.

ولعل أهم جهود أحمد بن طولون العمرانية تشييده مدينة القطائع التى اتخذها حاضره لدولته وجعلها رمزاً لاستقلاله فى الإمارة، فعدت ثالثة حاضرة إسلامية بعد الفسطاط والعسكر، وابتدأ فى بنائها سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) وقامت فى أول أمرها حاضرة حكومية ثم ما لبثت أن اتسعت وعمرت وازدهرت على عهد الطولونيين من بعده. والمعروف أن عمرو بن العاص كان قد اختط مدينة الفسطاط سنة ٢١هـ (٦٤٢م) وبنى فيها جامعه المشهور، ثم اختط العباسيون العسكر سنة ١٣٣هـ (٧٥٠م) عند

قدوم جيشهم إلى مصر بقيادة صالح بن على وأبى عون لمطاردة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية حيث اختطت العسكر فى الصحراء الواقعة شمال شرقى الفسطاط والتى كانت تسمى باسم الحمراء القصوى وشيد صالح بن على بها دار الإمارة، ثم شيد بها بعد ذلك جامع العسكر. وحين كون ابن طولون جيشه الكبير، فكر فى إبعاد هذا الجيش غير المتجانس فى عناصره، عن الأحياء المصرية العربية لمحاولة تجنب ما يمكن حدوثه من شغب الجند عند اختلاطهم بسواد الشعب، ويبدو أن فتن الجند الأتراك فى بغداد على عهد المعتصم وما أدت إليه من إنشاء سامراء، كانت ماثلة فى ذهن هذا الوالى الجديد الذى حاول أن يجنب الفسطاط والعسكر ما حدث فى بغداد من قبل وذلك بإنشاء عاصمة جديدة تصبح مأوى للجنود المرتزقة الذين ضمهم جيشه الكبير، ولهذا شرع ابن طولون فى بناء حاضرته الجديدة «القطائع» بمجرد عودته من بلاد الشام سنة ٢٥٦هـ هذا فضلاً عن أن تفكير ابن طولون فى إقامة حاضرة جديدة ارتبط إلى حد كبير بخططه فى الاستقلال بمصر واتخاذه العاصمة المزمع إقامتها رمزاً لهذا الاستقلال من ناحية ومجالاً لمنافسة البلاط العباسى من ناحية أخرى مع ميل للظهور بمظهر العظمة والأبهة وعناية تامة بفخامة البلاط وروعته.

ومهما يكن من أمر فقد بدأ ابن طولون فى بناء حاضرته الجديدة فى المكان الواقع على سفح جبل يشكر إلى الشرق من العسكر وإلى الشمال الشرقى من الفسطاط. ويذكر المقريزى أن موقع القطائع امتد من قبة الهواء التى أقيمت فوقها قلعة الجبل فيما بعد إلى البقعة التى أقيم عليها جامع ابن طولون، ويمثل هذا طولها بينما امتد عرضها من الرميله أسفل القلعة إلى الموضع الذى يقال له الآن زين العابدين أى أن مساحتها فى البداية بلغت ميلا مربعاً. وليس من شك فى أن القطائع بدأت صغيرة ثم اتسعت بعد ذلك وعمرت، كما أن اقامة هذه الحاضرة الجديدة لم يقض على العسكر والفسطاط لأنها هى والعسكر لم يكونا فى واقع الأمر سوى ضاحيتين من ضواحى الفسطاط أو حيين جديديين من أحيائها وامتدادا عمرانيا وسكنيا لها، على الرغم من أن الناس كانوا يعتبرون كل من العسكر والقطائع مدينتين قائمتين بذاتيهما غير أن الفسطاط ظلت المركز الأكبر للحياة المصرية بل ظلت أغلب المبانى الحكومية القديمة قائمة بها لم تهجر تماما أى أن إنشاء القطائع لم يؤد إلى تدهور مكانة العاصمة القديمة أو يتسبب فى هجرها.

وعلى الرغم من ابن طولون عزم على إسكان جنده فى القطائع واتخاذها حاضرة حكومية للدولة، إلا أنه لم يرد فى

حقيقة الأمر جعلها مدينة حربية يغلب عليها الطابع العسكرى، لأن تخطيط القطائع لا يوحى باتجاه نحو اتخاذها قلعة عسكرية وحصنا وملاذاً ضد أعداء الدولة مثلما حدث فى بغداد مثلاً التى اراد بها أبو جعفر المنصور أن تكون عاصمة عباسية جديدة وقلعة حصينة ضد أعدائه، فقد حذا ابن طولون فى بناء القطائع حذو الخليفة المعتصم فى بناء سامرا فى الاتجاه نحو الإبداع فى البناء والتأنق فى الفنون الزخرفية والصناعية واستخدم أمهر الصناع والفنانين فى زخرفتها لتنافس العاصمتين العباسيتين بغداد وسامرا، فى حين أقام فى جزيرة الروضة حصنا منيعا جعله مأوى لحرمه وأسرته وخزانة لثروته حين تعرض لتهديد موسى بن بغا مما يؤكد أنه لم يقصد ببناء القطائع جعلها مدينة حربية أو حصنا عسكرياً.

رأى ابن طولون ان يقسم مدينته الجديدة بين جنده ورجال حاشيته ومن تدعو الحاجة إليهم من صناع وتجار فأعطى لكل طائفة قطيعة فعرفت كل قطيعة باسم من سكنها سواء كانت تربطهم رابطة الجنس أو رابطة العمل أو المهنة أو الحرفة فكان فيها قطيعة السودان وقطيعة الروم وقطيعة الفراشين وقطيعة الجزارين وغير ذلك من القطائع ولم يكن ذلك بدعا فى تاريخ العمارة الإسلامية، فالإسم والتخطيط إستخدما فى عمارة مدينة

سامرا التى بناها الخليفة المعتصم فى العراق بل إن اسم القطائع جرى إطلاقه على تلك المدينة أيضاً، ولهذا لم يأت ابن طولون بشئ جديد حين أقام عاصمته على نسق ما رآه فى العراق.

وشيد أحمد بن طولون فى عاصمته الجديدة مسجده الشهير الذى لايزال قائماً حتى الآن ثم اقام إلى جواره قصره الرائع الذى أكمله من بعده ابنه خمارويه والذى وصفه المؤرخون بأنه كان مثال العظمة والأبهة، ثم اقيمت قصور طولونية أخرى ضاعت للأسف معالمها وخربت ولم يبق منها سوى ما حفظه الكتاب عنها فى بطون الكتب، لكن تخطيطها وعمارتها وزخرفتها نحت فى أغلب الظن نحو الفنون المعمارية فى سامرا، وعمارة القصور العباسية بالعراق، وفيما بين قصر الأمير وجامعه كان الميدان، وبحذاء الجامع أقام دار الإمارة فى الجهة القبلية ودار الحرم، وجعل ابن طولون لقصره عدة أبواب بكل باب اسم خاص يدل أحيانا على الجهة التى يؤدى إليها أو على نوع الخدم، وذلك على نسق ما كان متبعا فى قصورا سامرا، ومن أهم هذه الأبواب باب الميدان الذى كان يمر فيه الجند وباب الحرم الذى خصص لدخول النساء والخصيان وباب الخاصة الذى يمر منه المقربون من الأمير وخاصته وباب الصلاة الذى يؤدى إلى جامع ابن طولون، وباب الصوالجة المؤدى إلى الميدان المخصص للعب الصوالجه وباب

الجبل الذى تشرف عليه تلال جبل المقطم وباب السباع نسبة إلى سبعين كبيرين من الجبس كانا على جانبيه، وباب الساج نسبة إلى خشب الساج الذى اتخذ منه الباب وبابين عرف أحدهما بباب دعناج والآخر بباب الدرمون نسبة إلى حاجبين كانا يجلسان عندهما، وكانت الأبواب كلها تفتح فى يوم العيد أو فى يوم عرض الجيش أو يوم صدقة «وما عدا هذه الأيام لا تفتح إلا بترتيب فى أوقات معروفة» وأعد لأحمد بن طولون مكان فى قصره يجلس فيه ليشرف على المدينة فى أيام العرض أو أيام الصدقة لينظر من الداخل الى المدينة ومن الخارج منها، وأعد له على باب السباع مجلس أيضا يشرف منه ليلة العيد على القطائع ليراقب الخدم والغلمان «فاذا رأى فى حال أحد منهم نقصا أو خللاً أمر له بما يتسع به ويزيد فى تجمله» وهكذا كان يسير نظام تلك الحاضرة الجديدة ونظام الإشراف عليها ورقابة أهلها وساكنيها.

أما جامع بن طولون فقد أقيم على جبل يشكر وغدا يتوسط القطائع. وانتهى أحمد ابن طولون من تشييده سنة ٢٦٥ (٨٧٩م) وحرص على أن يتجه فى تخطيطه وتصميمه نهج جامع عمرو بالفسطاط مع الأخذ ببعض التطورات الجديدة فى الفنون المعمارية، وهو مشيد بالآجر الأحمر، ويتكون من صحن مربع مكشوف طول كل ضلع فيه نحو اثنين وتسعين مترا وتحيط به

أروقة من جوانبه الأربعة، وتوجد القبلة فى أكبر الأروقة، وبين جدرانه وسوره الخارجى ثلاثة أروقة خارجية تسمى الزيادات أضيفت فى أغلب الظن لتوسيع الجامع وتكبيره حين ضاق بالمصليين ولعل أهم التطورات التى استحدثت فى تصميم هذا الجامع وتخطيطه مئذنته الفريدة التى تقع فى الرواق الخارجى الغربى والتى تكاد لا تتصل ببناء الجامع نفسه، وهى عبارة عن قاعدة مربعة تقوم عليها طبقة أسطوانية عليها طبقة أخرى مثمنة وسلالمها من الخارج على شكل مدرج حلزونى، وهى المئذنة الوحيدة فى مصر التى تتخذ هذا التصميم العجيب، متأثرة دون شك بمئذنة جامع مدينة سامرا، كما أقيمت نافورة تتوسط صحن المسجد أعدت فى الأصل ليشرب منها الناس لكنها تحولت بعد ذلك إلى ميضأة. ومن التطورات الجديدة فى هذا المسجد أيضاً استخدام دعائم ضخمة من الآجر المغطى بطبقة سميكة من الجص لتحمل عليها العقود وهى الأولى من نوعها فى مصر الإسلامية وتأثرت ايضا بخصائص العمارة العراقية. أما الزخرفة فقد ابدع الفنان الاسلامى فى توزيعها والتأليف بينها وتنسيقها وهى محفورة على الجبس وتنحو نحو الزخارف الجصية التى عرفتها العمارة العراقية أيضا. ولعل أهم ميزات هذا الأثر العظيم من آثار ابن طولون بالقطائع أنه احتفظ تقريباً بكل تصميماته الأولى ولم

تدخل عليه إضافات أو إصلاحات تغير معالمه وتطمس شكله الأصلى.

على أن جهود ابن طولون العمرانية لم تقتصر على إقامة قصور القطائع وميادينها ومسجدها الشهير، وإنما أقام ابن طولون فى الجهة الجنوبية الشرقية من القطائع قناطر المياه التى لا تزال بعض عقودها قائمة حيث يسير الماء فى عيونها لإمداد القطائع، رغبة فى توفير كل سبل الراحة لسكانها وتدبير ما يحتاجون إليه فى حاضرته الجديدة، ولم تبق هذه الحاضرة مدة طويلة مجرد مقام للأمير الطولونى وحاشيته وخدمه ورجال دولته وجيشه وحكومته أى مدينة خاصة، ولكنها ما لبثت أن عمرت واتسعت وتحولت إلى مدينة عامة فقد أمر ابن طولون أصحابه وغلمانه أن يختطوا لأنفسهم بيوتا حول قصره وميدانه فكبرت المدينة وازدهرت وأقيمت بها المساجد الجميلة والحمامات والأفران والطواحين والشوارع والحوانيت والمنازل «فبنى القواد مواضع متفرقة وعمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأروقة» وأصبحت مدينة كبيرة بحق وامتدت عمارتها حتى اتصلت بمدينة الفسطاط. وبعد أن اتسع عمرانها وأصبحت آهله بالسكان تعددت أسواقها وتنوعت، فمن سوق يجمع العطارين والبزازين إلى آخر يجمع الجزارين والبقالين، وثالث

يجمع الصيارفة والخبازين إلى غير ذلك حتى ليذكر المقريزى أنه أصبح لكل من الباعة سوق عامر «فصارت القطائع مدينة كبيرة» هذه هى القطائع التى تأنق ابن طولون فى تشييدها وتجميلها والتى ازدهرت على عهد ابنه خمارويه وخلفائه واتسعت وعمرت قبل أن يكتب القدر نهاية مجدها على يد القائد العباسى محمد ابن سليمان الذى جعلها طعمة للنيران سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥م) حين دخل مصر وقضى على دولة بنى طولون وأعاد مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية من جديد.

ويستند نجاح ابن طولون فى إقامة دولته القوية على الأنظمة الإدارية والمالية ففى الناحية الإدارية عنى بتقليد أساليب الإدارة فى بلاط الخلافة العباسية ولكنه كان ميالا بطبيعته إلى عدم السماح لأحد باحتلال مركز كبير إلى جانبه أو الوصول إلى مركز من مراكز السلطة، ولهذا كان له عدة حجاب لم يحتل أحدهم مكانة كبيرة فى دولته، كما لم يتخذ وزيراً له بل احتفظ ببعض المستشارين والأعوان والنصحاء كما اتخذ صاحب شرطة وعين أخاه موسى بن طولون لفترة فى هذا المنصب. واحتفظ بالأقسام الإدارية لمصر كما هى لكنه عنى بتركيز السلطة فى يده ولم يسمح لأحد من عمال الكور بالتمكين لنفسه والحصول على شئ من الاستقلال المحلى فغدا أصحاب الكورات مسئولين

مسئولية مباشرة أمامه كما احتفظ داخل الديار المصرية بنظام عمال البريد وعنى بالاستخبارات المدنية والعسكرية واستخدام الجواسيس المحترفين والمخبرين السريين فى دار الخلافة يوافونه بالأخبار أولاً بأول، كما اهتم بفرض رقابة شديدة فى إمارته وخاصة حول كل من تثور الشكوك فى صلته باحد من الأمراء أو الوزراء أو رجال الدولة فى العراق خاصة جواسيس الموفق، لإحباط أية مؤامرة أو مكيدة يدبرها له خصومه. كما اهتم بوظيفة كاتب السر، وعنى باختيار رجل من أعوانه فيها، غير أنه من الواضح أن أحمد بن طولون قلل كثيراً من الاعتماد على أقباط مصر فى تولى الوظائف المختلفة ربما لأنه أنحى بالملائمة عليهم لتردى مصر فى إفلاس إدارى وتأخر اقتصادى قبل قدومه إليها، وكان دائم الميل لاستخدام كتاب من العرب أو الفرس القاطنين بمصر مع العهد بالوظائف الإدارية والمالية الصغيرة لبعض العناصر التركية.

أما بالنسبة للناحية المالية والاقتصادية، فقد وجه أحمد بن طولون همه منذ البداية لضبط أمور البلاد وإحكام الرقابة على الموظفين الماليين، والعمل على خفض ما كان يرسل إلى الخلافة من عطايا وهدايا وأموال، ومضاعفة الإنتاج فى ميدان الزراعة والصناعة والتجارة وإصلاح نظام العملة. وسك عملة جديدة خاصة بمصر تغدو عماد الاستقلال السياسى والاقتصادى ورمزاً للرخاء فى البلاد، وليس من شك فى ان رخاء مصر زمن ابن طولون وخليفته خمارويه كان مضرب الأمثال ويذكر المؤرخون أنه على الرغم من عسف عمال الخراج قبل ابن طولون لاسيما ابن المدبر فى جمع الخراج واستحداث ضرائب جديدة، إلا أن الخراج انحط فى عهده إلى نحو ثمانمائه ألف دينار، لكن هذا الخراج عاد فارتفع على يد ابن طولون فبلغ نحو أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار، برغم أنه ألغى بعض الضرائب الجائرة والمكوس التعسفية ويرجع ذلك دون شك إلى اهتمام ابن طولون بتشجيع الزراعة وتسهيل الرى وشق الترع والقنوات وإقامة القناطر وإصلاح مقياس النيل بالروضة وتطهير الخليج. وساعد على ذلك الرخاء الاقتصادى انتظام فيضان النيل، وعدم حدوث كوارث اقتصادية فى هذا العهد. ويذكر المقريزى أن الأرض التى

استغلت فى الزراعة حينئذ بلغت نحو من مليون فدان ويتحدث المؤرخون عن قيام ابن طولون باحتكار بعض المحاصيل والاتجار فيها فى أواخر أيامه، ولذلك درت عليه هذه العملية أموالا وافرة، كما اهتم كثيراً بالصناعة فازدهرت صناعة النسيج وصناعة الأسلحة وصناعة الزيوت والورق والسكر وصناعة الأخشاب والخزف كما نهضت التجارة وساعد على نهضتها موقع مصر العالمى فنشطت التجارة بين الشرق والغرب عن طريق البحر الأحمر.

أما عن مسلك ابن طولون تجاه أهل الذمة والمصريين فتشير الدلائل إلى أنه أظهر تسامحا مع أقباط مصر ومع الجالية اليهودية وعلى عهده كان الامتزاج البطئ بين العرب القاطنين وسكان البلاد من الأقباط الذين تحولوا إلى الإسلام وخاصة بعد إسقاط العرب من الديوان.

وأظهر ابن طولون اهتماما بالغا بالعلم والعلماء، ونشطت الحركة العلمية فى عصره لأنه كان مغرما بمجالسة الفقهاء وسماع الحديث وروايته بحكم ثقافاته ودراسته أيام صباه فغدت القطائع مركزاً علمياً كبيراً ومحط رحال طلاب العلم والعلماء، فى كافة الفروع ومقصد المحدثين والمفسرين والشعراء والأدباء

واللغويين والصوفية والمؤرخين والفقهاء، فضلا عن الأطباء والمشتغلين بالطب.

ولقد أفاد ابن طولون من الاموال التى توافرت له فأقام منشأته المعمارية العظيمة التى كان من أهمها البيمارستان الذى عد أول مستشفى فى تاريخ مصر الإسلامية أنفق فى بنائه نحو ٦٠ ألف دينار كما تألق فى تشييد قصره على مثال قصور خلفاء بنى العباس وجعل أمامه ميدانا فسيحا لاستعراض الجيش وصرف عليه أكثر من خمسين ألف دينار. وكان ابن طولون محسنا، أنفق كثيراً من الأموال فى وجوه الخير خاصة فى أواخر أيامه وبعد أن استقر له الأمر ربما لرغبته فى التكفير عن إسرافه فى سفك الدماء والزج بالناس فى السجون والتنكيل بالخارجين والمارقين عن سلطته، فكان يوزع الأطعمة والصدقات على الناس وفق نظام معين، بل إنه عوض أهل دمشق بنحو ٧٠ ألف دينار حين شب فيها حريق أتى على كثير من منازلها ومحلاتها، ومع ذلك فقد خلف ابن طولون ثروة هائلة بلغت نحو عشرة ملايين دينار وسبعة آلاف من الخيل وستة آلاف من البغال والحمير، كما خلف ابن طولون ثلاثة وثلاثين ولدا منهم سبعة عشر من الذكور.

وكان أحمد بن طولون معنيا بفخامة بلاطة وعظمة مظهره محاولا أن يكسب القطائع والفسطاط من الروعة والفخامة والترف ما يتفوق بهما على سامرا وبغداد وما يمنحهما فرصة منافسة مراكز الخلافة العباسية فى العراق. وكان ابن طولون شديد المهابة فى بلاطه حريصاً على عدمْ الاختلاط بحاشيته ورجاله حتى لا يفقد شيئاً من هذه المهابة. ولكن لعل أهم إنجازات أحمد بن طولون انه نجح فى وضع أسس دولته المستقلة لأول مرة بمصر كما مد نفوذه إلى بلاد الشام وترك لخلفه من بعده بناء شامخاً ودولة قوية وخزائن عامرة بالأموال.

الجوانب الحضارية لعصر الطولونيين :

ليس من شك فى أن أبرز ما حققه أحمد بن طولون فى مصر هو نجاحه فى إبراز الكيان المستقل لمصر ومحاوله بلورة هذا الكيان داخل نطاق الكيان الاسلامى الكبير، فضلا عن النهوض بأحوال مصر الاقتصادية والعمرانية والحضارية. بصورة طبعت الحياة المصرية بطابع الثراء وأضافت عليها سمة كبيرة من الرفاهية وظهرت معالمها واضحة جلية على عهده وعهد ابنه خمارويه، وأعطت لعصر الطولونيين فى مصر طابعه الخاص وأهميته فى تاريخ مصر الاسلامية.

ففيما يختص بنظم الحكم والإدارة فلعله من الواضح أن مصر لم تعد ولاية من ولايات الدولة الاسلامية مثلما كانت على عصر الولاة، وإنما اكتسبت جانبا استقلاليا جديداً وغدت وحدة مستقلة لأول مرة فى تاريخها منذ الفتح العربى سمحت للأمراء الطولونيين أن يعدلوا فى نظمها القديمة ويستحدثوا نظما جديدة تتفق والوضع الجديد وتؤكد الجانب الاستقلالى للدولة ولعل اتجاه أحمد بن طولون الى إنشاء حاضرته الجديدة لتكون مقرا لحكمه وهجره دار الامارة فى العسكر يعين لنا ما كان يهدف إليه من تأكيد الجانب الاستقلالى لدولته الناشئة، عبر عنه مؤرخ

قديم بقوله إن أحمد بن طولون كان «أول من أخذ فى ترتيب الملك وإقامة شعائر السلطنة بالديار المصرية». كما اتجه نحو الاهتمام بالنواحى الإدارية والتنظيمية فى دولته «فأخذ فى ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه فى المكاتبات والولايات»، كما اهتم بالدواوين الأخرى مثل ديوان الخراج وديوان الجند، وقلل ابن طولون من الاعتماد على الموظفين الأقباط ربما لأنه أنحى باللائمة عليهم لتردى مصر فى إفلاس إدارى وتأخر اقتصادى قبل قدومه إليها وكان دائم الميل لاستخدام كتاب من العرب أو من الفرس المستوطنين بمصر فى حين عهد ببعض الوظائف الإدارية والمالية الصغرى لبعض العناصر التركية.

أما بالنسبة للجيش والاسطول فقد اهتم آل طولون بالجيش والبحرية كثيراً فجعل ابن طولون قوام جيشه من الأتراك والروم والسودان، وأظهر عناية فائقة بهذا الجيش، فغدا بعد فترة وجيزة أكبر قوة عسكرية فى بلاد الخلافة العباسية حيث ضم نحو مائة ألف جندى ذكر المؤرخ اليعقوبى أنهم جميعاً حلفوا يمين الطاعة والولاء لأحمد بن طولون سنة ٢٥٨ هـ (٨٧٢م)، وحين قام هذا بضم بلاد الشام انضم كثير من جندها إلى جيشه مع استمرار تعلقهم بحكام الأقاليم الشامية أكثر من تعلقهم بأحمد بن طولون، ولهذا لم يتوانوا عن العصيان كلما حانت الفرصة أو

تهيأت الظروف، ولقد تكفلت قسوة أحمد ابن طولون وحزمه من ناحية وسعه يده وكرمه من ناحية أخرى بجانب كبير من السيطرة على هذا الجيش فتناست طوائفه خلافاتها العرقية والعنصرية واتجهت نحو تحقيق أهداف الدولة فضلا عن أن إمكانية دفع رواتب هؤلاء الجند قد قضى على أى تذمر يمكن أن يظهر بين صفوفهم، ولهذا استمر الجيش يؤدى دوره بنجاح طوال عصر أحمد بن طولون وابنه خمارويه، وساعد على ذلك اتجاه خمارويه إلى تكوين طائفة جديدة من مولدى العرب أى من الجيل الجديد الذى نشأ من الامتزاج والتزاوج بين العرب والمصريين الذين كانوا يسكنون إقليم الحوف، والذين اشتهروا بالشجاعة وقوة البأس، فكون منهم فرقه خاصة فى جيشه سماها «المختارة» جعلهم بمثابة طليعة الجيش والفرقة الانتحارية فيه.

على أن الأمور ما لبثت أن تغيرت فى عهد أبى العساكر جيش ابن خماروية حين أفلست خزائن الدولة وطفت الخلافات الدفينة والصراعات الكامنة بين الفرق، بل تجرأت إحداها واعلنت عدم اعترافها بهذا الامير الجديد، وأخذ اليأس يدفع ببعض القادة إلى الفرار إلى بلاد العراق فى حين انتشرت الفتن بين الجند والقادة وضعفت همة هذا الأمير عن كبح جماحهم، وغدا الجيش من اكبر

أسباب الفوضى فى البلاد بعد أن كان سببا من أسباب قوتها ومجدها.

ويبدو أن توقف الحروب فى هذا العهد واستتباب السلام بين الخلافة والطولونيين قد وضعها فى حالة فراغ صرفها عن مهمتها الأصلية وأغرقها فى صراعات ونزاعات جانبية، ولم يؤد مقتل أبى العساكر جيش وولاية أخية هارون إلى نتيجة حاسمة فى هذا الأمر فقد اضطرب انتظام دفع رواتب الجند وأعطياتهم، فاضطر هؤلاء لارهاق الشعب والقسوة عليه والعيش على إرهاب الحكومة، وتردى الجيش فى الفوضى والانقسام ولم يعد ثمة ما يحول بين الدولة ونهايتها، وإن لم يكن قد بقى على إخلاصه للطولونيين سوى الجند السودانيين الذين دفعوا فى النهاية ثمناً باهظاً لهذا الولاء حيث حصدتهم سيوف العباسيين فأفنتهم تقريباً عن آخرهم وهكذا كان الجيش فى البداية أكبر أداة من أدوات قوة الدولة. ثم صار فى النهاية سببا من أسباب تعاستها وانهيارها.

أما بالنسبة للاسطول فقد أظهر ابن طولون اهتماما بالغابه وخاصة بعد أن آلت إليه بلاد الشام ورغبته فى تأمين سواحل مصر من هجوم الروم، واستعان ابن طولون فى هذا المجال

بالخبرة المصرية فى بناء السفن وإعدادها ولما ساءت العلاقات بينه وبين الموفق وظهرت أطماع الأخير فى مصر، زاد اهتمام ابن طولون بالبحرية فحصن جزيرة الروضة وأمر باستمرار دار الصناعة فيها فى بناء السفن كما شيد مائة سفينة حربية وأنشأ قاعدة بحرية فى عكا وحصن ميناءها. وفى عهد خمارويه ظل الأسطول المصرى يرتاد السواحل الشامية وسواحل مصر ويسهر على حراستها وأمنها وبلغ من قوة الأسطول المصرى حينئذ أنه بدأ سياسة الهجوم على الروم فهاجم سالونيكا سنة ٢٩١هـ (٩٠٤م) حيث استولى الأسطول المصرى على هذه المدينة لعدة أيام وخرب منشآتها ثم تركها بعد أن حمل كثيراً من الأسرى وكثيراً من الغنائم هذا فضلا عن مهاجمة السفن الرومية فى بحر إيجة وبلاد اليونان، وقد ظل الأسطول يقوى ويزداد عدد سفنه حتى قيل أن ابن طولون توفى وقد بلغ أسطوله نحو ألف سفينه حربية مجهزة بالعدة والعتاد والرجال.

أما بالنسبة للأحوال الاقتصادية والمالية فليس من شك فى أنها انتعشت على عهد الطولونيين بدرجة كبيرة تشهد بذلك وفرة الثروة فى أيدى الأمراء الطولونيين ومدى البذخ والترف فى إنفاقها كما سبقت الإشارة. والواقع أن أحمد ابن طولون كان قد منع ولاة بنى العباس من نهب ثروات مصر وأموالها وإرسال تلك

الثروة إلى خارجها، كما نجح فى تخفيض ما كان يرسل إلى الخلافة العباسية فى بغداد وما كان ينهب إلى خزائن كبار رجال الدولة فى الوقت الذى اهتم فيه بمضاعفة الانتاج فى الميادين الزراعية والصناعية والتجارية وإصلاح نظام العملة حتى لتذهب الروايات إلى أن خراج مصر ارتفع عند نهاية حكم أحمد بن طولون إلى نحو ٤٫٣٠٠٫٠٠٠ دينار وكان قد ثبت أيام ولاة بنى العباس عند مبلغ ٨٠٠٫٠٠٠ دينار وتضاعف هذا الخراج على عهد خمارويه إلى نحو ٨٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار، وليس بخاف علينا مبلغ ثراء مصر على عهد خمارويه الذى سبقت الإشارة إلى بعض مظاهره والواقع أن الشطر الأول من عهد الطولونيين شهد نشاطا دائبا فى مجال الإصلاحات الاقتصادية والمالية تجلى ذلك فى العناية بالزراعة والاهتمام بالرى وشق القنوات وتشييد القناطر وإصلاح مقياس النيل وتطهير الخلجان، فكثرت المحاصيل ورخصت إثمانها حتى بيع كل عشرة أرادب من القمح بدينار على عهد أحمد بن طولون، كما ذهبت الروايات إلى أن أحمد ابن طولون ذهب فى عنايته بالزراعة حد تمويل محاصيل الفلاحين، أى مد الفلاحين بيد العون وساعدهم بالبذور والسماد على أن يسترد قيمة هذه المساعدات منهم بعد جمع المحاصيل، فإذا عجزوا عن السداد تنازلت الدولة

لهم عن حقوقها. كما عنيت الدولة بالصناعة فنشطت صناعة النسيج والزيوت والأسلحة والورق والسكر والخزف، فضلاً عن الصناعات الحربية والأسلحة، كما نهضت التجارة مستفيدة من موقع مصر الفريد واستتباب الأمن والسلام فى ربوع البلاد وعناية آل طولون بتسهيل نقل المتاجر فى إمارتهم، حتى غدت مصر طريقا تجاريا هاما بين الشرق والغرب وأصبحت تجارة البحر الأحمر مزدهرة نشطة فى ذلك العصر ومثلت جانبا هاما من النشاط التجارى المصرى واحتلت مركزاً هاما بالنسبة للتجارة العالمية، وكذلك ازدهرت تجارة مصر الداخلية على عهد بنى طولون حتى انتظمت أسواق القطائع بأصناف البضائع وغصت بالمتعاملين وانتعشت أحوال البلاد المالية والاقتصادية.

اما عن مسلك آل طولون تجاه أهل الذمة وسكان مصر، فقد أظهر كل من أحمد بن طولون وابنه خمارويه تسامحاً جما مع أقباط مصر والنصارى بصفة عامة، واستمرت سياسة التسامح مع الأقباط إلى نهاية عهد الدولة الطولونية ولم يحدث ثمة ما يعكر الصفو بين المسلمين والأقباط بل على عكس ذلك هناك من الأدلة ما يؤكد استمرار الصفاء وسيادة روح المودة بين الجانبين، وسلك آل طولون نفس السياسة مع الجالية اليهودية

المقيمة بمصر والتى كان أفرادها من الأثرياء ومع هذا لم نسمع عن تعرض أحد منهم لأى تعسف من قبل السلطات الطولونية، وعلى عهد الطولونيين حدث الامتزاج البطئ بين العرب المقيمين فى مصر وسكان البلاد من الأقباط الذين تحولوا إلى الاسلام، لاسيما بعد أن أسقط العرب من الديوان بأمر المعتصم فأخذ ارتباطهم بالحربية يضعف شيئاً فشيئاً واهتمامهم بالأنساب والعصبيات القبلية يذوى تدريجياً حتى تلاشى فى النهاية تقريباً، وهكذا كان معظم سكان مصر فى هذا العهد من المسلمين سواء من العرب الخلص من نسل القبائل العربية التى استوطنت مصر أو من نسل الموالى الذين قدموا فى ركابهم، أو من أهل الذمة الذين تحولوا إلى الاسلام فضلا عن كثير من بطون بربرية استقرت غربى الدلتا.

وبالنسبة لسياسة آل طولون المذهبية فالواقع أنهم لم يظهروا إلا اهتماما قليلاً بهذه المسائل وأن مال ابن طولون بحكم دراسته الأولى على المذهب الحنفى إلى قضاة حنفية حيث استمر القاضى بكار بن قتيبة الذى كان حنفى المذهب فى قضاء مصر على عهده وخلفه محمد بن عبدة بن حرب الذى كان حنفيا أيضا سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١م) فى عصر خمارويه، لكن خلف ابن حرب فى القضاء ابو زرعة محمد بن عثمان الدمشقى سنة ٢٨٤هـ (٨٩٧م) على

عهد هارون بن خمارويه وكان شافعي المذهب مما يؤكد عدم تحمس آل طولون في أواخر أيامهم لميل مذهبي معين، فضلا عن أن الاهتمام بالقضاه والقضاء نفسه لم يكن اهتماما كبيراً في ذلك العصر على الرغم من أن مصر الطولونية شهدت ما يسمى بالنظر في المظالم الذى كان بمثابة محكمة استئناف أو محكمة نقض. كما شهدت أيضا وظيفة المحتسب الذى كان يراقب السلوك العام ويسهر على مراعاة أحكام الشرع ويشرف على الأسواق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما اهتم الطولونيون لاسيما أحمد بن طولون باستتباب الأمن والطمأنينة في ربوع البلاد والضرب على أيدى اللصوص والعابثين.

أما عن الحياة العلمية والفكرية في عهد الطولونيين، فقد أظهر أحمد ابن طولون اهتماماً عظيماً بالعلم والعلماء، وكان مغرما بمجالسة الفقهاء وسماع الحديث وروايته، ولهذا تحولت القطائع إلى مركز علمي وفكرى كبير وهوى اليها الفقهاء والمحدثون والأدباء والمتصوفة والمؤرخون والشعراء من كل مكان، وغدت محط رحال الطلاب وملتقى المبرزين في العلوم المختلفة، كما أبدى خمارويه وخلفاؤه اهتماما كبيرا بهذه الجوانب العلمية لاسيما الشعر والأدب فضلاً عن تقدم مصر في علم الطب ومصادر هذا العصر تفيض بأخبار الطب والأطباء وصناعة

الطب لاسيما أطباء أحمد بن طولون الذين حازوا شهرة فائقة فى هذا الميدان. على أنه لم تكن هناك مدارس فى ذلك العصر وإنما جرى إلقاء الدروس فى الجوامع مثل جامع عمرو وجامع ابن طولون وفى بيوت الأمراء والوزراء وعلية القوم.

واهتم آل طولون بديوان الإنشاء وساعدهم على ذلك ارتقاء فن الكتابة فى ذلك العصر وأول من تولى ديوان الإنشاء حينئذ هو أبو جعفر محمد المعروف بابن عبد كان الذى اشتهر بالبلاغة وحسن الكتابة «وكان بليغاً مترسلا فصيحاً» أما بالنسبة للشعر فقد غص هذا العصر بالشعراء من طالبى الصلات والأعطيات وممن برعوا فى المديح والتقرب من الأمراء والحكام لاسيما وقد اشتهر آل طولون بالكرم والجود وصله الشعراء بالأموال والهدايا واشتهر بعض النحويين واللغويين فى هذا العصر على رأسهم الوليد بن محمد التميمى النحوى المعروف بولاد واحمد بن جعفر الدينورى صاحب كتاب المهذب فى النحو وغيرها. أما فى ميدان الكتابة التاريخية فلعل خير ما يمثل ازدهارها كتابات أحمد بن يوسف بن ابراهيم المعروف بابن الداية الذى كتب سيرة ابن طولون وسيرة أبى العساكر جيش، أما عن العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وقراءات فكانت لها الغلبة، إذ وفد على مصر كثير من علماء المشرق والمغرب على رأسهم الربيع بن سليمان

المرادى الذى ظل يدرس فى جامع الفسطاط حتى استدعاه ابن طولون للتدريس فى جامعه بعد اتمامه. وكان إمام الحنفية فى مصر فى ذلك العصر أبو جعفر الطحاوى الذى ألف فى معانى القرآن والفقة.

ولقد أفاد الطولونيون بما توفر لهم من أموال فأقموا المنشآت الدينية والمدنية والعمائر المختلفة التى كان أهمها دون شك مدينة القطائع التى أنشأها أحمد ابن طولون وجعلها حاضرة لملكه، وأقام الطولونيون القصور الفخمة والميادين الجميلة والحمامات الكبيرة وتأنقوا فى ذلك كثيراً، وحسب المرء أن ينظر فى أخبار الحديقة التى أقامها خمارويه والتى أنفق فى إقامتها الأموال الطائلة ليقف على مبلغ عناية آل طولون بالعمائر والتجمل فى إقامتها والتأنق فى تأثيثها، كما أقام احمد ابن طولون حصنا فى جزيرة الروضة وبنى جامعه الشهير وقناطره المعروفة وبنى البيمارستان الشهير الذى أسسه سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٣م)، وجعله مستشفى عاما ووضع له من الأنظمة ما كفل له أكبر قدر من ممارسة الخدمة العامة ورعاية الناس وبلغ الأمر بابن طولون أن كان يشرف بنفسه على هذا البيمارستان. وأظهر من الحماسة فى الإنفاق فى وجوه البر ما جعله يوقف على جامعه وقناطره وبيمارستانه الأوقاف الواسعة. وظلت عمائر آل طولون دليلاً

باقيا على عظمة هذه الأسرة وعلو همه أمرائها وعظمة جهودهم فى هذا الميدان.

الفصل الثالث

مصر فى عصر الدولة الإخشيدية

٣٢٣ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩ م

الدولة الإخشيدية

الفترة بين نهاية الدولة الطولونية وقيام الدولة الإخشيدية :

عادت مصر من جديد إلى حظيرة الخلافة العباسية بعد أن دخلها القائد محمد ابن سليمان وقضى على الدولة الطولونية، غير أن ذلك جاء مقرونا بموجة عاتية من الانتقام والعنف ضد المصريين، قام بها محمد بن سليمان الذى عامل المصريين بقسوة بالغة، «وكان يضرب أعناقهم ويقطع أيديهم وأرجلهم جورا ويخرق ظهورهم بالسياط ويصلبهم على جذوع النخل»، ربما لحبهم لآل طولون وتقبلهم لحكمهم طوال تلك السنين، ولاشك أن ذلك كان سببا لما أظهره المصريون من أسف عميق على الدولة الطولونية والاستقلال الذى ضاع بزوالها، والازدهار والانتعاش الذى عاشه الشعب المصرى فى ظلها.

فلم يكد محمد بن سليمان يستقر بمصر شهوراً حتى عزله الخليفة المكتفى وولى مكانه عيسى بن محمد النوشرى، فبدأ هذا إمارته فى مصر فى جمادى الآخر سنة ٢٩٢هـ (مايو سنة ٩٠٥م)، وأرسل الخليفة يستقدم محمد بن سليمان إلى العراق، فخرج مستصحبا بقايا الجيش الطولونى ورجال الدولة

الطولونية الذين ساروا معه إلى دمشق، ثم تفرق أمرهم بعد ذلك، فمنهم من ذهب إلى العراق ومنهم من عاد إلى مصر، فى حين أمر النوشرى بطرد بقية الطولونيين من مصر، على أن هذه الأحداث لم تكن لتمر دون مقاومة من رجال الدولة الطولونية، فمن بين العائدين إلى مصر كان شاب يدعى محمد بن على الخلنجى المعروف بابن الخليج، الذى كان ضابطاً صغيراً فى فرقة صافى الرومى، الذى كان محمد بن سليمان قد ساقه معه إلى العراق، ولكن ابن الخلنجى ما لبث أن فر عائداً إلى مصر، وما أن وصلها ورأى مبلغ تعسف العباسيين فيها وتعلق الشعب المصرى بالدولة الطولونية حتى قرر القيام بثورة ضد الخلافة لمحاولة إعادة الدولة الطولونية، واجتمع حوله نفر من جند الطولونيين وبايعوه، فأسرع بمن معه إلى مدينة الرملة وذلك فى شعبان سنة ٢٩٢هـ (يونيو ٩٠٥م)، حيث أفلح فى القضاء على الحامية العباسية بها، ودخل المدينة ودعا على منابرها لإبراهيم بن خماريه ابن طولون ولنفسه من بعده بوصفه نائبا للأمير الطولونى، الذى كان قد حمل أسيراً إلى بغداد، وما لبث أن قوى أمر ابن الخليج هذا، ولقى تأييداً كبيراً من المصريين فكثر أتباعه وقويت شوكته، ومن ثم عاد إلى مصر لمحاربة النوشرى، ونجح فعلا فى إنزال الهزائم المتوالية به وإجباره على الجلاء عن

الفسطاط والانسحاب إلى الجيزة ثم إلى الإسكندرية، وهكذا دانت الدلتا بأكمالها لابن الخليج وأصبح موقف الخلافة حرجاً فى مصر. ولهذا لم يتوان الخليفة المكتفى عن إرسال الجيش تلو الجيش لمحاربة هذا الثائر وفى كل مرة كان ابن الخليج ينجح فى الانتصار على جيوش الخلافة. لكن ابن الخليج عاد فأرسل فرقة من جيشه تتبع النوشرى فى الاسكندرية، وكانت تلك الفرقة بقيادة جندى نوبى يدعى خفيفا، إلا أن هذه الفرقة لقيت هزيمة مرة على يد النوشرى، فاضطرب أمر ابن الخليج بعدها وحلت به الهزيمة فى النهاية فهرب إلى الفسطاط حيث القى القبض عليه وأرسل إلى بغداد فأشهر فيها وجرى إعدامه فى النهاية، وعادت مصر إلى قبضة الخلافة العباسية من جديد بعد أن حكمها ابن الخليج سبعة أشهر وعدة أيام.

وليس من شك فى أن النجاح الذى حققه ابن الخليج يعزى جانب كبير منه لتحمس الشعب المصرى وتحديه للخلافة العباسية التى قضت على دولة لها فى مصر طابع قومى وأمراء كفوا يد الولاة العباسيين عن نهب ثروات مصر وإرسالها إلى خزائن الخلافة وجيوب كبار رجال الدولة العباسية فى بغداد وأضحت هذه الأموال تنفق فى مصر، ولا تتسرب خارجها، فضلا عن أن قيام محمد بن سليمان بتخريب القطائع قد ترك

ألماً وحسرة فى نفوس المصريين وزاد فى حنقهم على الخلافة ورجالها.

وقد تجلى هذا الحنق فى التأييد الذى لقيته المحاولات الفاطمية لغزو مصر فى السنوات القليلة التى أعقبت زوال الدولة الطولونية، إذ كان أبو عبد الله الشيعى قد نجح فى نشر الدعوة للفاطميين فى بلاد المغرب وأرسل يستدعى عبيد الله المهدى صاحب الدعوة الفاطمية وهو من سلالة فاطمة الزهراء وكان مقيما حينئذ بسلمية ببلاد الشام، فأرسل يستدعيه إلى المغرب، وفى طريقة مر عبيد الله المهدى متخفيا بمصر وعبر إلى شمال افريقية برغم الأوامر المشددة التى أصدرها الخليفة العباسى بالقبض عليه. ويبدو أن عبيد الله المهدى - كما ذهب بعض المؤرخين - استطاع أن يرشى محمد بن سليمان أو النوشرى بأموال كثيرة من التى حملها معه، فسهلا له الاجتياز إلى بلاد المغرب، ومن ثم وصل الى سجلماسة دون أن يلحق به أذى ليبدأ صفحة جديدة ومثيره فى تاريخ الدولة الفاطمية، وتتضح قضية عزوف المصريين عن الخلافة العباسية فى ذلك الوقت واستمرار تعلقهم بالدولة الطولونية وأسفهم على ما فقدته مصر من استقلال، فيما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن المصريين هم الذين كاتبوا الفاطميين فى المغرب - بعد أن استقرت لهؤلاء

الأمور هناك - يناشدونهم غزو مصر وتخليصها من قبضة العباسيين وعسف ولاتهم، مما يوحى بأن المصريين أحسوا أن فى تلك القوة الناشئة فى المغرب منفذا للخلاص من سيطرة الخلافة العباسية.

ومهما يكن من أمر فإن الفاطميين لم يضيعوا الوقت فبعد أن ثبتت أقدامهم فى المغرب تطلعوا لامتلاك مصر لما لها من موقع فريد وثراء طائل يمكنهم من تهديد نفوذ الخلافة العباسية فى الشرق ويحاولون منه الحصول على زعامة العالم الاسلامى، فلم تكد تمضى سنوات قليلة على قيام دولتهم حتى أرسل المهدى جيشاً لغزو مصر وذلك سنة ٣٠١ هـ (٩١٣م) تحت قيادة حباسة بن يوسف، وكان والى مصر حينئذ أبو منصور تكين الذى عين بعد وفاة عيسى النوشرى سنة ٢٩٧هـ (٩٠٩م)، وما لبث الفاطميون أن استولوا على برقة ثم الإسكندرية وأوغلوا فى الوجه البحرى، حيث أظهر فريق من الشعب المصرى الفرح بهذا الغزو بتأثير الدعاية الفاطمية، وفشل والى مصر أبو منصور تكين فى وقف تقدم الفاطميين فأرسل يستنجد بالخليفة العباسى، الذى سارع بإرسال جيش كبير يقوده مؤنس الخادم فنجح هذا فى إنزال الهزيمة بقائد الفاطميين حباسة بن يوسف

وأجبره على الارتداد إلى بلاد المغرب حيث قتله الخليفة الفاطمى هناك.

على أن الفاطميين لم ييأسوا بعد ذلك، فلا زالت دعوتهم تبث بواسطة الدعاة، ولا زال نفور المصريين من عسف العباسيين يعطى مناخا مناسبا لانتشار هذه الدعوة، فضلاً عما لجأ إليه العباسيون مؤخرا من انتقام من المصريين وتنكيل بكل من يميل للدعوة الشيعية، فقد عزل تكين عن ولايه مصر بإشارة مؤنس الخادم، وعين بدلاً منه ذكا الأعور أو ذكا الرومى ٣٠٣ - ٣٠٧. الموافق (٩١٥ - ٩١٩م)، فأظهر هذا قسوة فى معاملة أشياع الدولة الفاطمية فى مصر وتحمسا لاستئصال شأفتهم نهائياً، فتتبع كل من تثور الشبهة فى اتصاله بالفاطميين وزج بهم فى السجن ولجأ إلى قطع أيدى وأرجل بعضهم وإظهار العسف فى التنكيل بهم، إلا أن هذه الإجراءات لم تكن لها نتيجة سوى ازدياد الحنق على السلطات العباسية والميل مع دعاة الشيعة والتجاوب مع أمانى الفاطميين. ويبدو أن ذلك شجع الفاطميين على إرسال جيش آخر كان يقوده فى هذه المره ابو القاسم ابن المهدى وذلك فى سنة ٣٠٧ هـ (٩١٩م)، فى الوقت الذى كان فيه ذكا الرومى قد توفى وولى مصر تكين للمرة الثانية، واستولى الجيش الفاطمى على الإسكندرية وسار إلى الجيزة وفشل تكين فى

وقف تقدم الفاطميين مما جعل الخليفة العباسى يرسل جيشا بقيادة مؤنس الخادم للمرة الثانية سنة ٣٠٨هـ (٩٢٠م)، وعلى الرغم من أن مؤنس استطاع أن ينزل الهزيمة بالجيش الفاطمى ويجبر قائده على الفرار إلى المغرب بعد القضاء على كثير من الجند الفاطميين وتحطيم بعض سفنهم، إلا أن النفوذ الفاطمى كان قد استشرى فى البلاد وبلغ حتى الأشمونين والفيوم، ولم يكن ثمة ما يمنع الأهالى من استمرار تجاوبهم مع الفاطميين ودعوتهم.

والواقع أن تلك المحاولات المبكرة من جانب الفاطميين لم يكن لها من القوة ما يكفل لها النجاح للفوز بمصر واقتطاعها من الخلافة العباسية، وإن بدا أن هذه الخلافة قد اهتزت بسبب تكرار هذه المحاولات وما ترتب عليها من فوضى واضطراب وما نجم عنها من سوء الأحوال وتعكير الصفو والأمن، ولا شك إن الصدام بين الخلافتين الشيعية والسنية فى مصر قد انعكست آثاره على المصريين أنفسهم فلحقت الأضرار بأهل مصر وعرضتهم لعبث الجند وسوء تصرف الرعاع وإهمال مرافق البلاد وسوء أحوالها.

المادرائيــــون

وهكذا انتقلت مقاليد السلطة فى مصر فى الفترة بين الدولتين الطولونية والإخشيدية إلى أيدى الولاة العباسيين وقادة الجيش العراقى فى مصر وإن شاركتهم فى هذا النفوذ أسرة المادرائيين التى سنتحدث عنها بعد قليل، لكن يهمنا هنا أن نشير إلى أن أهم الولاة فى تلك الفترة هو تكين الذى تولى أمر مصر أربع مرات بين سنتى ٢٩٨ - ٣٢٣ هـ (٩١٠ - ٩٣٥م)، حكمها فى مجموعها ستة عشر عاما وكانت له يد فى القضاء على محاولات الفاطميين لغزوها، كما كان ابرز قادة جيش العراق فى مصر فى تلك الفترة مؤنس الخادم الذى جاء على رأس جيشه إلى مصر أكثر من مرة للتصدى للمحاولات الفاطمية من ناحية وإقرار الأمور فى البلاد من ناحية أخرى.

أما المادرائيون الذين استطاعوا أن يشاركوا فى تشكيل تاريخ تلك الحقبة فهم من أسرة فارسية الأصل نزحت من العراق إلى مصر فى زمن سابق ربما فى بداية عهد أحمد ابن طولون واستطاع بعض أفرادها أن يحصلوا على بعض الوظائف الرئيسية فى مصر، ونال عميد هذه الأسرة وهو أحمد بن إبراهيم المادرائى ولاية خراج مصر سنة ٢٦٦هـ زمن أحمد بن

طولون كما عين الحسين بن أحمد الماذرائى المعروف بأبى زنبور وهو من أعظم أعلام هذه الأسرة فى عمل رئيسى ببلاد الشام من قبل أحمد بن طولون أيضاً وظل أفراد هذه الأسرة يتولون المناصب الهامة فى مصر منها ولاية الخراج لكن أشهر الماذارئيين على الاطلاق هو الحسين بن أحمد (أبو زنبور) الذى عاد من بلاد الشام إلى مصر وظل مقيما بها إلى أن أوفد مرة ثانية إلى الشام سنة ٢٨٣هـ ، ٢٨٤هـ من قبل الطولونيين بصحبة بدر القائد الطولونى ليقر الأمور فى دمشق لهارون بن خمارويه ويبدو أن الحسين بن أحمد الماذرائى كان كثير التردد على دمشق وبها كان يقضى بعض فترات وقته، غير أن هذا الرجل كان له ضلع فى سقوط الدولة الطولونية وخيانتها بعد طول خدمته لها، فقد انضم إلى الجيش العباسى الذى قاده محمد بن سليمان إلى مصر لاستردادها فاستطاع أبو زنبور بذلك أن يثبت صلاحيته للعمل مع النظام الجديد فى مصر وأن يضمن بقاء نفوذ أسرته وأظهرت الخلافة تحمسا للإفادة من خبرة هذا الماذرائى لاسيما فى الشئون المالية فعينته عاملا على خراج مصر وأبعدت سائر أفراد أسرته المخلصين لبنى طولون، وكانت ولايته الخراج على حساب أحد أبناء أخيه الذى تولى هذه الوظيفة من قبل

الطولونيين، بل إن الخلافة العباسية فوضت إليه النظر فى أموال بنى طولون وضياعهم وظل يتولى هذه الوظيفة حتى عزل عنها سنة ٢٩٦هـ (٩٠٨م) ثم أسندت إليه ولاية الخراج بالشام سنة ٣٠١هـ (٩١٣م) وظل يتولى هذه الوظيفة ويعزل عنها حتى توفى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩م) بعد أن أفلح فى مد نفوذ الماذرائيين حتى أصبحت مصر والشام فى يدهم من الناحيتين المالية والاقتصادية وامتد نفوذهم إلى العراق أيضا فكان لهم شأن عظيم هناك ولعبوا دوراً هاما فى الأحداث هناك، كما اتسعت ثروتهم فى مصر كثيراً حتى قيل أن أبا زنبور وابن أخيه محمد بن على كانا يملكان فى مصر مائة فرسخ مربع من الضياع وروى أيضا أن محمد بن طغج الإخشيد صادر من بضائع أبى زنبور ما يساوى أكثر من ثمانين ويبة من الدنانير، ويرجع سبب هذه الثروة الطائلة إلى أنهم كانوا يضمنون خراج مصر والشام فى بعض السنين، بدفع مبلغ معين من المال إلى خزانة الحكومة المركزية فى بغداد على أن يأخذوا على عاتقهم جباية الخراج فى هذين الإقليمين وطبيعى أنهم كانوا يجمعون من المال أكثر مما كانوا يدفعون إلى بيت المال، فضلا عن أنهم كانوا يحتجون أحيانا بكثرة نفقات الجند فلا يدفعون إلى بغداد ما تعهدوا بدفعه،

وبذلك كانت ثرواتهم تتعاظم عاما بعد عام، وهى التى مكنتهم من فرض نفوذهم فى البلاد والمشاركة فى تشكيل تلك الحقبة قبل قيام الدولة الإخشيدية وبعد قيامها أيضا.

محمد بن طغج الإخشيد

المعروف أن الخليفة المعتصم بالله العباسى (٢١٨ - ٢٢٧ هـ، ٨٣٣ - ٨٤١م) هو الذى مكن للعناصر التركية فى الدولة واستكثر منهم، وجلب كثيراً منهم من فرغانة وأسند إلى هؤلاء الترك الوظائف الهامة فى الدولة بعد أن استبعد العرب منها، وأظهر كرما زائداً مع أولئك الأتراك وأقطعهم القطائع ف سامرا، واعتمد عليهم فى حماية سلطانه وبرز من أولئك الترك قائد يدعى جف - جد الإخشيديين - نال منزلة خاصة لدى المعتصم وحظى برعاية هذا الخليفة نظراً لما أبداه من شجاعة وإقدام فى الحروب، كما ظل يتمتع بنفس المنزلة لدى الخلفاء بعد المعتصم، فاحتفظ بمكانته لدى الواثق (ت ٢٣٢ هـ - ٨٤٦م) والمتوكل (ت ٢٤٧ هـ / ٨٦١م) وتوفى جف فى نفس الليلة التى قتل فيها المتوكل، وبعد وفاته انصرف أبناؤه عن بغداد فيمم طغج بن جف وجهه شطر مصر حيث اتصل بأحمد بن طولون ودخل فى طاعته، ولكنه لم يظل على هذا الولاء طويلاً إذ انضم إلى إسحق

بن كنداج وإلى الموصل الذى دخل فى صراع مع أحمد بن طولون، واستمر طغج مغاضبا لأحمد بن طولون حتى وفاة هذا الأخير وعندئذ عاد طغج إلى ولائه للأسرة الطولونية وولى من قبلها بلاد الشام، وأخلص فى خدمتها، وهو الذى قبض على قتلة خمارويه فى الشام، وظل طغج بن جف واليا على دمشق وطبرية أيام ابى العساكر جيش وعلى أيام هارون بن خمارويه نجده واليا على الشام أيضا، وعندما قتل شيبان بن أحمد بن طولون ابن أخيه هارون بن خمارويه لم يعترف طغج بشيبان وإنما سارع بالانضمام إلى محمد بن سليمان، فكان له ضلع هو الأخر فى القضاء على الدولة الطولونية، كما فعل أبو زنبور الماذرائى، وعلى الرغم من ذلك لم يسلم طغج بن جف من أذى العباسيين، إذ استصحبه محمد بن سليمان معه إلى بغداد عند عودته، فزجت به الخلافة العباسية فى السجن مع ابنيه محمد وعبيد الله، فظلوا فى السجن حتى توفى طغج سنة ٢٩٤هـ (٩٠٦م) فأفرج عن ولديه فغادرا بغداد بعد فترة وجيزة حيث توجه محمد ابن طغج إلى بلاد الشام وسار أخوه عبيد الله إلى ابن أبى الساج أمير داغستان. ومحمد بن طغج هو مؤسس الدولة الإخشيدية.

ظل محمد بن طغج يقيم ببلاد الشام نحو عام حتى اتصل بتكين وإلى مصر واشترك فى رد الغزوة الفاطمية سنة ٣٠٢هـ (٩١٤م) وحين نقل تكين من مصر استصحب محمد بن طغج، الذى أصبح منه، على حد الروايات - بمنزلة الولد، وعندما تولى تكين ولاية الشام واستقر فى دمشق عهد إلى محمد بن طغج النيابة عنه فى حماة وجبل السراة وأبلى محمد بن طغج بلاء حسناً فى حماية الحجاج من البدو والأعراب الذين قطعوا طريق الحج سنة ٣٠٦ (٩١٨م) بين دمشق والحجاز، ولما عاد تكين من جديد إلى مصر وإليا عليها عين محمد بن طغج نائباً عنه بالاسكندرية، فعلا نجم ابن طغج فى رد الغزوة الفاطمية الثانية سنة ٣٠٧هـ (٩١٩م) وخلال تواجده فى مصر وثق محمد بن طغج علاقته ببعض المادرائيين لاسيما الحسين بن أحمد المادرائى (أبو زنبور)، وعرف منهم كثيراً من الشئون المالية فى مصر، وهى التى أفادته أيما إفادة فيما بعد، ثم ولاه تكين بعد ذلك أمر الحوفين الشرقى والغربى، لكنه كان قد بدأ يشره للمال ويقوم ببعض المصادرات والاستيلاء على التركات، الأمر الذى تسبب فى سوء العلاقات بينه وبين تكين، وعندئذ التمس ابن طغج من الخلفية المقتدر العباسى إحدى الولايات خارج مصر، فعينه الخليفة وإليا على الرملة سنة ٣١٦هـ (٩٢٨م) ثم وإليا على

دمشق بعد ذلك بثلاث سنوات فأخذ يمكن لنفسه فى بلاد الشام واستقدم إخوته وكون لنفسه قوة عسكرية تحقق له مشروعاته وتطلعاته التى لا شك أنها انحصرت فى إضافة ولاية مصر إلى ما بيده من بلاد الشام، وزاد شراهة للمال ليستكثر من الجند فاستمر فى المصادرات والاستيلاء على التركات والاستكثار من الجند حتى نجح فى أن يستصدر من الخليفة العباسى القاهر بالله أمرا بولايته على مصر مضافة إلى ولاية الشام وذلك سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣م). غير أنه قبل أن ينتقل إلى مصر، ولما يمضى على ولايته شهراً واحداً عاد الخليفة العباسى القاهر فعين أحمد بن كيغلغ وإليا على مصر، فدخلها هذا فى شوال سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣م) فى الوقت الذى لم ييأس فيه محمد ابن طغج من محاولة الحصول على ولاية مصر من جديد، ونجح مرة ثانية فى استصدار قرار من الخليفة الراضى بالله الذى خلف عمه القاهر بولايته على مصر، وفى هذه المرة دخل محمد طغج مصر فعلا فى رمضان سنة ٣٢٣هـ (سبتمبر ٩٣٥م) حيث أنزل الهزيمة بأحمد بن كيغلغ – الذى تصدى له ومنعه من الدخول – وأجبره محمد بن طغج على الاستسلام والخروج من مصر بعد أقل من عامين من ولايته الثانية، واستقر لمحمد بن طغج حكم مصر، ومالبث أن استقبل رسول الخليفة يحمل إليه خلعة الولاية، ثم

أمـر الخليفـة الراضى أن يـزاد فى ألقـاب مـحـمـد بن طـغج لقب «الإخشـيد» أو «الإخشيذ» وهـو الذى صار لقبـا لأسـرة مـحـمد بن طغج، ويقـال أنه لفـظ تركى «يعنى» ملك الملوك تلقب بـه ملوك فـرغـانة الأتراك وحيث أن مـحـمـد بـن طغج كـان ينتـمى لأتراك فـرغـانة، فـقـد أراد الخليفـة أن يكرمـه بلقب قـريب مـن وجـدانه ويتـمـشى مع أصـوله كـان قـد تلقب بـه ملوك الأتراك فى فـرغـانة ومهما يكن من أمر فقد ظل هذا اللقب يلتصق بأسـرة مـحمد بن طغج التى حكمت نحوا من أربعة وثلاثين عاماً.

الإخشيد وتدعيم نفوذه فى مصر والشام

الواقع أن الظروف التى تولى فـيهـا مـحمد بن طغـج الإخشـيد أمـور مـصـر، لم تكن مـواتيـة فـقـد كـان طمع رجـال الدولة فـيـهـا عظيمـا، كما أن الماذرائيين كـانوا قـوة لايستـهـان بهـا فى مصـر، سـيطروا على إدارة البـلاد وجمـعـوا الكثـير من ثرواتهـا وبالتـالى عـارضـوا ظهـور أية قـوة فى مـصـر مـن شـأنهـا أن تهـدد كـيـانهم ومصـالحهم، أمـا من جهـة الغرب فـقد اشتـد طمع الفاطمـيين فى مـصـر، ولم يعـد يمر وقت حـتى يـوجهـوا إلـيـهـا حـملة عـسكرية وهكذا عـاش الإخـشـيـد وخـلفـاؤه بين شـقى الرحى طوال مـدة حكمهم فى مصـر.

ولقد اصطدم الإخشيد في بداية عهده بالماذرائيين، ولكنه استعان في الصراع بتأييد الفضل بن جعفر بن الفرات ممثل الحكومة المركزية في مصر وصاحب الحظوة في البلاط العباسي، والذي كان يكن العداء لأسرة الماذرائيين التي ناصبت أسرته العداء طويلا، وكان الإخشيد قد زوج ابنته لجعفر بن الفضل، فلعبت هذه المصاهرة دورها في توثيق العلاقات بين الرجلين، واشتد الفضل في محاسبة الماذرائيين للحصول على ما لديهم من الأموال، ثم مالبث الأخشيد أن صادر معظم ضياع هذه الأسرة بمصر والشام بموافقة الفضل ابن جعفر وقبض على عميدهم ويقال أن الفضل كان يغذى ميل الإخشيد نحو الاستقلال بمصر، ولهذا كان الإخشيد عظيم الاحترام لهذا الوزير وكثيرا ماكان يخرج على رأس كبار معاونيه لتوديعه واستقباله إذا عاد إلى مصر. ومهما يكن من أمر فقد ترتب على القضاء على سطوة الماذرائيين تخلص محمد بن طغج من عقبة كئود في طريق ولايته داخل مصر، فضلا عن مده بقدر كبير من المال مكنه من الوقوف على أقدامه، وكان له الفضل في تثبيت مركزه في مصر بالإضافة إلى ما أكتسبه من هيبة في قلوب منافسيه باعتبار الماذرائيين قوة كان لايستهان بها داخل البلاد.

ولم يكد محمد طغج الإخشيد يثبت أقدامه فى مصر حتى لاحت الأخطار من جهة بلاد الشام من جهة محمد بن رائق الذى كان من كبار رجال الدولة العباسية والذى استطاع أن يرغم الخليفة الراضى على تقليده جميع أمور الدولة فى سنة ٣٢٤هـ [٩٣٦م] فكانت ولايته تمهيدا لما عرف بعد ذلك بوظيفة أمير الأمراء، على أن هذا الرجل ما لبث أن دخل صراع مع منافسيه على هذا المنصب بعد نحو عامين، فمنحه الخليفة ولاية حران والرها وغيرها من البلاد الواقعة على تخوم الدولة جهة الشمال، ليخرجه من بغداد بعد أن اشتدت وطأته فيها وعانت الخلافة نتائج تطاحنه من أجل الوظيفة. ويبدو أن محد بن رائق اضطر لقبول هذه الولاية الصغيرة على أمل أن يقوم ببسط نفوذه على بلاد الشام بأسرها بل ومده إلى مصر ذاتها، وكانت بلاد الشام عندئذ داخله فى ولاية محمد بن طغج الإخشيد الذى أولاها اهتماما كبيرا نظرا لأنها المنفذ الحقيقى إلى مصر والباب الأمامى لمصر من جهة الشرق، ولهذا فزع الإخشيد من التفات محمد بن رائق إليه ومحاولته أخذ بلاد الشام منه وتهديده فى مركزه بمصر.

بدأ ابن رائق مشروعه ضد الإخشيد بأن أرسل إليه يطلب اتاوة على ممتلكاته ببلاد الشام، باعتباره نائبا عنه بتلك البلاد، وحيث أن الإخشيد لم يكن فى هذا الدور يميل إلى الدخول فى

صراع مسلح مع جار قوى مثل ابن رائق لاسيما وأن وضعه فى مصر لم يكن مرضيا بعد، فقد استقر رأيه على تقديم المال لابن رائق وأرسل له المبلغ المطلوب فعلا ربما يكون ذلك نهاية لمتاعبه من هذه الجهة، الا أن ابن رائق لم يكن فى الحقيقة يقصد المال، وانما كان يهدف إلى الاستيلاء على بلاد الشام ذاتها، والوثوب منها على مصر عل ذلك يرضى طموحه وآماله العريضة ولهذا قام بالتقدم فعلا نحو الجنوب حيث استولى على معظم مدن الشام حتى الرملة فى جنوب فلسطين وأوقع الهزيمة بنائب الإخشيد فى دمشق وهو بدر بن عبد الله، وذلك سنة ٣٢٧هـ [٩٣٨م] وإذا كان محمد بن طغج قد لجأ عندئذ إلى الخلافة العباسية يشكوا ابن رائق، فإنه تنبه حينئذ أن الخلافة أضعف من أن تفض هذا النزاع بين اثنين من ولاتها بعد أن ضعفت همة القائمين على أمورها ووقع الخلفاء نهبا للمطامع والتطاحن وقنعوا فى النهاية برسوم سلطة شكلية، ولهذا عول الإخشيد على الاعتماد على قوته لردع هذا الوإلى الطامع وخرج فعلا إلى الرملة بعد أن استخلف أخاه الحسن على مصر، وأمر بعض سفنه فى البحر بالتوجه إلى بلاد الشام لتقديم العون له، على أن الأمور لم تتطور حد وقوع صدام كبير بين الطرفين إذ تدخل بعض الأمراء لعقد صلح بين الجانبين سنة ٣٢٨هـ [٩٣٩م]

رضى الإخشيد بمقتضاه أن تكون طبرية وما والاها شمال لمحمد بن رائق فى حين تدخل فى حوزته هو البلاد الواقعة إلى جنوب طبرية.

على أنه يبدو أن هذه السياسة اللينة أطعمت ابن رائق فلم يكد يسمع بوصول الإخشيد إلى الفسطاط عائداً من فلسطين، حتى نقض شروط الصلح، وخرج من دمشق وتقدم صوب حدود مصر نفسها، فعاد الإخشيد مسرعا على رأس جيشه حيث التحم مع جيش ابن رائق فى موقعة حامية قرب العريش نجح فيها فى إنزال الهزيمة بابن رائق وأسر نحو خمسمائة من رجاله وأجبر ابن رائق نفسه على الارتداد سريعاً إلى دمشق للتحصن بها، لكن برغم إنتصار الإخشيد إلا أنه فيما يبدو أحس أنه لا يستطيع الصمو أمام ابن رائق فمال إلى توقيع صلح آخر على أن يحمل إليه كل عام ١٤٠,٠٠٠ دينار وتكون الرملة وما والاها جنوبا للإخشيد، ويترك باقى الشام لابن رائق، وكان ذلك فى المحرم سنة ٣٢٩هـ (أكتوبر سنة ٩٤٠م) ولم تلبث أن أتت الأخبار تترى بوفاة الخليفة الراضى فى ربيع الآخر من نفس العام (٣٢٩هـ) وقيام أخيه المتقى فى الخلافة، ثم قتل ابن رائق فى العام التالى، فسار الإخشيد ودخل دمشق وضم الشام إلى ولايته سنة ٣٣٠ هـ (٩٤١م) وأقره الخليفة المتقى على ذلك بعد

أن نجح الإخشيد فى كسب ثقة هذا الخليفة الجديد فأصلح الإخشيد أمور الشام وعاد إلى مصر وقد تأكد من ثبات قدمه فى ولايته بعد أن جنبته الأقدار استمرار الصراع مع ابن رائق، ولهذا لاعجب اذا أقدم بمجرد عودته إلى مصر على أخذ البيعة لابنه ابى القاسم أنوجور من جميع القادة والجند، فقد عكست هذه الخطوة إحساسه بتلاشى الأخطار حوله من جهة ورغبته فى إقامة إسرة حاكمة ترث العرش فى مصر من جهة أخرى، فضلاً عن أنه كان قد بدأ ينقش اسمه على السكة إلى جانب اسم الخليفة العباسى مما يشير إلى إحساسه بنوع من الاستقلال مع حرصه على عدم قطع ما يربطه بالخلافة من روابط.

والواقع أن محمد بن طغج الإخشيد كان يحاول التشبه بأحمد بن طولون فى كل شئ برغم ما بين الرجلين من فروق، وما ميز كل منهما من صفات مختلفة، فقد كان جشع الإخشيد ونهمه للمال واستهانته بما فى أيدى الناس، وقلة تعففه، قد جعله موضع الزراية والانكار والتندر وربما خفف من ذلك أن الرجل كان شديد التقى وإن كان هذا التقى لا يظهر إلا بعد قيامه بالأذى، بل ربما كان تقاه وضراعته إلى الله خوفا من العذاب لاعن عاطفة دينية كريمة، ومهما يكن من أمر، فقد كان الإخشيد يعى جيدا التجربة التى عاشها ابن طولون، وكان معنيا بتقليده فى كل شئ

وإن لم يوفق فى ذلك كثيراً، فقد ظل الناس لا يوقرونه توقير الملوك حتى أصبح يطلب ذلك ويصر عليه، وقد قرب نفرا من بقايا الطولونيين فأصبحوا ندماؤه وربما جلس للعلماء والشعراء، وحاول أن يضفى على دولته مسحه من الحضارة والتمدين ويظهر رعايته للعلوم والفنون والآداب، ولكن هيهات أن يصل فى ذلك إلى ما وصل إليه مؤسس الدولة الطولونية ... وإن أفلح فى تقليد بعض مظاهر الدولة الطولونية فكان متجملاً فى موكبه وملبسه له هيبة عظيمة فى قلوب الرعية مع شئ من الحزم والتيقظ وحسن التدبير، وكان قوى التحرز على نفسه تحرسه مماليكه بالنوبة، عندما ينام كل يوم ألف مملوك فقد بلغت عدة مماليكة نحو ثمانية آلاف مملوك كما بلغت جيوشه نحو أربعمائه ألف جندى.

وما لبثت الظروف أن هيأت للإخشيد فرصة مع الخلافة العباسية مشابهة لما حدث مع ابن طولون من قبل، وذلك حين اشتدت وطأة أمير الامراء توزون على الخليفة المتقى الأمر الذى اضطر الخليفة إلى النزوج من بغداد إلى الموصل وهجر عاصمته إلى شمال العراق حيث أمل فى نجده من قبل الحمدانيين، إلا أنه لم يلبث أن قنط من مساعدة الحمدانيين، وخاصة بعد أن تغلب توزون على النجدة التى أرسلوها لمساعدة الخليفة ولهذا اتجه

الخليفه إلى الإخشيد يستنجد به وذلك سنة ٣٣٢هـ (٩٤٣م) وعندئذ سارع الإخشيد بالخروج من مصر لملاقاة الخليفة قرب نهر الفرات وتم اللقاء فعلا وفيه بالغ الإخشيد فى احترام الخليفة وتوقيره، وعرض عليه المسير معه إلى الشام ومصر قائلاً «هى لك وتأمن على نفسك غدر الاتراك وفجورهم» وذلك مثلما فعل ابن طولون مع الخليفة المعتمد إلا أن الخليفة المتقى لم يوافق على المسير مع الإخشيد بل رد عليه فى كثير من الامتنان والولاء قائلاً «قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك أنوجور» ويعنى ذلك أن الخليفة قد وافق على أن يورث الإخشيد مصر لأبنائه من بعده، ولكنه لم يقبل ترك العراق لاسيما وقد تحسنت الأمور بينه وبين توزون حينئذ وتلقى رسالة من هذا الأخير يدعوه فيها للعودة إلى عاصمته. وهكذا فشلت محاولة الإخشيد فى جذب الخليفة إلى مصر وجعل مصر مركز الخلافة العباسية مثلما فشلت أيضا محاولة ابن طولون من قبل مع الخليفة المعتمد وإن ظلت علاقة الإخشيد بالخلافة لا يشوبها شائبة حتى بعد أن تم عزل الخليفة المتقى على يد توزون وإقامة الخليفة المستكفى بالله فقد ظلت العلاقة طيبة بين الإخشيد وبين هذا الخليفة ثم بينه وبين المطيع وإن مضى الإخشيد فى اكساب نفسه جانبا من الاستقلال فى ولايته وهو أمر طبيعى مادامت

الخلافة غارقة فى مشاكلها قانعة بدورها الثانوى فى بغداد لا حول لها ولا قوة فى بقية الإمارات البعيدة.

أما فيما يختص بعلاقة الإخشيد بالحمدانيين فمن خلالها يظهر اهتمام الإخشيد ببلاد الشام لتأمين وجوده فى مصر فقد كان الحمدانيون قد غدوا قوة كبيرة فى شمال الشام والجزيرة، بل أخذوا يتطلعون لمد نفوذهم على بقية بلاد الشام، وبمجرد عودة الخليفة المتقى إلى بغداد بعد لقائه مع الإخشيد زحف سيف الدولة الحمدانى على حلب ودمشق واستولى عليهما من الحاميات الإخشيدية وعندئذ أحس الإخشيد بخطورة الموقف كما تأكد من ضعف الخليفة المستكفى عن عمل شئ لإقرار الأمور فى بلاد الشام، ولهذا بادر بإرسال جيش يقوده كافور إلى الشام، التقى بجيش سيف الدولة الحمدانى عند الرملة، واستطاع أن ينزل به الهزيمة ويجبر فلول الحمدانيين على التقهقر إلى حمص وحماة، فتتبعهم كافور لطردهم إلى أطراف البلاد، إلا أن الحمدانيين نجحوا فى انزال الهزيمة بكافور عند نهر العاصى، وعندئذ خرج الإخشيد بنفسه إلى الشام وحدثت بعض المواقع بينه وبين الحمدانيين لم ترجح فيه كفة أحد الطرفين فى الوقت الذى مالا فيه إلى عقد الصلح، فتم عقد الصلح بينهما سنة ٣٣٤هـ (٩٤٥م) اتفق فيه على أن تصبح مصر وحلب وما بين

النهرين لسيف الدولة وأن تكون بقية بلاد الشام جنوبي حمص للإخشيد، كما ارتبط الطرفان برباط المصاهرة توثيقا للعلاقات بينهما وتأكيداً لحسن الحوار.

نهاية الإخشيد وتولى أنوجور :

وبعد توقيع هذا الصلح عاد الإخشيد إلى دمشق حيث وافته منيته فى نفس العام وهو فى الحادية والستين من عمره، ودفن بالقدس بعد أن حكم نحو إحدى عشرة سنة وبضعة أشهر، وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور، ولم يكن حينئذ يزيد على الرابعة عشرة من عمره، فانتهز أبو المسك كافور الفرصة ليضع يده على الأمور كلها، ومنذئذ حتى انتهاء الدولة الإخشيدية ودخول الفاطميين مصر سيطر كافور على مصائر مصر وجزء من بلاد الشام أحياناً، ولعب الدور الرئيسى فى تشكيل تاريخ تلك الحقبة، وكان كافور عبدا أسود خصى وصفه المؤرخون بقبح الشكل واعتلال البدن وكبر البطن والقدمين وقالوا أنه كان مثقوب الشفة السفلى، ويرجح أنه ولد بالنوبة أو الحبشة بين السنوات الأخيرة من القرن الثالث وأوائل القرن الرابع (٢٩٢هـ-٣٠٨هـ) ثم جلبه أحد تجار الرقيق إلى مصر وسنه عشر سنوات فبيع أكثر من مرة حتى انتهى إلى محمد بن طغج الإخشيد.

وأظهر له إخلاصا عظيماً فقربه الإخشيد ورفع قدره وعهد إليه بتربية ولديه أنوجور وعلى واحتل مكانة سامية فى أواخر ايام الإخشيد لم ينلها غيره من كبار رجال دولة الإخشيد.

وقد اجمعت المراجع على أن الرجل كان ذكيا، ألم بكثير من شئون الدولة وأعد نفسه للقيام بدور رئيسى فيها، حين رأى خلفاء الإخشيد صغاراً لا يرجى منهم خير فى الوقت الذى تجرد فيه رجال الدولة من الأمانة والإخلاص، ولهذا أخذ كافور يجهد نفسه بكسب الصداقات والأعوان ويمهد السبيل للهيمنة على شئون البلاد وكان كافور فى صحبة الإخشيد بالشام عند وفاة الإخشيد هناك سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥م) فتحرك بسرعة لضبط أمور الشام والعودة إلى مصر والاحتفال بتولية أنوجور، ومالبث أن وصل كتاب الخليفة المطيع يقر قيام أنوجوز على ولاية مصر والشام، وقد ظهرت نوايا كافور منذ البداية حين اتجه إلى رصد مخصصات لأنوجور قدرها اربعمائة ألف دينار فى السنة وأخذ يتصرف فى باقى أموال الدولة مستعينا فى ذلك بأحد الماذرائيين وهو أبو بكر محمد بن على الماذرائى.

غير أن الأخطار الخارجية ما لبثت أن اطلت برأسها بمجرد ولاية أنوجور، ذلك أن سيف الدولة الحمدانى لم يكد يسمع نبأ

وفاة الإخشيد وصغر ولده أنوجور حتى تحرك ناحية دمشق واستولى عليها من الحامية الإخشيدية، وعندئذ لم يتوان كافور عن حماية أراضى الدولة فخرج إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير، واستصحب معه أنوجور وعمه الحسن بن طغج والتقى عند الرملة بجيش سيف الدولة وأفلح كافور فى انزال الهزيمة به وأجبره على الفرار شمالا إلى حلب ومنها إلى الرقة، واكتفى كافور بذلك النصر ووافق على عقد صلح جديد مع سيف الدولة الحمدانى تعود بمقتضاه الأمور فى بلاد الشام إلى ما كانت عليه قبل تحرك سيف الدولة هذا ولم يخل الأمر من بعض الثورات الداخلية التى واجهت كافورا فى هذا الدور ولكنه استطاع بمهارته أن يقضى عليها، ليستتب الامر للاخشيديين ويقوى مركزه هو فى البلاد تدريجياً.

لكن يبدو أن أنوجور أحس بعد نحو عشر سنوات من ولايته أو بالتحديد فى سنة ٣٤٣هـ (٩٥٤م) أنه قد بلغ سناً تؤّله لإدارة شئون البلاد والتخلص من قبضة كافور الثقيلة، وأنه آن له أن ينفرد بالسطة فى ولايته، وربما كان لبعض الحاقدين على كافور من رجال الدولة ضلع فى تحريك أنوجور على إضمار الخلاف والشقاق لكافور وتزيين له التخلص من كافور مصورينه بصورة الرجل الأنانى الذى حاز أموال الدولة وانفرد بإدارتها

وبتدبير الجيوش والتحكم فى أملاك الإخشيد والحجر على ورثته. وعلى الرغم من أن الأزمة بين أنوجور وكافور قد انفرجت بسبب تدخل أم أنوجور وخوفها على ابنها من بطش كافور، فإن بعض الروايات أشارت إلى أن كافوراً نجح فى التخلص من أنوجور فعلا بأن دس له السم بعد هذه الحادثة بسنوات قليلة حيث جاز إلى ربه وهو فى ريعان الشباب وسنه لم يتجاوز الثامنة والعشرين، وذلك سنة ٣٤٩هـ (٩٦٠م) وحمل تابوته إلى القدس ليدفن بجوار والده بعد فترة حكم امتدت نحو أربعة عشر سنة، ولا نستبعد قيام كافور بذلك خاصة وقد تكررت هذه الحادثة مع على بن الإخشيد أخى أنوجور وخليفته الأمر الذى يشير إلى أن كافورا كان على استعداد لعمل أى شئ فى سبيل الحافظ على سلطته فى الدولة وبقاء نفوذه فيها.

على بن الإخشيد:

تولى على بن الإخشيد الملقب بأبى الحسن الإمارة بعد وفاة أنوجور، وكان علىّ فى الثالثة والعشرين من عمره، ومالبث الخليفة المطيع أن بعث بموافقته على ذلك، كما بقيت الأمور كلها فى يد كافور الذى استمر فى الحجر على هذا الأمير والقيام بتصريف شئون الدولة طوال الخمسة أعوام التى قضاها على فى الحكم، بعد أن استمر فى صرف «المخصصات» له وهو الراتب الذى خصصه من قبل لأخيه أنوجور، وواصل كافور قبضه على زمام السلطة فى البلاد. وعلى الرغم من أن هذا الأمير حاول كسلفة الانفراد بالحكم والتخلص من قبضة كافور البغيضة، إلا أن المسألة انتهت بوفاة على بن الإخشيد سنة ٣٥٥هـ (٩٦٦م) مما أكد الشك فى قيام كافور بدس السم له كما فعل مع أخيه أنوجور وعلى كل حال انتهت قصة هذا الأمير الإخشيدى حيث حمل جثمانه إلى القدس ليدفن هناك إلى جوار أبيه وأخيه أنوجور.

ويبدو أن فشل هذا الأمير فى إزاحة كافور يرجع فى أغلبة إلى أن نفوذ كافور كان قد قوى بشكل واضح عقب وفاة أنوجور، فلم يسمح كافور للأمير الجديد بأن يؤثر فى مكانته أو يزعزع شيئاً

من نفوذه فبالغ فى الحجر على الأمير ولم يكن يتركه يظهر للشعب أو يجتمع بغير ندمائه إلا معه، الأمر الذى اضطر معه على بن الإخشيد إلى الانصراف إلى مجالس اللهو والشراب والانكباب على الملذات ربما ليغرق فيها آلامه وأحزانه، وقبل أن يثوب إلى الصواب ويتوب عن ذلك كله ويلزم الصلاة وقراءة القرآن. وهكذا فشل على بن الإخشيد فى إزاحة كافور لضعف شخصيته وقلة أنصاره مع قوة كافور وتسلطه على شئون الدولة وزاد من ضعف موقف الأمير الإخشيدى ما حدث من قيام كافور بمنع الناس من الإجتماع به فمات محجورا عليه ليخلى السبيل أمام الحاكم الحقيقى لمصر وليتبوأ مكان الأمير المتوج فعلاً.

على أن السنوات الخمس التى وليها على بن الإخشيد تتميز بكثرة الاضطرابات الداخلية والخارجية وسوء أحوال البلاد وجاء ذلك مقرونا بانخفاض النيل فى العام التالى لولايته ٣٥١هـ (٩٦٢م) حيث ارتفعت الأسعار واشتد الغلاء ونزلت بالناس محنة شديدة واضطربت أحوالهم المالية والاقتصادية أما فى النواحى الخارجية فقد أشتدت أطماع الفاطميين فى مصر وتجددت هجماتهم من الغرب، كما اشتدت هجمات النوبيين من الجنوب فى الوقت الذى عبث فيه القرامطة ببلاد الشام وأنزلوا الخراب

والدمار بكثير من جهاتها، ولم تزد كل هذه الصعاب كافورا سوى صلابة وقوة لأنها أمدته بخبرة فريدة فى تسيير دفة الحكم وسط الأنواء وفى الظروف الحرجة.

ولايـة كافــــور

ولقد بقيت البلاد بعد وفاة على بن الإخشيد خمسة أيام دون أمير، ولابد وأن كافورا كان متردداً فى اتخاذ خطوة ما، فهو بين أن يقيم أحمد بن الإخشيد فى الحكم بعد أبيه، وبين أن ينتزع الحكم لنفسه ويسلبه من هذا الأمير الشرعى، وحيث أن أحمد ابن على بن الإخشيد كان لا يزال صبياً لم يتجاوز التاسعة من عمره، وحيث أن الرغبة كانت حاضرة لدى كافور فى سلب الإمارة علنا، بعد أن ظل يحكم البلاد من وراء ستار منذ وفاة سيده الإخشيد سنة ٣٣٤هـ، فقد قوى التيار الأخير فى نفسه وقرر ان يعلن نفسه اميراً على مصر، ودعا لنفسه فعلا على المنابر وأصبح أمير مصر المتوج ولكنه اكتفى بلقب الأستاذ فكان يقال «الأستاذ أبو المسك كافور» كما تلقب بالإخشيدى إشارة إلى الرباط الذى يربطه ببيت محمد بن طغج الإخشيد.

وقد جمع كافور من الصفات ما جعل رجال الدولة يهابونه وجمهور الناس يتعلق به فقد كان مع رجال الدولة حاسما بل

قاسياً فى حين كان مع جمهور الناس لينا يظهر التقى والورع والتواضع وحب آل بيت الرسول كما كان شجاعا مقداما جوادا وكان حريصاً على إرسال الأموال والطعام فى كل عام مع ركب الحجيج ليوزع فى الحجاز، كما قصده الشعراء طمعا فى كرمه وعلى رأسهم المتنبى، كما كان عادلاً «يداوم الجلوس غدوة وعشية لقضاء حوائج الناس» وقال فيه مؤرخ قديم «عظيم الحرمه وله حجاب وجوار مغنيات وله من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف زاد ملكه على ملك مولاه الإخشيد» وكان «كريما كثير الخلع والهبات خبيراً بالسياسة فطنا ذكيا جيد العقل داهية» والواقع أن كياسته ولباقته وسياسته ظهرت بجلاء خلال تعامله مع القوى الطامعة فى مصر فى ذلك الوقت والخلافتين المتناحرتين الخلافة السنية فى الشرق والشيعية فى الغرب فكان كافور «يهادن المعز» (الفاطمى) صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، وكان يذعن بالطاعة لبنى العباسى ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء وتم له الأمر».

هذا ولم يطل عهد كافور سوى سنتين وأربعة أشهر، لكن أعماله لاتقيم من خلال المدة الوجيزة التى حكمها كأمير متوج لأنه كان الحاكم الفعلى منذ وفاة الإخشيد فصمد كافور فى الحافظ على كيان الدولة من خطر الفاطميين وعدوان رجال

الدولة العباسية ولولاه لضاع أمر بنى الإخشيد عقب وفاة محمد بن طغج مباشرة. وبعد وفاة كافور اجتمع رجال الدولة وولوا أحمد بن على بن الإخشيد، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ (٩٦٧م) وجعلوا الحسن بن عبيد الله بن طغج (ابن عم أبيه) خليفته، وتولى أمر هذا الصبى الرجل المعروف الفضل بن جعفر ابن الفرات غير أن هذا اخطأ فى القيام ببعض المصادرات، فصادر بعض الناس وفى جملتهم يعقوب بن كلس، ففر هذا إلى الغرب إلى المعز لدين الله الفاطمى حيث حرضه على غزو مصر وهون عليه أمرها، ولهذا احتل ابن كلس منزلة سامية أيام الدولة الفاطمية ولم يتوان الخليفة الفاطمى المعز فى إرسال جيش بقيادة جوهر الصقلى سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) استولى على مصر فعلا وأسقط الدولة الإخشيدية بعد أن حكمت نحو أربعة وثلاثين عاما.

العلاقات الخارجية للاخشيدين :

تأتى علاقة الدولة الإخشيدية بالبيزنطيين فى مقدمة علاقاتهم الخارجية ولابد أن نسرع إلى تسجيل حقيقة هامة اتضحت من خلال تلك العلاقات، وهى أن الدولة البيزنطية برغم نهضتها الكبيرة التى شهدها النصف الثانى من القرن العاشر

الميلادى (الرابع الهجرى) كانت تهاب الإخشيديين وتعمل حسابا لهم كقوة فعالة فى بلاد الشام، ولهذا قام البيزنطيون بمكاتبة الإخشيديين رأسا متخطين الدولة العباسية، وأرسلوا رسلهم إلى مصر مباشرة دون أن تعرج على بغداد وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على ما كانت تتمتع به الدولة الإخشيدية من احترام وما كان معروفا عنها. حينئذ من استقلال فى الرأى وحرية فى التصرف دون أوامر من الخلافة أو من أية جهة أخرى، وتشير المراجع إلى قيام الإمبراطور رومانوس الأول (٩٢٠ - ٩٤٤) بمراسلة محمد بن طغج الإخشيد متجاهلا الخليفة العباسى فأظهر له الود طالبا تبادل الأسرى وتنظيم الافتداء ورد الإخشيد ردا لينا اذ كانت سياسته مع البيزنطيين تقوم على أساس الملاينة والموادعة بل إنه أكرم وفادة رسل رومانوس وأرسل معهم الهدايا للأمبراطور. كما سار أبو المسك كافور فى نفس الاتجاه من ملاينة البيزنطيين ومهادنتهم لاسيما وقد شغلت الدولة الإخشيدية بأخطار أشد من قبل الفاطميين والنوبة والقرامطة ولكن ذلك لم يمنعه من التصدى للمحاولات البيزنطية والتقدم لنجدة الدولة الحمدانية كلما تعرضت لأخطار البيزنطيين وكلما التمس منه أمراؤها المعونة. فحين نهضت بيزنطية وتجرأت

بالاغـارة على بلاد الشـام على عـهـد رومـانوس الثـانى (٩٥٩ - ٩٦٣م) بحملته على حلب سنة ٣٥١هـ (٩٦٣م) وفى الوقت الذى عجـز فيـه سيف الدولة الحمدانى عن وقف تقدم البيـزنطيين فى شمال الشام واستنجد بكافور وعلى بن الإخشيد بادرت الجيوش الإخشـيـدية بالخـروج من دمـشق لمحـاربة البيـزنطـيين وعندئذ انسـحب هـؤلاء سريعـاً. لكن يبدو أن الامبـراطور نقفـور فوقـاس الذى خـلف رومـانوس الثـانى والذى حكـم بين سنـتى (٩٦٣ - ٩٦٩م) والذى أغـار على بلاد الشـام سنة ٩٦٦م (٣٥٧هـ) على عهـد كافـور وخرب كثـيرا من جهـاتها وأوغل فـيها حـتى طرابلس هـذا الإمبـراطور لـم يجرؤ على التقـدم جنوبا للاستـيلاء على بيت المقدس حلـم الأباطرة. منذ القـرن السابع لأنه توقع مقاومـة صلبة من الإخشـيدين. حـقيقة نجح نقفور فـوقاس فى العـام التالى فى الاستيلاء على إنطاكية وفرض سيطرته على حلب إلا أن ذلك جاء عـقب وفـاة كـافـور وفى نـفس العـام الذى سـقطت فـيـه الدولة الإخشيدية على يد الفاطميين.

وليس من شك فى أن الإخـشـيـدين كـانوا مـتطوعـة المسلمين ببلاد الشـام، فقـد تكاثروا فى الثـغـور الإسلامـية تدفعـهم الحمـية الدينيـة وخـاصـة فى ثغـر طـرسـوس ذائع الصـيت، كـمـا ارسـل

الإخشيديون قواتهم لحماية الثغور المعرضة للخطر البيزنطى، وأخرجوا الاموال لافتداء أسرى المسلمين. وإذا كانت الدولة الإخشيدية والدولة الحمدانية لم تستطيعا رد عادية بيزنطة عن بلاد الشام بصورة حاسمة، فإنهما تمكنتا من انقاذ ما أمكن انقاذه لاسيما وأن بيزنطة كانت تعيش إفاقة لم تشهدها قبل ذلك بزمن طويل، كما كانت تحلم باستعادة بيت المقدس من ايدى المسلمين وإعادتها إلى حظيرة الامبراطورية كما كانت قبل غزو العرب لها فى القرن السابع.

أما فيما يختص بعلاقة الإخشيديين بمملكة النوبة المسيحية. فالمعروف أن مملكة النوبة المسيحية احتفظت بوضعها على حدود مصر الجنوبية طوال الفترة السابقة منذ الفتح العربى، إذ لم ينجح العرب فى فتحها أو هدم استقلالها ولكنهم اكتفوا بعقد الاتفاقية المعروفة باتفاقية البقط مع هذه المملكة. غير أن النوبيين لم يحترموا هذه الاتفاقية بصفة دائمة، وانما استغلوا فترات الاضطراب والضعف فى مصر وقاموا بالإغارة على الحدود الجنوبية وأوغلوا أحيانا إلى إخميم. وتشير المراجع إلى محاولات للنوبيين من هذا القبيل على عهد كل من أنوجور بن الإخشيد وأخيه على. فقد أغاروا على الواحة الخارجة سنة ٣٣٩هـ (٩٥١م) وأحدثوا كثيرا من الخراب والدمار والقتل بهذه الواحة ثم كرروا

هذه الإغارة فى عهد أنوجور ايضا فى سن ٣٤٤هـ (٩٥٦م) وفى هذه المرة كانت أغارتهم على أسوان حيث نهبوا القرى وقتلوا الامنين وعادوا أدراجهم ولم يكن بوسع كافور ان يغض الطرف عن هذه الأعمال فبادر بإرسال حملة يقودها محمد بن عبد الله الخازن وحملة بحرية جزء منها أبحر فى البحر الأحمر جنوبى حدود مصر ليتم حصر النوبيين وقطع خط الرجعة عليهم فى حين تقدمت القوات البرية والعمارة فى النيل صوب الجنوب، ونجح ابن الخازن فعلا فى إلحاق الهزيمة بهم سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٧م) حيث سبى كثيرا منهم وظل يتتبع فلولهم حتى قلعة إبريم، ثم عاد وهو يحمل كثيراً من الأسرى والسبى، لكن هذه الهزيمة لم تنه متاعب الإخشيديين من هذه الجهة إذ استمر النوبيون يغيرون على الحدود الجنوبية ويقتلون وينهبون ويأسرون، فلم تكد تمضى سنوات قليلة على هزيمتهم حتى قاموا بغارة كبيرة على أسوان وأوغلوا حتى إخميم، وذلك على عهد على بن الإخشيد وفى هذه الإغارة أحدثوا كثيرا من القتل والسبى والحرق والنهب فيما صادفوه من القرى والضياع منتهزين فرصة اضطراب أحوال مصر وضعف واليها واشتداد طمع الفاطميين فيها.

أما فيما يتعلق بعلاقة الإخشيديين بالقوى الإسلامية، فقد

وضح من العرض السابق أن ثمة علاقة طيبة ربطت بينهم وبين الخلافة العباسية، حيث قنع الخلفاء العباسيون بإقامة الخطبة لهم فى مصر ووصول مبلغ من المال ورسوم سلطة شكلية، ومضوا لا يعيرون اهتماماً كبيرا بالأوضاع بمصر طالما شغلتهم مشاكلهم فى العراق وانصرفوا إلى محاولة توطيد نفوذهم الضائع بعد أن ضعفت همتهم وتسلط عليهم رجال الدولة والقادة والوزراء والأمراء. وهكذا بادر الخليفة العباسى بإقرار الأمور فى مصر كلما توفى أمير إخشيدى وولى مكانه دون إثارة متاعب أو محاولة استعادة الإمارة إلى قبضة الخلافة كما كانت من قبل.

على أن علاقة الإخشيديين بالدولة الحمدانية تراوحت بين العداء والمسالمة فترات مختلفة منذ عهد الإخشيد. ومهما يكن من أمر فقد أفلح الحمدانيون فعلا فى تأكيد وجودهم فى شمال الشام واقتطعوا حلب نهائياً لأنفسهم بعد أن فشلوا أكثر من مرة فى ضم دمشق وجنوب الشام على الرغم من وصولهم إلى الرملة، ولهذا فقد تأكدوا أنه ليس بوسعهم ابتلاع بلاد الشام كلها مع وجود الإخشيديين، فقنعوا بما حققوه لأنفسهم من رقعة امتدت فى شمال الشام وأعالى الرافدين وتركوا بقية الشام للإخشيديين.

غير أن الخطر الأكبر الذى تعرضت له دولة الإخشيديين والذى هددها فعلاً جاء من ناحية الغرب من قبل الخلافة الفاطمية المتحفزة للاستيلاء على مصر لمحاول اقتطاعها ونقل دولتهم إليها لتنافس الخلافة العباسية فى الشرق وتحاول انتزاع زعامة العالم الاسلامى منها. والواقع أن الفاطميين لم يقنطوا من أمر فتح مصر منذ أول محاولة لهم فى مطلع القرن الرابع، وأن كانوا قد ردوا على أعقابهم أكثر من مرة فإنه كان ارتداداً مؤقتا ريثما تسنح الظروف لمعاودة الكرة وربما استطعنا القول أنه لولا الإخشيد وكافور لتقدم استيلاء الفاطميين على مصر سنوات. فقد اهتم الإخشيد بأمر الدفاع عن مصر ضد الفاطميين وأعد له عدته وتمكن من رد كل المحاولات الفاطمية وأضاف إلى ذلك سياسة مرنة جعلته يصانع الفاطميين حينا ويتصدى لهم حينا آخر حتى ليبدو فى بعض سنواته أقرب إلى الدخول فى طاعة الفاطميين والخروج من دولة بنى العباس ثم جاء كافور فسار على سياسة مولاه واخذ يراوغ الفاطميين ويدافعهم، حتى إذا انتهى عهده، تبدلت الأحوال واعتلى كرسى الخلافة الفاطمية أعظم رجال دولتهم الذى كان فى خدمته قائد مظفر هو جوهر الصقلى وقد يئس المعز وقائده من مصير دولتهم فى المغرب وتعلقت آمالهما بدخول مصر، فكان لهما ما أرادا فدخلاها

وانتهت بذلك صفحة هامة فى تاريخ مصر الإسلامية بنهاية الدولة الإخشيدية.

الجوانب الحضارية لعصر الدولة الإخشيدية

المعروف أن الإخشيد كان شديد الإعجاب بأحمد بن طولون معنيا بتقليده فى كل شئ واظهار دولته بالمظهر الذى اتخذته دولة أحمد بن طولون، وعلى الرغم مما بين الرجلين من فروق اتخذت الإمارة على عهد الإخشيد بعض المظاهر التى كان يهدف إليها الإخشيد لاسيما الظهور بمظهر الاستقلال، وأضفاء العظمة على البلاد والمواكب والحياة الخاصة فقد أمر الإخشيد بإقامة حلبة لسباق الخيل منذ سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٦م) وحشد أعدادا كبيرة من الخيول المطهمة وجوارح الطير.واستكثر من الغلمان والأتباع وأحاط نفسه بعدد كبير من المماليك فضلا عن الجوارى الحسان وحاول رعاية الآداب وقرب الشعراء وأجزل لهم العطاء واكرم وفادة العلماء ونحا هذا النحو خلفاؤه برغم صغرهم واختفاؤهم خلف واجهة ممثلة فى كافور الذى لم يختلف كثيراً عن سيده الإخشيد فى هذه النواحى بل حاول أن يبز سيده فيها وبالغ فى ذلك أكثر مما يجب حتى ليقال أن بلاطه حوى ألفا وسبعين من الغلمان الترك والفين من الروم بالاضافة إلى أعداد كبيرة من

السـودانيين والمـولدين حـتى نافت غلمـانـه على أربعـة آلاف غـلام وأنه خلف خزائن عامرة بالأموال الطائلة.

وفـيـمـا يخـتص بنظم الحكم والإدارة فليس من شك فى أن الرابطة بـين الإخـشـيـدين والخـلافـة لم تكن رابطة بين حكـومـة مركزية وولاية تابعـة، وإنما تعدت هذا المفهوم بكثيـر لتصبح بين خلافـة ضـعيفـة وإمارة مسـتقلة فتيـة قنعت الخلافة منهـا برسـوم سـلطة شكليـة ومبلغ من المال لم يكن إرسالة إليـهـا منتظمـاً بحال من الأحوال، وفـيمـا عدا ذلك اسـتقلت الإمارة فى كـل شئ واتخذ أمراؤها من الأحكام ونظم الإدارة ما يدعم هذا النزعة الاستقلالية بل أن مـحـمـد بن طغج الإخـشـيـد تجـرأ فـأمـر بنقش اسـمـه على العملـة دون اسم الخليفـة العبـاسى وذلك سنة ٣٢٩هـ (٩٤٠م) ولم نعثر على ما يشيـر إلى رد فعل من الخلافة تجاه هذا الخطوة الاستقلالية.

وسارت الأمور فى هذا الاتجاه على عهد خلفاء الإخشيد برغم وقـوعـهم تحت وصـاية كـافور ممـا يؤكد أن الجـانب الاسـتـقـلالى ارتبط بالإمـارة ولم يكن ثمـة مـا يمنع اسـتـمـراره حتى بعد وفـاة الإخـشـيـد نظراً لما كـانت تمر به الخـلافـة من ظروف حـرجـة لا تمكنهـا من تغيير الأوضـاع السـائدة فى مـصـر، وعلى رأس كـبار

موظفى البلاط الإخشيدى كان يوجد الحاجب المسئول عن إدخال الناس على الأمير وفق قواعد خاصة وكذلك الخازن المشرف على الأموال الخاصة بالأمير، والطبيب الخاص الذى يرافق الأمير فى مقامه وترحاله ويعنى بصحته وكذلك الحرس الخاص بالأمير، وعدد آخر من الموظفين الذين يحتاج إليهم الأمير فى الإشراف على قصوره واصطبلاته ومتعلقاته الأخرى، أما موظفوا الدولة الإخشيدية فيأتى على رأسهم الوزير الذى يعاون الامير فى شئون الحكم والإدارة وما يوكل إليه من مهام ويساعد الوزير موظف هام هو الكاتب المشرف على ديوان الانشاء وكان يتحتم أن يتصف هذا الموظف بالأمانة والاخلاص باعتباره أمينا على اسرار البلاد لأنه هو الذى يحرر الرسائل الصادرة منها ويتلقى الواردة إليها.

وبالنسبة للادارة المالية فكان يشرف عليها عامل الخراج المكلف بجمع الأموال من الضرائب المختلفة والمكوس، ويبدو أن اهل الذمة من الأقباط واليهود كانوا لايزالون يهيمنون على هذه الإدارة بحكم خبرتهم الطويلة فى هذا الميدان فقد حفظت لنا النصوص أسماء بعضهم منهم أبو إليمن قرمان بن مينا القبطى؛ ويعقوب بن كلس إليهودى الذى اعتنق الاسلام ليحقق أهدافه ويصل إلى كرسى الوزارة كما أسندت مهمة الإشراف على ضرب

النقود لمتولى دار الضرب او القاضى نفسه، وهى مهمة ليست سهلة بسبب العناية بضبط عيار العملة وعدم السماح بتزييفها.

والواقع انه لم تكن للإخشيديين أثناء حكمهم فى مصر عناية حقيقية إلا بشئون المال، وقد وفقوا فى ذلك بفضل استعانتهم بالماذرائيين وظلوا يجبون أموال مصر كل سنة مابين مليونين وثلاثة ملايين ومائتين وسبعين ألف دنيار. فقد تشدد الإخشيديون فى ذلك حتى ارهقوا الناس بالمغارم والجبايات حتى كان الجباة يجبون من الناس الضرائب على الأراضى البور. واشتدت وطأة الضرائب فى تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ولم يكن الإخشيد يتورع عن مصادرة الأموال. أما كافور فقد كف يده عن ذلك، ثم عادت المصادرات بعد وفاته حيث أسرف جعفر بن الفرات فى ذلك فتسبب فى اضطراب الأحوال وتسهيل دحول الفاطميين مصر.

وإلى جانب كبار الموظفين كان هناك موظف مسئول عن شئون الأمن او من عرف بصاحب الشرطة، وهو المكلف بإقرار النظام واستتباب الأمن فى ربوع البلاد والضرب على أيدى الخارجين على القانون والعابثين وتفرع من هذا النظام وجود أصحاب شرطة فى المدن الكبرى والأقاليم يسهرون على حفظ

الأمن وتوفير الطمأنينية للناس، واهتم الأمراء بالإشراف الدقيق على نواحى مصر وأقاليمها وذلك عن طريق الأقسام الإدراية والكور التى يختار لها حكام من رجال الأمير يسألون أمامه عن كافة النواحى الإدارية يساعدهم مجموعة من الموظفين المتخصصين فى الشئون المالية والخراج والشرطة والموافق وغيرها.

أما وظائف القضاء والمظالم والحسبة وهى الوظائف ذات الطابع الدينى لارتباطها بالدين وتطبيق أحكامه وتحقيق العدالة الاجتماعية فقد أدى ضعف الروابط بين الخلافة العباسية ومصر على عهد الإخشيديين إلى جعل تعيين قاضى مصر رهنا بمشيئة الأمير الإخشيدى بصرف النظر عن الالتزام برأى الخليفة العباسى أو قاضى قضاة بغداد كما كان متبعا من قبل. وكان تعيين القضاة يتم فى احتفال مهيب فى جامع عمرو حيث يجرى قراءة عهد القضاء له، ثم يقوم القاضى الجديد بعد ذلك بتعيين نواب له فى أنحاء البلاد، وكان يعاون كل قاضى طائفة من الشهود ممن يعتد بشهادتهم ويثق فى خلقهم. وكان هناك قاضى أعلى درجة هو صاحب النظر فى المظالم تستأنف أمامه القضايا التى لايرضى المتقاضون عنها بحكم المقاضى وربما جلس الأمير نفسه للنظر فى المظالم، ويقال أن كافوراً كان

يجلس بعض الأيام للنظر فى المظالم ويحضر معه القضاء والفقهاء والشهود وعدد من كبار الموظفين والاعيان. أما وظيفة المحتسب فهى كما كانت دائما مخصصة لمراقبة الأسواق والطرقات لمنع الغش والاتجار بأقوات الشعب والتلاعب فى الأسعار والتأكد من تطبيق أحكام الشريعة وتأديب المخالفين والجشعين.

اما فيما يختص بالأحوال الاقتصادية فيجب أن نسرع إلى القول بأن حياة مصر الاقتصادية فى ذلك العصر كانت مضطربة بوجه عام، ويرجع ذلك إلى تكرار انخفاض النيل خلال ذلك العصر سنوات كثيرة وماترتب عليه من اشتداد الغلاء وانتشار الأوبئة وسوء الأحوال المالية والاقتصادية، إذ المعروف أن مصر ظلت تعتمد بصفة أساسية على فيضان النيل فاذا جاء الفيضان كافيا رويت الأرض وزرعت المحاصيل وتم الرخاء وخاصة وقد كانت أراضى مصر كلها تروى بطريقة رى الحياض مرة واحدة فى السنة، وإذا انخفض الفيضان عم القحط وقل المحصول واشتد الغلاء واضطربت أحوال البلاد والعباد، كما يرجع سوء الأحوال الاقتصادية أيضا إلى عسف الإخشيد وجشعه وحبه للمال وماترتب على ذلك من فرض ضرائب باهظه وملاحقة الناس بالمكوس المختلفة والتضييق على الشعب والقيام

بالمصادرات الكثيرة، وإرهاق الخاصة والعامة بمطالب الدولة. هذا بالاضافة إلى اهمال إصلاح الجسور وحفر الترع والخلجان والاهتمام بمرافق البلاد ومايسبب رخاءها، خاصة وقد كانت الزراعة المحور الأساسى للحياة الاقتصادية فى مصر وضريبة الأرض «الخراج» تشكل المورد الأول للمالية العامة. حقيقة كان هناك نشاط صناعى وتجارى إلا أن الزراعة كانت هى الحرفة الرئيسية لغالبية السكان، فضلا عن أن الانتاج الصناعى كان قد تدهور فى هذا العصر فاقتصر على صناعة المنسوجات وصناعة الحصر وبعض الصناعات الخشبية والمعدنية، فى الوقت الذى نهضت فيه التجارة بجانب من النشاط الاقصادى فى البلاد نظراً للموقع الفريد الذى تتمتع به مصر ودورها فى نقل التجارة بين الشرق والغرب كما نهضت التجارة الداخلية معتمدة على النيل كشريان رئيسى يربط أجزاء البلاد الأمر الذى ساعد على رواج التجارة الداخلية وانتعاش الأسواق فى مختلف أنحاء مصر.

أما بالنسبة للجيش والأسطول، فلم يكن منطقيا أن تطمح الإمارة الإخشيدية إلى الاستقلال عن الخلافة دون أن تعنى

بجيشها الذى يستطيع أن يحفظ لها هذا الاستقلال وكما فعل أحمد بن طولون، قام محمد بن طغج الإخشيد بتكوين جيش كبير فاق كثيراً جيش ابن طولون حتى ليقال إنه بلغ نحو أربعمائة ألف جندى، مقابل مائة ألف لجيش ابن طولون، وشغل الجند الترك والسودان معظم عناصر جيش ابن طغج، وقد حرص هذا الأمير على استعراضه فى أيام الأعياد والمناسبات المختلفة، كما كان يفعل ابن طولون، وكان ابن طغج نفسه يتولى قيادة الجيش فى بعض المعارك ومن بعده قام كافور بذلك فى حين بدأ بعض قادة هذا الجيش يحتلون مكانة هامة لاسيما بعد وفاه الإخشيد، والواقع أن حزم الإخشيد وجديته قد كفلت الحفاظ على وحدة هذا الجيش ولم تترك فرصة للعناصر المختلفة والأهواء المتباينة للظهور، فى حين انقسم هذا الجيش بعد وفاته إلى طائفتين : الإخشيدية والكافورية ولما لم يستطع كافور السيطرة على الجيش أغدق على رجاله الأموال والعطايا فقوى نفوذهم فى الدولة فتدخلوا فى شئونها ثم تعددت ثورات الجند وعبثهم فى البلاد، الأمر الذى بالغ فى اضطراب الامارة الإخشيدية وأنذر بزوالها لكن يبدو أن اهتمام الإخشيديين بالبحرية فاق اهتمامهم بالجيش ربما لإحساسهم بخطر البحرية البيزنطية من جهة وخطر الخلافة الفاطمية فى الغرب من جهة

أخرى، ولهذا أولى ابن طغج الأسطول عناية خاصة، فيقال إنه نقل جزءاً من دار الصناعة من جزيرة الروضة إلى الفسطاط فصار جزء من السفن يصنع فى الفسطاط والآخر يصنع فى الروضة، ولكن مما لا شك فيه أن الأسطول المصرى فى ذلك العصر كان له شأن فى حماية سواحل مصر الممتدة على بحرين عظيمين كما كان يسهر على حراسة سواحل بلاد الشام من خطر الروم ويؤمن سلامتها ضد الأخطار الخارجية.

أما عن المجتمع المصرى فى العصر الإخشيدى فبالاضافة إلى الحكام من البيت الإخشيدى والمنتمين إليه كانت هناك عدة فئات مميزة فى المجتمع منهم الأشراف الذين ينتمون إلى بيت النبى عليه الصلاة والسلام، وكانت لهم رواتب خاصة ونقيب يشرف على شئونهم وتمتع الأشراف بمكانة سامية فى نفوس الناس جميعاً الخاص منهم والعام، ويلى الأشراف فى المكانة الاجتماعية والتميز الأغنياء وأصحاب اليسار من المشتغلين بالتجارة وأصحاب النفوذ الذين جمعوا ثروات طائلة مثل الماذرائيين واحتلوا مكانة بارزة فى المجتمع المصرى. وعلى الرغم من أن الكتب التاريخية التى تنتمى لهذا العصر لا تتناول الشعب المصرى نفسه وإنما تركز على الحكام والأمراء والعظماء بحكم أن التاريخ حينئذ كان تاريخاً للحكام والقصور، إلا أنه من الثابت

أن الشعب المصرى حينئذ ظل يحيا حياته العادية فى الحقول والقرى والريف وهى الحياة التى اعتادها على مر العصور لا يكاد يحفل بما حوله من الحياة العامة أو يشارك فيها مشاركة فعالة. أما المناسبات الاجتماعية التى شارك الحكام والمحكومون فى إحيائها فأهمها : الأعياد حيث تخرج المواكب وتمد الأسمطة ويرتدى الناس الجديد من الثياب ويهرعون إلى المتنزهات، وهناك من الأعياد القومية ما اشترك المسلمون والمسيحيون فى احيائه مثل عيد وفاء النيل وفتح الخليج وعيد النيروز وهو أشبه بعيد الربيع أو شم النسيم، وكثر الحديث عن أهمية عيد الغطاس الذى كان يشهد خروج آلاف الناس إلى النيل بمأكلهم ومشربهم وآلات طربهم وموسيقاهم حيث يجعلون منه عيداً صاخباً وغدت ليلة الغطاس على حد قول المسعودى «هى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً».

أما بالنسبة للحياة الثقافية والفكرية والفنية، فعلى الرغم من أنه لم تكن هناك مدارس فى هذا العصر كما كان الحال فى العصر الطولونى، بل كانت الدروس تلقى فى الجوامع كجامع عمرو وجامع ابن طولون فضلا عن المناظرات التى كانت تعقد فى سوق الوراقين ودكاكين الكتب بها، ومجالس العلم فى بيوت الأمراء والوزراء وعلية القوم، على الرغم من ذلك فقد استمر

نهوض الحركة العلمية والفكرية فى عصر الإخشيدين، ولعل هذا الجانب الحضارى كان ابرز الجوانب فى حياة الدولة الإخشيدية، فقد لقى العلماء والأدباء والفقهاء تشجيعاً من الامراء وكبار رجال الدولة وعلية القوم، وعلى رأسهم الإخشيد نفسه وابنه أنوجور من بعده فقد حاول الإخشيد التشبه بابن طولون فى رعاية العلماء والشعراء والأدباء كما كان ابنه أنوجور يجالس سيبويه المصرى وينادمه.

وليس من شك أن العلوم الدينية المرتبطة بالقرآن والحديث تأتى على رأس العلوم التى حظيت باهتمام بالغ لاسيما الفقه والحديث، ولعل ذلك كان سببا فى قيام تنافس شديد بين انصار المذهبين الشافعى والمالكى، ويذكر أن الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر أرسل من الأندلس عشرة آلاف دينار لتفرق على فقهاء المالكية فأمر كافور بتفريق عشرين ألف على فقهاء الشافعية مما يوحى بأن الفئتين كانتا متنافستين فى كل شئ وأن ذلك التنافس جذب اهتمام الأوساط الرسمية فى مصر وخارج مصر، ومن ابرز فقهاء الشافعية فى ذلك العصر أبو بكر بن الحداد (ت ٣٤٤ / ٩٥٥م) وأبو رجاء محمد بن أحمد بن الربيع الأسوانى (ت ٣٣٥هـ / ٩٤٦م) وأبو بكر محمد بن بشر (ت ٣٣٢ هـ / ٩٤٣م) وبعض هؤلاء الفقهاء لم يكن من أبناء

مصر وإنما وفد من بغداد ودمشق وأقبل على مصر لينعم برعاية الإخشيديين وتشجيعهم، ومن فقهاء المالكية هارون بن محمد الأسواني (ت ٣٢٧هـ - ٩٣٨م) وعلى بن عبد الله بن أبى مطر الاسكندراني (ت ٣٣٠هـ - ٩٤١م) ومحمد بن يحيى بن مهدى الأسواني (ت ٣٤٠هـ - ٩٥١م) وغيرهم. وهكذا لقى فقهاء العصر الإخشيدى رعاية خاصة وشهدت المجالس مناقشاتهم الحادة ومناظراتهم الطريفة وانتعشت الحياة الفكرية والثقافية فى ظل هذا التنافس العلمى. وكانت حركة التصوف داخلة فى نطاق النشاط الدينى أيضا فى هذا العصر وهى حركة أخذت تتطور تدريجيا منذ أيام ذى النون المصرى الإخميمى (ت ٢٤٥ / ٨٥٩م) حيث تطورت إبان العصرين الطولونى والإخشيدى وقام بعض زعماء الصوفية بنشر لون جديد من هذا السلوك الدينى القائم على أساس الزهد فى الدنيا، والعيش فى تقشف وانقطاع لعبادة الله ومن أبرز متصوفى هذا العصر أبو الحسن على الدينورى (ت ٣٣١ / ٩٤٢م) وأبو الخير الأقطع (ت ٣٤٣هـ / ٩٥٤م) وأبو بكر محمد النابلسى (ت ٣٦٣هـ - ٩٧٣م) والأخير كان معاصراً لأبى المسك كافور.

وبالاضافة إلى العلوم الدينية التى حظيت برعاية كبيرة من الإخشيدين نهضت الحركة العلمية فى مجالات أخرى من بينها

الفلسفة والطب. فأما الفلسفة فيبدو أن تيار مدرسة الاسكندرية كان لا يزال باقيا بصورة خاصة فضلا عن الآثار الفلسفية الوافدة من الخارج وترجمات الكتب اليونانية التى نهض بها بعض العلماء العرب، وأما الطب فتشير الروايات إلى قيام بعض العلماء بالتأليف فيه وترجمة الكتب الأخرى فيروى أن أبا الرجاء محمد الأسوانى وسعيد بن البطريق كانت لهما كتب فى الطب فضلا عن أن الأول له كتب فى الفلسفة - والثانى فى الجدل وترجم ابن البطريق ايضا كتاب الحيوان لأرسطو وبجانب كل ذلك انتشرت بعض آراء المعتزله فى مصر برغم ما حدث من قبل من تحريم النقاش حول الموضوعات التى آثارها المعتزلة، فكان فى مصر فى ذلك العصر فريق ممن اعتنقوا آراء المعتزلة منهم أبو على محمد الواسطى بل إن سيبويه المصرى أخذ الاعتزال عن الواسطى هذا وتلقى عليه آراء المعتزلة.

ولعل ميدان النحو والتاريخ كان ابرز ميادين الحركة العلمية فى مصر فى العصر الإخشيدى، ذلك لأن الاهتمام بالنحو واللغة يتمشى مع النهضة العلمية الدينية فاللغة كانت مفتاحا لفهم وتفسير القرآن والسنة واداة لفهم الأحكام وممن نبغ فى هذا الميدان بصفة خاصة ابن ولاد أحمد (ت ٣٣٢هـ / ٩٤٣م) وأبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ / ٩٤٩م) أما التاريخ فقد اشتهر فيه

نخبة من المؤرخين النابهين منهم ابن يونس المتوفى سنة ٣٤٧هـ (٩٥٨م) الذى قرأ كتابات من سبقوه من المؤرخين كابن عبد الحكم وصنف تاريخين أحدهما يختص بالمصريين من ناحية النشأة والآخر يختص بمن وفد على مصر من الغرباء. ومن المؤرخين أيضا الكندى المتوفى سنة ٣٥٠هـ - ٩٦١م الذى اشتغل بالتاريخ وألف كتباً كثيرة أهمها كتاب ولاة مصر وقضاتها وكتّاب فى خطط مصر، كان مرجعا لكتاب الخطط فى العصور اللاحقة وللاسف لم تصلنا معظم كتب الكندى على الرغم من ضخامة إنتاجة فى ميدان التاريخ، ولكن يكفى كتابه الولاة والقضاء لإعطائنا فكرة عن مبلغ علم هذا الرجل وثقافته وحسن انتاجه، وهذا الكتاب يدرس الحياة العربية فى مصر منذ الفتح العربى حتى منتصف القرن الرابع الهجرى. أما ابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧هـ (٩٩٧م) فقد أكمل أخبار قضاه مصر للكندى كما الف فى خطط مصر كما ألف سيرة الإخشيد وأخبار سيبويه المصرى، وفضلاً عن هؤلاء المؤرخين النابهين الثلاثة كان هناك علم آخر من أعلام التاريخ هو سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨هـ (٩٣٩م) وكان بطريرقاً على الاسكندرية وبرع فى الطب أيضا وألف كتابه المشهور فى التاريخ المعروف «بالتاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» يشهد له بطول الباع فى هذا الميدان هذا

فضلا عن وفود المسعودى على مصر حيث أقام بها نحو سنتين نشر فيها كتبه وتوفى سنة ٣٤٦هـ (٩٥٧م) والمسعودى من أعلام المؤرخين ومن أعظم كتاب التاريخ العام وأول من سن سنة جديدة فى كتابه التاريخ بجعله تحت رؤوس موضوعات وليس على نظام المحدثين أو على النظام القديم.

أما بالنسبة للحياة الأدبية فى العصر الإخشيدى، فليس من شك فى أن مصر لم تخرج فى ذلك العصر شاعراً فحلا من الشعراء يمكن أن يقارن بشعراء العراق، وإنما حاز النثر اهتماما أكثر وجاء الكاتب إبراهيم ابن عبد الله بن محمد النجيرمى على رأس أدباء ذلك العصر وله رسائل طويلة مشهورة لاسيما تلك التى أرسلها الإخشيد إلى رومانوس البيزنطى، وكذلك نبغ فى هذا الميدان ابو بكر محمد المعروف بابن سيبويه المصرى والمتوفى سنة ٣٥٨هـ (٩٦٨م). أما الشعراء فلم يبرع منهم شاعر أو ينبغ منهم فحل من الشعراء، وظلوا يمثلون المستوى المحلى فى مصر، ومنهم أحمد بن محمد والقاسم ابن أحمد المرسى ومحمد بن الحسن بن زكريا لكن مجئ المتبنى إلى مصر واتصاله بكافور ومدحه أياه ثم هجائه له قد أعطى فكرة عن تواضع مستوى شعراء العصر الإخشيدى.

أما فيما يختص بالنواحى المعمارية والفنية، فللأسف اندثر أغلب ما شيده الإخشيديون من عمائر ولم يبق منها إلا النذر اليسير منها محراب قديم قرب ضريح الإمام الشافعى ومشهد آل طباطبا ومجموعة شواهد قبور، وإذا كانت العمائر الإخشيدية قد اندثرت فإن أوصافها لا تزال باقية فى بطون الكتب فهناك وصف لقصر المختار والبستان الذى شيده الإخشيد فى جزيرة الروضة وهناك أوصاف أخرى لبعض المساجد التى أقامها الإخشيديون فضلا عن البيمارستان، الذى شيده كافور والقيساريات والأسواق التى أنشأها الإخشيد، وتتضح الدقة والمهارة الفنية لذلك العصر فى زخارف النسيج التى اتخذت اشكالاً مختلفة بعضها هندسى والآخر يمثل رموزاً لبعض الحيوانات والطيور الملونة ولا زالت نماذج من النسيج تشهد بعظمة الفنان المصرى فى العصر الإخشيدى.

ونأتى فى ختام هذه الدراسة لعصر الدولة الإخشيدية إلى تقييم هذه التجربة الاستقلالية الثانية فى تاريخ مصر الإسلامية منذ الفتح العربى، فالواقع إنه كان للاخشيديين دور بارز فى تاريخ مصر الاسلامية اذ أتاحوا للشعب المصرى عددا من السنين عاشها بعيداً عن العواصف التى هزت بقية أجزاء الدولة العباسية فى ذلك الحين وبقيت مصر هادئة تجرى فيها الحياة

على مالوف عهدها فى الوقت الذى شقيت فيه الجزيرة العربية، والشام والعراق بغارات القرامطة وتهديد الدولة البيزنطية وغزوها لجهات عديدة من بلاد الشام، كما أنهم ضمنوا حدا معقولاً لهذا القطر فى الجوانب الحضارية لم يكن ليبلغه فى ظل التبعية المطلقة للخلافة العباسية وفى ظل الولاة المتعسفين وجباة الخراج وجامعى المكوس المحترفين كما أنهم مثل آل طولون كفوا يد العباسيين عن نهب ثروات البلاد واحتفظوا لمصر خلال عهدهم بأموالها دون تسرب إلى خزائن كبار رجال الدولة وجيوب علية القوم فى بغداد، وعلى العموم كان للدولة الإخشيدية دور إيجابى فى جانبه السياسى والحضارى بالنسبة لتاريخ مصر الاسلامية.

الفصل الرابع

مصر في عصر الدولة الفاطمية

٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م

الفصل الرابع

مصر في عصر الدولة الفاطمية

٣٥٨ – ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ – ١١٧١ م

الدولــة الفاطميــة

قيــام الدولــة الفاطميــة

الدعوة الشيعية

أدرك العلويون أنهم خدعوا على يد العباسيين حين جعل هؤلاء الدعوة «للرضا من آل محمد» بصفة عامة دون تحديد، الأمر الذى ترتب عليه ضياع جهود العلويين فى هذه المرحلة وفوز العباسيين بالخلافة دونهم فكان على العلويين أن يبدأوا مرحلة جديدة من الصراع مع العباسيين لانتزاع الخلافة منهم، واختاروا لذلك طريق الدعوة السرية معتمدين على رصيد كبير من عطف الناس على أهل البيت منذ مقتل علىّ بن أبى طالب سنة ٤٠هـ وابنه الحسين بكربلاء سنة ٦١هـ وأن لجأوا أحياناً إلى طريق الثورة المسلحة فى الحجاز وجنوب العراق، ودفعوا ثمن ذلك كثيراً من الشهداء وعدداً من الزعماء لا سيما فى موقعة فخ قرب مكة سنة ١٦٩هـ (٧٨٥م) حيث قتل فيها أحد أحفاد على ابن أبى طالب ويدعى الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على وبعض أهل بيته، الأمر الذى أهاج الأحزان فى قلوب الشيعة من جديد وحرك كوامن الأسى فى نفوسهم حتى قيل «لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من

فخ» على الرغم من أن هذه الكارثة لم يكن لها أثر فى إنهاء جهود العلويين لانتزاع الخلافة وتحقيق الحلم القديم. والدليل على ذلك أن اثنين من زعماء العلويين هما يحى بن عبد الله وأخوه إدريس بن عبد الله وهما من الذين نجوا من موقعة فخ سببا إزعاجا شديداً للخلافة العباسية، حين ثار أولهما ببلاد الديلم على عهد هارون الرشيد، وفر الثانى إلى بلاد المغرب حيث أخذ يؤلب الناس ضد العباسيين ويستثير حماسهم لنصرته، وبعد وفاته مسموماً سنة ١٧٧هـ (٧٩٣م) خلفه ابنه إدريس الثانى فأسس دولة الأدراسة بالمغرب لتصبح أول دولة علوية يقيمها العلويون فى ذلك الوقت.

وكان الشيعة قد انقسموا بعد رفاة الأمام جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ (٧٦٥م) إلى فرق كثيرة كان أهمها فرقتين كبيرتين: فرقة الإمامية الإثنا عشرية وهم الذين جعلوا الإمامة فى موسى الكاظم بن جعفر الصادق، ثم فى الأئمة من بنية إلى الإمام الثانى عشر الحسن العسكرى، وفرقة الإسماعيلية الذين جعلوا الإمامة فى إسماعيل بن جعفر الصادق ثم فى ابنه محمد بن اسماعيل، ثم فى الأئمة من بنيه، ومن هؤلاء الإسماعيلية الخلفاء الفاطميون، وعرف الإسماعيلية أحياناً بالباطنية لقولهم بأن للعقيدة باطناً وظاهراً، وكانت فرقة الإسماعيلية هذه أنشط فرق

الشيعة فى ذلك الوقت حيث أخذت تبث الدعوة سراً فى إنحاء العالم الإسلامى لا سيما أطرافه البعيدة والمناطق النائية كاليمن وبلاد المغرب، واتخذت لها مركزاً متوسطاً يسهل منه توجيه الدعاه إلى تلك الأطراف إلى المشرق وإلى المغرب ونحو الجنوب، وكان ذلك المركز هو مدينة سلمية بالقرب من حماة ببلاد الشام، وفى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى، كان ببلاد المغرب داعيان هما: الحلوانى، وأبو سفيان، وباليمن داعيان آخران هما: ابن حوشب وأبو عبد الله الشيعى.

ويعتبر أبو عبد الله الشيعى المؤسس الحقيقى للدولة الفاطمية بشمال إفريقية، وهو يمنى الأصل من مدينة صنعاء ولى الحسبة لفترة فى بغداد، ثم تركها وسار إلى اليمن حيث اتصل بابن حوشب الداعى الإسماعيلى باليمن وصار من كبار أبتاعه فسيره هذا داعياً إلى المغرب، بعد أن علم بوفاة الحلوانى وأبى سفيان فرحل أبو عبد الله الشيعى إلى مكة فى موسم الحج واتصل بحجاج كتامة، وتقرب إليهم وتظاهر بالزهد حتى حاز إعجابهم وثقتهم ورافقهم فى طريق عودتهم متظاهراً بأن وجهته مصر فى طلب العلم، فمازالوا به حتى وافق على مرافقتهم إلى بلادهم حيث نزل بينهم وما لبث أن ذاع صيت الشيعى وتوافد إليه

البربر من كل مكان، وعندئذ كشف عن شخصيته وأذاع أغراضه الحقيقية.

قيام الدولة الفاطمية فى المغرب:

بدأ الشيعى نشاطه العسكرى فى سنة ٢٩١هـ (٩٠٣م) فاستولى على بعض مدن المغرب الواقعة غربى القيروان مستفيداً من حالة الضعف والاضمحلال التى أصابت دولة الأغالبة فى تونس، وهى الدولة التى حظيت بعطف الخلافة العباسية وتأييدها، ثم أرسل يستدعى عبيد الله المهدى الإمام الإسماعيلى صاحب الدعوة والمقيم بمدينة سلمية بالشام فأسرع هذا فى طريقه إلى المغرب ومعه الأموال الوفيرة، ولما علم الخليفة العباسى المقتدر بخروجه بعث إلى ولاته وعماله بمصر وإفريقية يأمرهم بالقبض عليه، إلا أن المهدى دخل مصر متخفياً فى زى التجار حيث استقبله بعض أشياعه فيها ويسروا له سبل الاستتار عن أعين السلطات فضلاً عما بذله المهدى من أموال للعمال والولاة فى طريقه، وفى نهاية الأمر وصل إلى سجلماسة، فقبض عليه أميرها المدرارى وأودعه بالسجن، وحين تم النصر النهائى للشيعى على دويلات المغرب: دولة بنى مدرار فى سجلماسة ودولة بنى رستم فى تاهرت ودولة الأغالبة فى إفريقية

«تونس» قاد جيشاً إلى سجلماسة حيث أطلق المهدى وعندئذ قاد المهدى بنفسه الجيش ودخل مدينة رقادة سنة ٢٩٧هـ (٩٠٩م) وقضى على حكم الأغالبة وأعلن الخلافة الفاطمية وخطب باسمه على منابر رقادة والقيروان ولقب بأمير المؤمنين عبيد الله المهدى، وهكذا قامت الخلافة الفاطمية والعبيدية، كما يطلق عليها أحياناً نسبة إلى عبيد الله المهدى.

وينبغى قبل أن نعرض لتاريخ هذه الدولة أن نشير إلى موضوع الطعن فى نسب الفاطميين والثغرة التى نفذ منها أعداؤهم للتشكيك فى ذلك النسب ومحاولة تقويض دعائم الدعوة الفاطمية. والواقع أن جهود العلويين للوصول إلى عرش الخلافة اتخذت فى طورها الأول، إلى عهد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. صفة العلن ثم اتخذت فى طورها الثانى الممتد من عهد محمد ابن إسماعيل إلى ظهور عبيد الله المهدى ونجاح الدعوة صفة الكتمان حتى عرف بعهد الكتمان حيث جرى التكتم على إسماء الأئمة خوفاً عليهم من بطش السلطة الحاكمة فى الوقت الذى كان يقوم بالدعوة العلنية ويشرف على توجيهها الأئمة المستودعون من نسل عبد الله بن ميمون القداح، الذى يقول عنه الإسماعيلية أنه من نسل سليمان الفارسى ويرجع السبب فى إختفاء الائمة الذين تولوا الإمامة بعد محمد بن

إسماعيل إلى ما ذهب إليه الإسماعيلية من أنه يجوز للإمام أن يستتر، إذا لم تكن له قوة يظهر بها على أعدائه ومن المرجح أنهم اتبعوا هذه الطريقة خوفاً من أن يلحق بهم ما لحق أتباع طائفة الإمامية الإثنى عشرية من القتل والاضطهاد والتنكيل. على كل حال نفذ أعداء الفاطميين من هذه الثغرة وشككوا فى نسب الفاطميين وادعوا نسبة الإمام الفاطمى إلى داعيه ميمون القداح، وربما يرجع سبب ما دب من خلاف بين عبيد الله المهدى وقائده وداعيه أبى عبد الله الشيعى إلى هذا الشك حيث انتهى الأمر بقتل ابى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس، ولما ينقضى عام واحد على قيام الدولة الفاطمية بالمغرب فجاءت خاتمة الشيعى كخاتمة أبى مسلم الخرسانى داعى العباسيين. ومهما يكن من أمر فقد أثبت بعض الباحثين المعتدلين صحة نسب الفاطميين إلى على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء، وذهبوا إلى أن هذا الشك لم يكن سوى أحد الأسلحة التى أشهرها أعداء الدولة الفاطمية، لاسيما خلفاء بنى العباس الذين أزعجهم قيام هذه الخلافة وانتقالها إلى مصر وسعيها للفوز بزعامة العالم الاسلامى وسلب العباسيين تلك الزعامة.

على أن الدولة الفاطمية مرت منذ قيامها بدورين هامين الدور المغربى ويمتد من سنة ٢٩٧هـ (٩٠٩م) إلى سنة ٣٦٢هـ

(٩٧٢م) والدور المصرى الممتد من هذه السنة الأخيرة حتى سقوط الدولة سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) وقد تعاقب على الحكم فى الدور الأول أربعة خلفاء هم عبيد الله المهدى ٢٩٧-٣٢٢م (٩٠٩-٩٣٤م) والقائم بأمر الله أبو القاسم نزار ٣٢٢-٣٣٤م (٩٣٤-٩٤٥م) والمنصور أبو الطاهر إسماعيل ٣٣٤-٣٤١م (٩٤٥-٩٥٢م) والمعز لدين الله أبو تميم معد من سنة ٣٤١هـ حتى انتقاله إلى مصر سنة ٣٦٢هـ (٩٧٢م) وفى هذا الدور نمت الدولة الفاطمية واتسع نفوذها فى المغرب فبنى المهدى عاصمته الجديدة «المهدية» سنة ٣٠٣هـ وصفى الفاطميون بقايا الأغالبة وقضوا على دولة الأدراسة واصطدموا بالخلافة الأموية بالأندلس وحدوا كثيراً من نفوذها فى شمال إفريقية ومدوا سيطرتهم إلى صقلية وارتاد اسطولهم سواحل البحر المتوسط، وغدت له الزعامة البحرية فيه، وتصدوا لثورات البربر واستمالوا قبائلهم بالحرب حينا والسلم والدهاء أحياناً أخرى وامتدت سيطرتهم غرباً إلى المحيط الاطلسى ورنت أبصارهم إلى مصر فى محاولة الفوز بها أى أنهم فى زحمة اهتمامهم بالمغرب لم ينسوا المشرق، بل كانت عيونهم ترقب مصر بالذات يتحفزون للانقضاض عليها عند أول فرصة سانحة وهذا ما حدث فعلاً بعد سلسلة متلاحقة من الحملات العسكرية ضد الإخشيديين فيها.

الفتح الفاطمى لمصر

إذا كان قيام الدولة الفاطمية قد حقق بعض أهداف العلويين فى الوصول إلى عرش الخلافة إلا أن هدفهم الأكبر وهو تقويض دعائم الخلافة العباسية السنية فى المشرق والفوز بإرثها وزعامتها للعالم الإسلامى، لم يكن قد تحقق بعد، ولهذا فكر عبيد الله المهدى فى غزو مصر بمجرد أن استقرت له الأمور فى المغرب، فأرسل فى سنة ٣٠١هـ جيشاً كبيراً ليستولى على مصر ويحقق الهدف الفاطمى الكبير، وكان هذا الجيش تحت قيادة حباسة بن يوسف فاستولى الفاطميون على برقة والاسكندرية واوغلوا فى الوجه البحرى وأظهر فريق من الشعب المصرى الفرح بهذا الغزو بتأثير الدعاية الفاطمية، وفشل والى مصر حينئذ وهو أبو منصور تكين فى وقف تقدم الفاطميين، فأرسل يطلب النجدة من الخليفة العباسى المقتدر الذى سارع بأرسال جيش كبير على قيادته مؤنس الخادم الذى نجح فى إلحاق الهزيمة بقائد الفاطميين حباسة بن يوسف وإجباره على الارتداد إلى بلاد المغرب حيث قتله الخليفة الفاطمى هناك.

لم ييأس الفاطميون بعد هذه الهزيمة فواصلوا بث دعوتهم فى مصر ووجدوا استجابة من المصريين نظراً لعسف العباسيين

فى جباية الضـرائب من ناحية وقسوة ولاتهـم فى معاملة الأهـالى وتنكيلهـم بـكل من يميل للدعـوة الشيـعـيـة من جهـة أخـرى، ولـم يكن لـكل هذه الإجـراءات من نتـيـجـة سـوى ازدياد الحنـق على السلطات العباسية والميل مع دعـاة الشيعة والتـجاوب مع أمـانى الفـاطمـيين. ويبـدو أن ذلك شـجع الفاطـميين علـى محـاولة إعـادة الكرة من جـديد، فأرسلوا جـيشـاً يقوده فى هـذه المرة أبو القـاسم ابن الخليـفـة المهـدى. وذلك فى سـنـة ٣٠٧هـ (٩١٩م)، فى الوقت الذى كـان قـد عـاد فـيـه تكين والـيـاً على مـصـر للمـرة الثـانيـة، فـاسـتـولى الجـيش الفاطمـى على الاسكندرية كما حـدث فى المرة الأولى وسـار إلى الجيـزة وفـشـل تكين فى وقف تقـدم الفاطمـيين الأمر الذى حدا بالخليفة العبـاسى إلى إرسـال جيش يقوده مؤنس الخـادم للمـرة الثـانيـة سنة ٣٠٨هـ. وعلى الرغم مـن أن مـؤنس الخـادم نجح فى انزال الهـزيمة بالجـيش الفاطـمى وتحطيم بعض سفنهم، إلا أن النفوذ الفاطمى كان قد انتشر فى البلاد وبلـغ حتى الاشمـونين والفـيوم ولـم يكن ثمـة ما يمنع الأهـالى مـن اسـتـمرار تجاوبهـم مع الفاطميين ودعاتهـم.

وعلى أثر اضـطراب الأحـوال فى جوف الخـلافة العـباسـية بعـد وفاة الخليفة المقتـدر سنة ٣٢١هـ (٩٣٣م) وانقسـام القادة الأتراك على أنفسـهـم انتهز الخليفة المهـدى الفرصـة وحاول مرة ثالثة غزو

مصر فأرسل حملة فى نفس العام تحت قيادة حبشى بن أحمد المغربى، وقد استمرت هذه الحملة نحو ثلاث سنوات، حدثت فى بدايتها مناوشات بين الطرفين ورابط الفاطميون عند الجيزة ثم عقدت هدنة فى صفر سنة ٣٢٢هـ بين المتحاربين، إلا أن أمد هذه الهدنة كان قصيراً حيث اندلع القتال مرة أخرى فى بعض المدن كالجيزة وبلبيس، وفى هذه الأثناء ولى محمد بن طغج الإخشيد أمر مصر فنجح فى إلحاق الهزيمة بالمغاربة فى جمادى الأولى من نفس العام، وكان الخليفة المهدى قد توفى فى هذه الأثناء وولى الخلافة الفاطمية أبنه أبو القاسم، فأرسل ابو القاسم جيشاً مغربياً آخر لمساعدة الجيش الفاطمى فى مصر، فنجح هذا الجيش الجديد فى الاستيلاء على الاسكندرية سنة ٣٢٤هـ (٩٣٦م)، إلا أن الإخشيد عاد فألحق بالمغاربة الهزيمة الأخيرة فى البحيرة ولوا على أثرها الأدبار صوب برقة فى حالة سيئة وباءت المحاولة الفاطمية الثالثة بالفشل.

لم تجر محاولات أخرى ضد مصر بقية عهد الخليفة القائم وطوال عهد المنصور الفاطمى (٣٣٤-٣٤١هـ) ويبدو أن الفاطميين شغلوا بمشاكلهم الداخلية وتثبيت أقدامهم فى أنحاء المغرب من ناحية ولإحساسهم بقوة الإخشيديين وحسن استعدادهم للدفاع عن البلاد، من ناحية أخرى. فى الوقت الذى حاول فيه

الخليفة القائم استمالة الإخشيد بالأساليب السياسية واللين فأرسل إليه يقول: «أرجو أن تردك صحة عزيمتك وحسن رأيك إلى ما ادعوك اليه فقد شهد الله على ميلى إليك وإثارى لك ورغبتى فى مشاطرتك ما حوته يمينى واحتوى عليه ملكى، فإن لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق فإننى أرضى منك بالمودة والأمر والطاعة حتى تقيمنى مقام رئيس من أهلك». على أن الإخشيد راعى ألا يتعجل بالرد على هذه الرسالة، لا سيما وأنه لم يخف عليه مطامع الخليفة الفاطمى ورغبته فى احتوائه واحتواء مصر وإدخال الدولة الإخشيدية فى طاعته بطريق السياسة بعد أن فشل فى ذلك بطريق الحرب، فى الوقت الذى حرص فيه الإخشيد على الاحتفاظ بولائه للخلافة العباسية حتى يتاح له فى ظل ضعفها التمتع بالاستقلال فى مصر، غير أنه فكر فى قطع الخيط الواهى الذى يربطه بهذه الخلافة وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمى القائم على إثر ما حدث من أزمة بين الإخشيد ومحمد بن رائق، وحين سمع بتحرك هذا الأخير إلى مصر إلا أن عدداً من أصدقاء الإخشيد نصحوه بالعدول عن هذه الخطوة لخطورتها، ثم عادت العلاقات مع العباسيين إلى ما كانت عليه، وحرص خلفاء الإخشيد على استمرار العلاقة الطيبة مع الخلافة العباسية وخاصة وإن كافور

كان يبدى سياسة مرنة ويتجنب الدخول فى صراع مع الخلافتين العباسية من ناحية والفاطمية من ناحية أخرى حيث وصفه المعاصرون بأنه «كان خبيراً بالسياسة فطناً ذكياً جيد العقل داهية، كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء وتم له الأمر» واستطاع فعلاً أن يحفظ التوازن فى سياسته الخارجية بين العباسيين والفاطميين.

لكن يبدو أن الفاطميين لم يقنعوا من كافور بهذه الدبلوماسية وإنما جدوا فى بث دعاتهم فى مصر لتهيئة الجو فيها وأخذوا البيعة من زعماء البلاد ورؤساء الجند للمعز الفاطمى ونجح الدعاة فى الحصول على البيعة للمعز، بل إن كافوراً نفسه رحب بهم وتلقاهم بالقبول وإن لم يعطهم رداً حاسماً فى هذا الأمر، وهكذا تمهدت الأمور للفاطميين وبقى انتهاز الفرصة المناسبة للانقضاض عليها ويقال أن المعز الفاطمى شرع منذ سنة ٣٥٦هـ (٩٧٠م) أى قبل وفاة كافور فى إنشاء الطرق وحفر الآبار وإقامة المنازل على رأس كل مرحلة وإقامة المحطات للاستراحة على طول الطريق من برقة حتى مشارف الاسكندرية، فى الوقت الذى نشط الدعاة فى مصر ووزعوا الأعلام والرايات على مؤيدى الخليفة الفاطمى، من جند مصر

ليقوموا بنشرها على الملأ وقت وصول الجيش الفاطمى إلى مصر.

وشاعت الظروف أن يموت كافور سنة ٣٥٧هـ (٩٦٨م) وأحوال مصر مضطربة ومشاكلها متفاقمة فقد انخفض النيل وعم القحط واشتد الغلاء وانتشرت الأوبئة وشحت الأقوات وعمت المجاعة فى الوقت الذى انقسم فيه الجيش إلى فرق وأحزاب «وكثر الاضطراب وتعددت الفتن وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء وقتل فيها خلق كثير وانتهبت أسواق البلد وأحرقت مواضع عديدة، فاشتد خوف الناس وضاعت اموالهم وتغيرت نياتهم وارتفع السعر وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل ويبة بدينار واختلف العسكر، فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طغج وهو يومئذ بالرملة وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمى وعظم الارجاف بمسير القرامطة إلى مصر..» ولم يستطع الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات أن يضع حداً لهذه المتاعب فى الداخل والخارج لا سيما وقد هدد القرامطة مصر من جهة الشام وهددها النوبيون من جهة الجنوب وأصبح من الصعب التكهن بمصير البلاد وسط تلك الفوضى والاضطراب.

جمع المعز كل ما استطاع جمعه من الأموال ليصرفها على إعداد الجيش الذى عهد اليه بفتح مصر وشاءت الأقدار أن هيأت له حظا مواتياً ببلاد المغرب حيث استقرت الأمور فيها ودان له العباد ومكنه الرخاء هناك من تدبير الأموال الطائلة لتحقيق حلمه حتى ليقال انه صرف على إعداد الجيش أربعة وعشرين مليونا من الدنانير عدا ما حمله ألف جمل من صناديق الذهب للصرف منها على الحملة، وعهد بقيادة الحملة إلى قائد ذائع الصيت هو جوهر الصقلى وخرج الخليفة بنفسه لوداع الجيش يوم رحيله من القيروان فى ربيع الآخر سنة ٣٥٨هـ (فبراير سنة ٩٦٩م) وكان الجيش كبيراً حتى ليقال أن عدده بلغ مائة ألف جندى وسار جوهر إلى برقة فقدم له صاحبها الطاعة وأكرم وفادته ثم مضى فى طريقه إلى الاسكندرية فدخلها من غير مقاومة، فى الوقت الذى أبحرت فيه بعض قطع الأسطول الفاطمى فى البحر لتأمين مسيرة الجيش وحماية جانبه من جهة البحر، وعند دخول الفاطميين الاسكندرية أمر جوهر الصقلى جنده بعدم التعرض للأهالى بل أغدق على جنده الارزاق، فألف بين قلوب عساكره من ناحية واكتسب رضى الأهالى من ناحية أخرى.

وحين وصلت الأخبار إلى الفسطاط باستيلاء جوهر على الاسكندرية اضطرب أهلها وماجوا وشاور الوزير جعفر بن

الفرات ذوى الرأى ووجوه القوم، فاستقر الرأى على مفاوضة جوهر فى شروط التسليم، وطلب الأمان على أرواح المصريين وأملاكهم واختاروا على رأس وفد المفاوضة أحد الاشراف من سلالة الحسين بن على هو الشريف أبو جعفر مسلم بن عبيد الله ومعه القاضى أبو طاهر الذهلى، فالتقى الوفد بجوهر عند تروجة بالبحيرة فى رجب سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) حيث انتهت المفاوضات بكتاب الأمان الذى منحه جوهر للمصريين وتعهد فيه جوهر بأن يترك للناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم حرية العقيدة الدينية، كما تعهد بإقامة شعائر الحج وإصلاح الطرقات والعمل على استتباب الأمن وتوفير الأقوات وإصلاح نظام العملة ونشر العدل بين الناس ومنع الظلم، كما وعد بترميم المساجد وتزيينها بالفرش والايقاد والصرف على أئمتها وخدمها من بيت المال، وتعهد جوهر بتأمين المصريين على أرواحهم وأملاكهم وأموالهم «وأعطيكم إياه عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله وذمة الأئمة».

وحين أعلن هذا العهد فى الفسطاط اظهر العامة الرضى غير ان الجند انقسموا على أنفسهم وبرزت المعارضة وأعلن الإخشيدية والكافورية إصرارهم على المقاومة لطرد الفاطميين من البلاد، على الرغم مما كانوا فيه من الضعف والانقسام

وافتقارهم إلى القيادة الحكيمة والوحدة، ولكنهم مع ذلك بادروا بالتحصين فى الجيزة لمنع جوهر من دخول الفسطاط، إلا أن هذا نجح فى عبور النيل وأوقع القتل فى الجند الإخشيدية فلاذ فريق منهم بالفرار ووقع الآخرون أسرى، وشاع الخبر بين العامة من جديد فأسرعوا إلى الشريف أبى جعفر يستعطفونه ليطلب الأمان من جوهر مرة أخرى ففعل فأعلن الأمان وهدأت النفوس وأمر جوهر جنده بالكف عن القتل والسلب ودخل الفسطاط بعد أن خرج الوزير جعفر ابن الفرات ووجوه القوم للقائه والترحيب به وسار موكبه يشق المدينة والشريف أبو جعفر عن يمينه وابن الفرات عن شماله وذلك فى شعبان سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) وبذلك نجح الفتح الفاطمى لمصر.

وقد ساعد على نجاح الفتح هذه المرة عوامل كثيرة منها ضعف الخلافة العباسية وعدم قدرتها على التصدى لهذه الحملة، وضعف الدولة الإخشيدية صاحبة الأمر والنهى فى مصر، بعد وفاة كافور، وصغر سن أميرها ووقوعه تحت الوصاية، فضلاً عما نزل بمصر وقتئذ من فوضى واضطراب وقصور النيل واشتداد الغلاء وانتشار الوباء وانقسام الجند والحروب الأهلية وتفرق الجيش إلى شيع وأحزاب فى وقت ضرب القدر ضربته فهيأ الأمور للمعز الفاطمى وأقر له الأحوال بشمال إفريقية

ومنحه رخاء وأمناً وقائداً ماهراً هو جوهر الصقلى حتى ليقال أن المعز كان شديد الإعجاب بجوهر الصقلى كثير الثقة فى قدراته الحربية وكفايته العسكرية حتى أنه قال مرة لبعض زعماء كتامة «والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر».

تأسيس القاهرة والجامع الأزهر:

كان عمرو بن العاص قد اختط الفسطاط عقب فتحه لمصر سنة ٢٠هـ (٦٤١م) واتخذها حاضرة للبلاد وظلت كذلك طوال عهد الخلفاء الراشدين ثم عهد الخلافة الأموية، ثم اختط العباسيون العسكر سنة ١٣٣هـ (٧٥٠م) عند قدوم جيشهم إلى مصر بقيادة صالح بن على وأبى عون لمطاردة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، حيث اختطت العسكر فى الصحراء الواقعة شمال شرقى الفسطاط والتى كانت تسمى باسم الحمراء القصوى وشيد صالح بن على دار الإمارة، ثم شيد بها بعد ذلك جامع العسكر، وظلت العسكر حاضرة لمصر فى العصر العباسى حتى ولاية أحمد بن طولون الذى أنشأ مدينة هى القطائع سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) وهى الحاضرة التى ظلت مقراً للحكم طوال عصر الطولونيين والإخشيديين.

ولما تم لجوهر الصقلى فتح مصر فكر فى تأسيس مدينة

جديدة تصبح حاضرة للدولة الفاطمية ومركزاً لنشر دعوتها الدينية بعد أن عدل عن اتخاذ كل من الفسطاط أو العسكر عاصمة له، ويقال أن جوهر أطلق على الحاضرة الجديدة اسم المنصورية تقرباً إلى الخليفة المعز بإحياء ذكرى والده المنصور، وظلت تعرف بهذا الاسم نحو أربع سنوات حتى قدوم المعز الذى غير اسمها وجعله القاهرة المعزية. ولقد تعددت القصص وتضاربت الروايات حول اشتقاق إسم القاهرة، فالمقريزى يروى أن اسمها مأخوذ من قول المعز وهو يودع جوهر أمام لفيف من زعماء العرب «والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر.. ولينزلن فى خرابات ابن طولون ويبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا». ويذكر ابن دقماق أنها سميت كذلك لانه تم وضع أساسها عند طلوع كوكب القاهر وأبو المحاسن يروى قصة غريبة إلى حد ما تواترت فى المراجع كثيراً عن سبب تسميتها القاهرة مؤداها أن جوهر الصقلى أمر المنجمين باختيار طالع سعيد للمدينة التى أزمع تأسيسها لتكون حاضرة للفاطميين فاختار المنجمون طالعاً لوضع الأساس وطالعاً لوضع السور وجعلوا بدائرة السور قوائم من خشب ووصلوا بين كل قائمين بحبل علقوا فيه أجرساً وقالوا للعمال: إذا تحركت الأجراس فالقوا ما بأيديكم من طين وحجارة، وبينما العمال منتظرين إذ وقف غراب

على أحد تلك الحبال فتحركت الأجراس جميعاً وبدا العمال البناء فصاح المنجمون لا، لا القاهر فى الطالع فسميت المدينة القاهرة، والقاهر هو المريخ قاهر الفلك. لكن يبدو أن هذه القصة تعوزها الحقيقة التاريخية وهى من نوع القصص الساذجة التى كانت تتفق وعقلية المعاصرين وتشد انتباههم مع افتقارها إلى السند التاريخى وأقرب إلى الحقيقة أن المعز لدين الله الفاطمى سماها القاهرة لما كان يأمل من أن تقهر الدنيا وتقهر من يشذ عنها ويحاول الخروج على حاكمها.

وكانت البقعة التى أقيمت فوقها القاهرة تقع شمالى الفسطاط وكانت صحراء مغطاة بالرمال - يجتازها الناس فى مسيرهم، من الفسطاط إلى عين شمس، ولم يكن بها عند نزول جوهر سوى بستان الإخشيد المعروف بالبستان الكافورى ودير للنصارى يعرف بدير العظام وبناء يعرف بقصر الشوك. وكانت القاهرة وقت إنشائها صغيرة المساحة لا تتجاوز مساحتها ٣٤٠ فداناً بحيث أن كل جانب من جوانبها كان يبلغ حينئذ ألف ومائتى متر أى أنها اتخذت شكل المربع وأحاط بها سور من اللبن بقيت آثاره حتى عصر المقريزى (القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر الميلادى) وكان يحد المدينة من جهة الشرق جبل المقطم ومن الغرب الخليج الكبير ومن الجنوب مدينة القطائع ويقال أن

سبب اختيار جوهر لهذه البقعة بالذات أنه أراد أن «تصير حصناً فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها» وأنه أعدها معقلاً يتحصن به وتنزله عساكره «واحتفر الخندق من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة القاهرة» وتخلل سور القاهرة ثمانية أبواب فى كل جهة من جهاته الأربع بابان فكان فى جهته القبلية بابان هما بابا زويلة وباب الفرج، وفى الناحية الشمالية باب الفتوح وباب النصر وفى جهة الشرق باب القراطين وباب البرقية، وفى الجهة الغربية باب سعادة وباب القنطرة وقد بنى بعد سور جوهر هذا سوران للقاهرة آخران أحداهما بناه أمير الجيوش بدر الجمالى وزير المستنصر سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م) والثانى بناه صلاح الدين الايوبى، وبدأ فى عمارته وهو لا يزال وزيراً للخليفة الفاطمى العاضد سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م).

ومن الواضح أن القاهرة كانت صغيرة المساحة من ناحية كما أنها كانت بعيدة عن النيل من ناحية أخرى، أى لا ساحل لها، ولعل ذلك ما جعل المعز حينما قدم إلى مصر أواخر سنة ٣٦٢هـ (٩٧٣م) لم يعجبه موضعها وقال لجوهر «فاتك عمارتها ها هنا، واشار إلى المقس على النيل»، وكان أول ما بنى فى القاهرة هو القصر الكبير الذى أراد جوهر الصقلى أن يكون سكناً للخليفة

المعز وحاشيته ومقر دواوين الحكم، وفى جمادى الآخرة سنة ٣٥٩هـ (مايو سنة ٩٧٠) اختطت القبائل بالقاهرة فنزلت كل قبيلة أو فرقة من فرق الجيش مكاناً خاصاً بها وسميت خططها بالحارات منها حارة زويلة وحارة كتامة، وحارة البرقية التى نزل بها قوم من برقة وغيرها.

رأى جوهر الصقلى أن يبنى مسجداً جامعاً يكون مصلى للخليفة وجنوده ومسجداً جامعاً للحاضرة الجديدة ومركزاً لنشر الدعوة الشيعية ومركز لتلقى مبادئ المذهب الشيعى فى مصر ورمزاً لانتصار الدولة الجديدة، ويبدو أن جوهر إراد ألا يفاجئ السنيين فى مصر بإقامة شعائر المذهب الفاطمى فى مساجدهم خوفاً من الحساسية المذهبية لا سيما وأن الدولة الفاطمية كانت لا تزال فى بداية عهدها وتحرص على ألا تثير حفيظة المصريين وسخطهم فشرع فى بناء الجامع الأزهر فى الرابع عشر من رمضان سنة ٣٥٩هـ (٩٧٠م) وتم إنشاؤه فى عامين وأقيمت به الصلاة لأول مرة فى رمضان ايضاً سنة ٣٦١هـ (٩٧٢م) وسمى الجامع عند إنشائه بجامع القاهرة وظلت هذه التسمية غالبة عليه طوال العصر الفاطمى ولم يسم بالجامع الأزهر إلا فى وقت متأخر ويرى البعض أنه سمى بالجامع الأزهر بعد إنشاء القصور الفاطمية فى عهد العزيز بالله

والتى كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة، ويرى البعض أنه سمى بذلك الأسم لما سيكون له من شأن عظيم ومكانة سامية بازدهار العلوم فيه. لكن أقرب الاحتمالات إلى الصحة ما قيل من أن هذا الإسم مشتق من لفظ الزهراء لقب فاطمة بنت رسول الله وزوج على ابن أبى طالب والتى ينتسب إليها الفاطميون وقد استمر هذا الجامع يعرف بالإسمين جامع القاهرة والجامع الأزهر، حتى عصر المقريزى حيث بدأ يختفى الأسم الأول ويغلب عليه الإسم الثانى.

وقد توسط الجامع الأزهر عند إنشائه المدينة الجديدة، وضم مكاناً مسقوفاً تؤدى فيه الصلاة يسمى المقصورة، ومكاناً آخر غير مسقوف يسمى الصحن وأنشأ به جوهر مقصورة كبرى ضمنها محراباً يسمى الآن القبلة القديمة. ودرج الخلفاء الفاطميون على إقامة شعائر صلاة الجمعة والأعياد فى هذا الجامع، وكانوا يقومون أحياناً بإمامة المسلمين فى الصلاة ويخطبون فيهم وقد اتخذ الجامع الأزهر صفته التعليمية منذ البداية، فبعد أن أصبح مركزاً لنشر المذهب الشيعى تحول إلى مركز علمى كبير ويعتبر الوزير ابن كلس أول من فكر فى جعله معهداً علمياً للدراسة المنظمة حيث عين فى سنة ٣٧٨هـ (٩٨٨م) لأول مرة جماعة من الفقهاء للدرس والقراءة فى أوقات

منظمة ورتب لهم الارزاق والجرايات، فأصبح منذ ذلك التاريخ مركزاً علميا ومدرسة تعليمية جامعة، وظلت هذه الصفة التعليمية تميز الجامع الأزهر طوال العصر الفاطمى، حيث كثر عدد طلابه وأساتذته وتنوعت حلقات درسهم وتعليمهم وكثرت أروقته ونمت علومه وازدهرت وجذب إليه الطلاب والعلماء من كل مكان.

وهكذا باتمام الفتح وتأسيس القاهرة وإنشاء القصر الملكى الكبير المعد لنزول الخليفة وتأسيس المسجد الجامع الذى تؤدى فيه شعائر المذهب الشيعى وتلقن فيه مبادئ ذلك المذهب، أصبح كل شئ معد لاستقبال الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، الذى ما لبث أن وصل فى رمضان سنة ٣٦٢هـ (٩٧٣م) ودخل القاهرة، ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يخر ساجداً لله تعالى ويصلى له ركعتين حمداً وشكراً له على نعمائه وعلى تحقيق حلم العلويين الكبير ونقل الخلافة الفاطمية إلى مصر.

الخلافة الفاطمية فى مصر

العصر الفاطمى الأول:

وصل الخليفة المعز إلى مصر فى رمضان سنة ٣٦٢هـ ونزل بالقصر الشرقى الكبير، الذى أنشأه له جوهر الصقلى، وما لبث أن توافدت عليه جموع الناس مهنئين، مقدمين له الهدايا والتحف فقبلها منهم وأمر بإطلاق جميع من اعتقلهم جوهر الصقلى من الإخشيديين ورجال الدولة الإخشيدية ثم تسلم من جوهر دواوين مصر التى أشرف عليها قرابة أربع سنوات ومن ثم بدأ المعز حكمه فى مصر وافتتح عهد الخلافة الفاطمية فيها.

والواقع أن حكم الدولة الفاطمية فى مصر امتد قرابة قرنين من الزمان يمكن تقسيمها إلى قسمين كبيرين، القسم الأول هو الذى امتد نحو قرن من سنة ٣٥٨هـ إلى النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر (سنة ٤٥٧هـ) وهو عصر القوة والازدهار فى تاريخ الدولة الفاطمية، بلغت فيه الدولة أوج مجدها وعظمتها وامتد نفوذها إلى أقصى درجات الاتساع، وتولى إبانه خلفاء عظام امتازوا بقوة الشخصية وحسن تدبير الأمور، واستولوا على مقاليد السلطة وجعلوا وزراءهم فى المرتبة الثانية، فركز المعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر السلطة فى أيديهم

وباشروا الحكم الفعلى فى البلاد، ودان لهم الشعب ورجال الدولة بالطاعة. أما القسم الثانى والذى امتد قرابة قرن آخر من الزمان فهو عصر الضعف والاضمحلال حيث تعاقب فيه الخلفاء الضعاف بعد المستنصر وهم المستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد، واتسمت سياسة الدولة خلال هذا العهد بالضعف والفتور والركود فى الداخل والخارج وبرز الوزراء ليحجبوا الخلفاء ويمسكوا بمقاليد السلطة الحقيقية ويجعلوا الخلفاء على هامش الأحداث حتى سمى وزراء هذا العهد بالوزراء العظام وظل الضعف ينخر فى عظام هذه الدولة حتى انتهت سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) وأفسحت المكان لدولة أخرى فتية هى الدولة الأيوبية.

افتتح المعز عهد الخلافة الفاطمية فى مصر،كأول الخلفاء،لكنه لم يعمر طويلاً فى الحكم فقد توفى بعد سنتين وبضعة أشهر، قضاها فى إرساء قواعد العهد الجديد فى الداخل والتصدى للاخطار الخارجية ونجح فى ذلك إلى حد بعيد، وساعده فى ذلك ما اشتهر به من قوة الشخصية والحزم وبعد النظر فضلاً عن أنه كان «عاقلاً أديباً جواداً ممدحاً فيه عدل وانصاف للرعية» كما صرف جانباً من همه لوضع تقاليد الخلافة ورسومها فى مصر وكل ما يتعلق بالاحتفالات والأعياد والمواكب والمراسم فى مصر

وكل ما يتعلق بالإحتفالات والأعياد والمواكب والمواسم وإقامة الأسمطة وغيرها، وتوفى المعز سنة ٣٦٥هـ (٩٧٦م).

ولى الخلافة بعده ابنه العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ / ٩٧٦-٩٩٦م) وكان كما وصفه المؤرخون شجاعاً كريماً سمحاً مثقفاً وجه همته للتوسع الخارجي حتى امتدت رقعة الدولة فى عهده من المحيط الأطلسى غرباً إلى الخليج الفارسى شرقاً ومن أطراف بلاد الشام شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً، وعظمت ثروة مصر وازدهرت أحوالها وعاش الناس فى رغد من العيش وبذخ وترف وانعكست هذه الأمور على حياة الخليفة نفسه الذى أظهر ميلا لحياة الترف والرفاهية واقتناء التحف والتنعم، لكنه إلى جانب ذلك أظهر حدباً على العلم والثقافة فأجاد بعض اللغات وحول الجامع الأزهر لأول مرة إلى مدرسة علمية وجامعة إسلامية واهتم بالعمران فشيد القصور وشرع فى بناء جامعه الكبير الذى اتمه من بعده ابنه الحاكم، ومكنه طول عهده على عرش الخلافة والذى امتد واحداً وعشرين عاماً من إنجاز خططه ومشروعاته فى الداخل والخارج، وتوفى العزيز سنة ٣٨٦هـ (٩٩٦م).

تولى الخلافة بعده ابنه الحاكم بأمر الله (٣٨٦هـ-٤١١هـ /

٩٩٦-١٠٢٠م) وكان صبياً فى الحادية عشرة من عمره فتولى الوصاية عليه مربيه برجوان الخادم، غير أن الحاكم ما لبث أن قتله غيله بعد نحو أربع سنوات تخلصا من ثقل وصايته، وبدأ يمسك بزمام السلطة حتى أصبح شخصية مهابة يخشاه الجميع ويخاف بأسه الخاصة والعامة، وتوارى خلفه وزراؤه وكبار رجال دولته وحاشيته، لا سيما وقد ظهرت فى تصرفاته كثير من التناقضات والشذوذ حتى دلل على أنه لم يكن سوياً فى أخلاقه ونزعاته، وأنه كان أقرب إلى ملتاثى العقول منه إلى العقلاء، كما اتسم بالقسوة والعنف والميل لسفك الدماء والازدواج فى الشخصية وجمع المتناقضات، فكان شجاعاً مقداماً تارة جباناً متردداً تارة أخرى وهو محب للعلم حفى بالعلماء تارة منتقم من العلماء قاتل لهم تارة أخرى «وكان الغالب عليه السخاء وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط» ومال إلى الصلاح طوراً وقتل الصلحاء طوراً آخر، بل إنه أمر بأن يكتب على المساجد والجوامع سب أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وذلك فى سنة ٣٩٥هـ ثم محا ما كتب بعد ذلك بعامين وزهد ولبس الصوف سبع سنين وامتنع من دخول الحمام، وأقام فى ضوء الشموع ليلاً ونهاراً بضع سنين ثم فضل الجلوس فى الظلمة مدة، ثم أصدر أمراً بقتل الكلاب ثم عاد

فحرم هذا القتل، ومنع صلاة التراويح عشر سنين وعاد وأباحها، ثم نهى عن الاشتغال بالنجوم وكان ينظر فيها، وأمر بقطع الكروم وحرم بيع العنب حتى لا يستغل فى صناعة النبيذ، ومنع النساء من الخروج من منازلهن ليلاً ونهاراً فحرم صنع الأحذية لهن واضطهد أهل الذمة وأمر بهدم كنائسهم فى البلاد التابعة له ومن بينها كنيسة القيامة ثم عاد فأمر ببنائها، وحرم أكل الملوخية والسمك والرطب وأهلك من ذلك الشئ الكثير، واقترنت هذه التصرفات الشاذة بالقسوة والتنكيل والميل لسفك الدماء فقتل بعض الوزراء وكبار رجال دولته، وبلغ الشذوذ مداه بادعائه الألوهية وشجعه على ذلك بعض دعاة الباطنية وغلاة التشيع لاسيما محمد بن إسماعيل الدرزى المنسوبة إليه طائفة الدروز، والذى كان أول من نادى بتقديس الحاكم وبلوغه مرتبة الألوهية فى أوائل القرن الخامس الهجرى وقد اشتد سخط الناس على هذه الدعوة وحدثت مظاهر نفور واضطراب فى القاهرة واختلت موازين الأمور فى الدولة الفاطمية، وكان الحاكم قد اعتاد فى أواخر أيامه التجول وحده على حمار فى جبل المقطم ربما مغالاة فى حب العزلة والانفراد وفى ليلة من ليالى شهر شوال سنة ٤١١هـ (١٠٢٠م) خرج الحاكم لكنه لم يعد وقيل أن أخته ست الملك دبرت أمر الخلاص منه بعد أن ساءت سيرته واشتدت وطأته

على الناس واستغلت طائفة الدروز هذا الاختفاء ونادوا بأنها مجرد غيبة وأن الحاكم لم يقتل وإنما سوف يعود للظهور من جديد بمجرد أن تنصلح الأمور وتزول المفاسد والمعاصى من العالم ولقد مهدت سياسة الحاكم المضطربة لظهور الضعف فى كيان الخلافة الفاطمية وأرهصت بكثير من الاضمحلال تمثل ذلك فى فقدان الدولة الفاطمية لجانب كبير من هيبتها واجترات الخلافتان السنيتان على الهجوم عليها لمحاولة تقويض دعائمها وإبطال دعوتها وإصدار المحاضر بالشك فى نسبها.

على كل حال انتهت هذه المحنة بولاية الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ/ ١٠٢٠-١٠٣٦م)وهو لايزال فى السادسة عشرة من عمره تحت وصاية عمته ست الملك وكان الظاهر مؤثراً للذات الحياة مبالغاً فى حياة اللهو ترك أمور الحكم فى يد عمته وأيدى رجال الدولة من الوزراء والقادة والقضاة فى الفترة الأولى من حكمه حتى وفاة عمته سنة ٤١٥هـ (١٠٢٤م) وأباح ما كان والده قد حرمه وأقبل على شرب الخمر وسمح للناس بشربها، وأقبل الناس على حياة اللهو فى عهده. وعلى الرغم من جهود الظاهر لتحسين أحوال البلاد وضبط شئونها، فقد حدثت بعض المجاعات وانتشرت الأوبئة بسبب اضطراب النيل وشدة الفوضى فى البلاد وثورات الجند والفتن بين المغاربة والسودانيين والأتراك

ووقع الغلاء واشتد البأس على الناس، وقد توفى الظاهر وهو لايزال فى ريعان الشباب وذلك سنة ٤٢٧هـ (١٠٣٦م).

ولى الخلافة بعده ابنه السمتنصر بالله وكان فى السابعة من عمره وظل فى الخلافة حتى سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) فبلغت خلافته ستين سنة وعدة أشهر، وهو أطول عهد قضاه خليفة مسلم فى الخلافة، كانت والدته أمة سوداء لتاجر يهودى يدعى «أبو سعد سهل بن هارون التسترى» وكان الظاهر قد اشتراها منه فولدت له المستنصر، ولما ولى المستنصر الخلافة قربت والدته التسترى وولته نظارة خاصتها ومنحته سلطة واسعة على عهد الوزير صدقة بن يوسف الفلاحى، فلم يعد للفلاحى معه سلطة، ولهذا نقم الفلاحى على التسترى، ودبر خطة لقتله مستغلاً شعور المسلمين العدائى ضد اليهود وخاصة بعد أن أثار التسترى ثائرة المسلمين بالتعصب لبنى جلدته وإسناد المناصب الهامة لهم وإظهار الاضطهاد للمسلمين، وما لبث التسترى أن اغتيل سنة ٤٣٩هـ (١٠٤٧م) إلا أن المستنصر ووالدته لم يغفر للفلاحى ذلك فأقيل من الوزارة وسجن، ثم قتل بعد ذلك سنة ٤٤٠هـ (١٠٤٨م).

وعلى الرغم من هذا النزاع بين الفلاحى والتسترى فقد بلغت

الخلافة فى الشطر الأول من حكم المستنصر أوجها فى العظمة داخلياً وخارجياً وخطب للمستنصر على منابر بغداد وعلى يد البساسيرى لمدة عام وهدأت الأحوال وعظم الرخاء وزار الرحالة ناصر خسرو مصر بين عامى (١٠٤٧-١٠٤٩م) فأشاد برخاء مصر وأمنها، حتى أنه قرر أن الصيارفة وتجار الجواهر تركوا حوانيتهم دون أن يجهدوا أنفسهم فى غلق أبوابها فى وجه اللصوص. على أن هذا الهدوء والرخاء لم يدم طويلاً فسرعان ما حلت بمصر أيام حالكة السواد وعاودتها المصائب فاشتد الغلاء وانتشر الوباء وعم القحط فى شدة امتدت نحو ثمانى سنوات عرفت لهولها وطول أمدها بـ «الشدة العظمى» التى امتدت بين عامى (٤٤٦هـ - ٤٥٤هـ/ ١٠٥٤-١٠٦٢م) وبلغ من هولها أن كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس واشتد القحط وعدمت الأقوات حتى أكل الناس القطط والكلاب، ثم أكل بعضهم بعضاً. وتتابعت على البلاد مصائب وأهوال واقترنت باندلاع الفتن والحروب الأهلية وثورات الجند السودانيين، الذين طردهم الأتراك والمغاربة إلى الصعيد، حيث استقر منهم هناك نحو خمسة عشر ألفاً عاثوا فى البلاد الفساد وأخذوا يشنون الهجمات على القاهرة، هذا فضلاً عن حركة ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبى الذى خرج على المستنصر وحذف

اسمه من الخطبة فى الوجه البحرى ودعى للعباسيين وكاتب السلاجقة مستعيناً بالأتراك تارة وبقبائل العربان تارة أخرى، فضلاً عن الفتن التى اندلعت بين المغاربة والأتراك والسودانيين طوال هذه الاحداث التى انتهت بأن لجأ المستنصر إلى استدعاء والى عكا بدر الجمالى سنة ٤٦٥هـ (١٠٧٣م) ليتولى إقرار الأمور فى البلاد ويتقلد الوزارة واضعاً بذلك بداية عهد الوزراء العظام بمصر.

العصر الفاطمى الثانى أو عصر الوزراء العظام:

لم تلبث عوامل الضعف أن أخذت تنخر فى عظام الدولة الفاطمية منذ الجزء الأخير من عهد الخليفة المستنصر فقد تعاقب على الحكم عدد من الخلفاء الضعاف بعد السمتنصر هم المستعلى بالله ٤٨٧-٤٩٥هـ / ١٠٩٤-١١٠٢م والآمر بأحكام الله ٤٩٥ - ٥٢٤هـ / ١١٠٢ - ١١٣٠ والحافظ لدين الله ٥٢٤ -٥٤٤هـ / ١١٣٠ - ١١٤٩م والظافر ٥٤٤ - ٥٤٩هـ / ١١٤٩-١١٥٤م والفائز ٥٤٩-٥٥٥هـ / ١١٥٤-١١٦٠م والعاضد ٥٥٥-٥٦٤هـ / ١١٦٠-١١٦٩م وفى نفس الوقت تعاقب على منصب الوزراء عدد من الوزراء العظام من أصحاب النفوذ وذوى الشخصية القوية الذين صارت إليهم أمور الدولة وأصبحوا أهل

الحل والعقد فيها وجاء أمير الجيوش بدر الجمالى على رأس أولئك الوزراء العظام الذين تتابعوا على الوزارة فى مصر وارتبط بهم تاريخ الدولة الفاطمية فى دورها الثانى فقد تولى الوزارة بعد بدر الجمالى ابنه الأفضل شاهنشاه الذى وزر للمستنصر فى أواخر أيامه ثم للمستعلى ثم للآمر، ثم تولى الوزارة بعد الأفضل ابنه شرف المعالى ثم المأمون البطائحى على عهد الآمر أيضاً ثم على عهد الخليفة الحافظ وزر أبو على أحمد بن الأفضل ثم يانس الأرمنى ثم أبو على الحسن بن الخليفة الحافظ الذى تلاه ابن آخر للخليفة – هو أبو الربيع سليمان ثم أبو المظفر بهرام ثم رضوان ابن الولخشى، ومنذ عصر الخليفة الحافظ لقب الوزير بلقب «الملك» وأول من لقب به رضوان بن الولخشى هذا فقيل له «السيد الأجل الملك الأفضل» ثم ولى الوزارة بعد رضوان بن الولخشى وعلى عهد الخليفة الظافر وزر أبو الفتح نجم الدين سليمان ثم أبو الحسن على بن السلار ثم العباس بن أبى الفتوح، بن تميم وعلى عهد الخليفة الفائز وزر الصالح طلائع بن رزيك الذى لقب بلقب الملك فقيل له «الملك المنصور» ثم على عهد الخليفة العاضد وزر ابن رزيك بن طلائع الذى لقب هو أيضاً بلقب الملك فقيل له «الملك العادل» ثم ولى الوزارة شاور ثم ضرغام ثم شاور مرة أخرى، ثم أسد الدين شيركوه قائد جيش

نور الدين محمود بن زنكى، ثم ولى صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة للخليفة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية.

وإذا كان وزراء الدور الأول من عهد الخلافة الفاطمية جميعاً من أرباب القلم أى من رجال الفكر والدين فإن وزراء الدور الثانى وعلى رأسهم بدر الجمالى نفسه كانوا جميعاً من أرباب السيف أى من رجال الجيش وإذا لم يكن قد حدث أن ولى الوزارة ابن بعد أبيه فى العصر الأول، فإن ذلك قد تكرر مراراً فى العصر الفاطمى الثانى حيث ولى الوزارة بعد بدر الجمالى ابنه الأفضل شاهنشاه وولى بعد الصالح طلائع ابن زريك ابنه العادل بن طلائع. ولما تمتعوا به من سلطة فى العصر الفاطمى الثانى أقيمت للوزارة دار خاصة بالقاهرة بالقرب من القصر الخليفى يباشر كل وزير فيها شئون الوزارة ويصرف فيها شئون الحكم وعرفت تلك الدار بـ «دار الوزارة الكبرى» وطبقاً لما درج عليه المؤرخون والكتاب من تقسيم الوزارة إلى وزارة تنفيذ ووزارة تفويض حيث تكون السلطة فى الأولى كلها فى يد الخليفة على حين يقوم الوزير بتنفيذ أوامره، وفى الثانية تكون السلطة كلها تقريباً فى يد الوزير على أن يقنع الخليفة برسوم السلطة الشكلية ويصبح مغلوباً على امره، اقول طبقاً لهذا التقسيم نستطيع أن نصف وزراء العصر الفاطمى الأول بأنهم جميعاً

كانوا وزراء تنفيذ، أما وزراء العصر الفاطمى الثانى فإنهم وزراء تفويض وأن بداية عهد وزارة التفويض اقترن باسناد الوزارة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى الذى وليها سنة ٤٦٦هـ (١٠٧٣م).

وقد كان كثير من وزراء العصر الفاطمى الثانى من عناصر مختلفة وغير متجانسة، فكان بدر الجمالى وأولاده من أصل أرمنى وإن كانوا مسلمين وترتب على قدومهم إلى مصر أن دخل عنصر جديد إلى مسرح الأحداث وأضيف إلى مكونات الجيش الفاطمى الذى غدا يضم إلى جانب المغاربة والأتراك الذين استعان بهم العزيز، والسودان الذين بدأ دخولهم إلى مصر منذ عهد الحاكم والمستنصر، عنصراً آخر هو الأرمن بحكم أن بدر الجمالى نفسه كان أرمينياً وقد أدى هذا التباين إلى كثير من المنازعات بين عناصر الجيش واشتداد الفتن وخراب البلاد وتعرض الأهالى لنهب الجند، كما كان الوزير أبو المظفر بهرام وزير الخليفة الحافظ مسيحياً ارمنياً وكان الوزير العباس بن أبى الفتوح بن تميم أمير من بنى زيرى كما كان أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين من الأكراد، وهكذا تباينت عناصر الوزراء واختلفت أصولهم وانعكس ذلك على سياسة الدولة داخلياً وخارجياً وبدأت الدولة فى التداعى والانهيار.

وساعد على هذا التداعى ما حدث من قيام الخلفاء فى الحكم وهم أطفال صغار الأمر الذى أدى إلى انتقال مقاليد السلطة إلى الوزراء وازدياد شوكتهم إذ ولى الخليفة الآمر وهو لم يتعد الخامسة من عمره، وولى الفائز وهو فى نفس العمر تقريباً، وتوفى وهو فى الحادية عشرة من عمره وولى العاضد وعمره نحو عشر سنوات، وقد أقيم هؤلاء الأطفال فى الحكم طبقاً لنظام الامامة ووراثة العهد لدى الشيعة الإسماعيلية التى تقضى أن تكون الإمامه فى نسل علىّ بن أبى طالب دون غيرهم وأن تنتقل دائماً من الأب إلى الأبن وعلى الرغم من أن هذا النظام كان من شأنه أن يمنح الخلافة شيئاً من الاستقرار ويجنبها المنافسة والنزاع حول منصب الخليفة إلا أنه أدى فى النهاية إلى ولاية أطفال صغار أفسحوا المجال لاشتداد شوكة الوزراء وعظم سلطانهم فى العصر الفاطمى الثانى. وإذا كان من أهم الشروط لصحة الإمامة عند الشيعة الإسماعيلية هو وصية الأمام بمن يخلفه فى الحكم أو ما عرف بـ «النص» أى أن ينص الإمام القائم على من يتولى الإمامة بعده، وأنه لا يعتد إلا بآخر نص من الخليفة فى هذا الأمر أى أن النص الأخير الذى يصدر عنه هو المعمول عليه فى وراثة الإمامة، فإن قاعدة ولاية الابن بعد الأب جرى خرقها أكثر من مرة فى العصر الفاطمى الثانى حين تولى

الخلافة ابن العم لا الإبن، فقد ولى الخلافة بعد وفاة الخليفة الآمر بأحكام الله ابن عمه الحافظ لدين الله وولى الخلافة بعد وفاة الفائز ابن عمه العاضد لدين الله آخر خلفاء الفاطميين فى مصر، ولقد كانت هذه المخالفات الصريحة لنظام الوراثة فى الإمامة الفاطمية مدعاة لانقسامات مذهبية خطيرة، وحركات سياسية بالغة الأهمية فى تاريخ الدولة الفاطمية، فعقب وفاة المستنصر قام الوزير الأفضل شاهنشاه بإقصاء نزار الابن الأكبر للمستنصر وأقام فى الخلافة أخيه المستعلى ذاهباً إلى أن النص والوصية لهذا الابن الأصغر وانتهى الأمر بقتل نزار وتولية المستعلى وانقسام الإسماعيلية منذئذ إلى فرقتين: النزارية والمستعلية. وعلى حين نجح النزارية فى نقل دعوتهم إلى إيران وإقامة ملك لهم فى قلعة ألموت ثم فى بلاد الشام حيث لعبوا دوراً خطيراً فى أحداث المنطقة فى القرنين الخامس والسادس من الهجرة، نجد أن الإسماعيلية المستعلية أتباع الخلافة الفاطمية فى مصر تعرضوا لعداء النزارية وعانوا كثيراً من هذا العداء بحيث أنه لو قدر لأتباع الإسماعيلية أن يتحدوا جميعاً فى تلك الظروف لتغير مستقبل هذه الخلافة ولامكن تجنيبها الكوارث التى لحقت بها فى الدور الأخير من عصرها فى مصر. والمرة الثانية التى خولفت فيها تلك القاعدة أيضاً عقب وفاة الخليفة الآمر بأحكام

الله حين ولى الخلافة الحافظ ابن عم الآمر على الرغم من أنه كان قد ولد للأخير قبيل وفاته ابن يدعى «الطيب» ومرة ثانية يحدث شرخ عميق فى الدعوة الإسماعيلية وانقسام مذهبى خطير فى تاريخ الخلافة الفاطمية حيث انقسم إتباعها إلى إسماعيلية حافظية وإسماعيلية طيبية وتشير الدلائل إلى أن الطيبية أتباع الطيب اضطروا إلى إفساح المجال أمام قوة الجانب الآخر من الإسماعيلية إتباع الحافظ الخليفة الفعلى، ولهذا انتشروا بعد ذلك فى اليمن والشام بصفة خاصة دون مصر.

وهكذا انتاب الخلافة الضعف والاضطراب ومزقتها الانقسامات المذهبية الخطيرة التى أنذرت بشر مستطير، واستمر التدهور فى أحوال البلاد الاقتصادية منذ أواخر عهد المستنصر وسرت النقمة وعوامل السخط فى نفوس الناس، وخاصة وقد أسندت الوزارة إلى رجل مسيحى أرمينى هو بهرام الذى استكثر من الأرمن فى مصر حتى بلغ عددهم نحو ثلاثين ألفاً وبالغ فى إكرامهم وإسناد الوظائف الهامة إليهم وتمكينهم من السيطرة على شئون البلاد اقتصادياً، بل إنه اتبع سياسة بالغة القسوة بالنسبة للأهالى وصادر كثيراً منهم وأظهر روحاً عدائية تجاه المصريين وشجع بنى جلدته على التوسع فى بناء الكنائس والأديرة حتى ضج الناس بالشكوى منه ولم يستطع الخليفة

الفاطمى التصدى لوزيره أو التجرؤ على عزله فقد ضعف الخلفاء منذ عهد المستنصر وقنعوا بدور ثانوى فى مجريات الأمور ولم يعد لهم كبير شأن فى تصريف شئون البلاد.

والواقع أن هذه الحالة من الضعف والاضمحلال قد استرعت نظر داع كبير من دعاة الدولة الفاطمية هو المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى الذى زار مصر لأول مرة فى أواخر عصر المستنصر، فلم يستطع إخفاء إحساسه باليأس، فعبر عن خيبة أمله فى الخليفة الفاطمى المغلوب على أمره المسلوب السلطان، وهو الداعى النشط الذى عرض حياته لأكبر الأخطار فى المشرق بدعوته للفاطميين واخلاصه فى نشر مذهبهم فى تلك البلاد، حيث اضطر فى النهاية إلى الهرب إلى مصر مطارداً، فراعه ما كان عليه خليفتها من ضعف وما كانت تعانيه الدولة من فوضى، فاضطربت الصورة التى كونها فى مخيلته عن الخلافة الفاطمية واختلفت معالمها. والواقع أن حالة الدولة منذ أواخر عصر المستنصر لم تكن لترضى مثل هؤلاء المتحمسين لدعوتها المتأثرين بمذهبها على البعد حين يفدون إليها ويلمسون بأنفسهم حالتها.

وفى نفس الوقت تقلصت سلطة الخلافة الفاطمية فى الخارج

فانفصل عنها شمال إفريقية وانقطعت الخطبة الفاطمية فى الحجاز لفترة وضاعت من يدها جزيرة صقلية التى استولى عليها النورمان، وتقدم الاتراك السلاجقة فى أملاكها فى بلاد الشام فاستولوا على حلب سنة ٤٦٣هـ (١٠٧١م) وبيت المقدس والرملة فى نفس العام، ثم على دمشق سنة ٤٦٨هـ (١٠٧٥م) واستقل قاضى صور ابن أبى عقيل بمدينته (٤٦٢هـ) واستقل قاضى طرابلس الحسن ابن عمار أيضاً بإمارته فى نفس العام، وتتابع ضياع المدن والقلاع من أيدى الفاطميين وأقام السلاجقة الخطبة للخليفة العباسى وقطعوها للخليفة الفاطمى، ثم ما لبثت أن وصلت الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام فساهمت فى ازدياد ضعف الفاطميين وانحلال سلطتهم فيها إذ استولى الصليبيون سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٩م) على أغلب المدن الساحلية فى بلاد الشام كما استولوا على بيت المقدس وذلك فى خلافة المستعلى حيث لم يبق بيد الفاطميين سوى مدينة عسقلان وفى عهد الآمر استولى الصليبيون على عدد آخر من مدن الشام لا سيما طرابلس وصور وبانياس. وقد أثبت الافضل شاهنشاه قصر نظره وجهله بطبيعة الغزو الصليبى حين سارع إلى محاولة التحالف مع الصليبين عند نزولهم على أنطاكية، معتقداً أن الفرنج ربما يصلحون ليؤدوا دور الحاجز القوى بين الخلافة

الفاطمى التصدى لوزيره أو التجرؤ على عزله فقد ضعف الخلفاء منذ عهد المستنصر وقنعوا بدور ثانوى فى مجريات الأمور ولم يعد لهم كبير شأن فى تصريف شئون البلاد.

والواقع أن هذه الحالة من الضعف والاضمحلال قد استرعت نظر داع كبير من دعاة الدولة الفاطمية هو المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى الذى زار مصر لأول مرة فى أواخر عصر المستنصر، فلم يستطع إخفاء إحساسه باليأس، فعبر عن خيبة أمله فى الخليفة الفاطمى المغلوب على أمره المسلوب السلطان، وهو الداعى النشط الذى عرض حياته لأكبر الأخطار فى المشرق بدعوته للفاطميين واخلاصه فى نشر مذهبهم فى تلك البلاد، حيث اضطر فى النهاية إلى الهرب إلى مصر مطارداً، فراعه ما كان عليه خليفتها من ضعف وما كانت تعانيه الدولة من فوضى، فاضطربت الصورة التى كونها فى مخيلته عن الخلافة الفاطمية واختلفت معالمها. والواقع أن حالة الدولة منذ أواخر عصر المستنصر لم تكن لترضى مثل هؤلاء المتحمسين لدعوتها المتأثرين بمذهبها على البعد حين يفدون إليها ويلمسون بأنفسهم حالتها.

وفى نفس الوقت تقلصت سلطة الخلافة الفاطمية فى الخارج

الخلافة الإسلامية ومحاولة تقويض دعائمها. ولم يلبث الأفضل أن أفاق حين تقدم الصليبيون جنوباً بعد استيلائهم على أنطاكية وإنزالهم الهزيمة بجيوش السلاجقة، وحين أعلنوا أن وجهتهم بيت المقدس وهى المدينة التى كانت قد عادت إلى حظيرة الخلافة الفاطمية مؤخراً أثناء الاضطراب الذى جرى فى شمال الشمال بين الصليبيين والسلاجقة، وحاول الأفضل بعد فوات الآوان منع الصليبيين من دخول المدنية لكنه تعرض لهزيمة قاسية فى أغسطس سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٩م) فانسحب فى حالة سيئة إلى مصر ليقبع نحو عامين قبل أن يفكر فى إرسال حملة أخرى لمحاربة الصليبيين. وإذا كان الأفضل قد أرسل الحملات المتتالية والتى بلغت ثلاث حملات فى السنوات ٤٩٦ ,٤٩٧ ,٤٩٩هـ (١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٥م) فإن هذه النوبة من الجهاد كان ينقصها الحماس الدينى وتفتقر إلى النظام وحسن القيادة وصدق الرغبة فى الجهاد ولهذا منيت كلها بالفشل الذريع ولم ينجح فى زحزحة الصليبيين من المواقع التى احتلوها بل إنها عكست الحالة السيئة التى كانت تمر بها الخلافة الفاطمية ومدى الضعف والاضمحلال الذى ران عليها فى كافة الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية وأدى فشل هذه الحملات إلى وقوع كثير من المدن الساحلية الأخرى فى أيدى الصليبيين وهى المدن التى كان

الأسطول المصرى لايزال يتردد عليها ويربطها بعجلة الخلافة الفاطمية بعد أن استولى الصليبيون على معظم الجهات الداخلية فى البلاد... فقد سقطت حينئذ مدينة صيدا ومدينة بيروت، وحين بعث الخليفة الآمر بحملة أخرى سنة ١١٢٣م (٥١٧هـ) بعد اغتيال الأفضل تعرضت جيوشه لهزيمة من جديد ولم تحقق أياً من أهدافها فى بلاد الشام بل أدت إلى تجرؤ الصليبيين وقيامهم بالاستيلاء على مدينة صور سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) وبعد أن استعانوا فى حصارها بأسطول البندقية نظير شروط وتسهيلات خاصة للبنادقة.

وكانت هذه الهزائم مدعاة للسخط بين الناس والاستياء بين الخاصة والعامة وأدت إلى فترة من القلق والاضطراب تقلب على الوزارة خلالها عدد من الوزراء منهم أبو على أحمد بن الأفضل وذلك بعد اغتيال الخليفة الآمر سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م) وإقامة ابن عمه الحافظ لدين الله فى الخلافة، فقد قام الوزير بانقلاب عسكرى وسياسى خطير ضد الحافظ وقام بسجنه واستولى على مقاليد السلطة باعتباره قائداً من قادة الجيش الفاطمى ووزيراً فاطمياً من أسرة لها دور هام فى تاريخ الوزارة فى مصر. والأخطر من ذلك أن هذا الوزير لم يكن اسماعيلياً فى مذهبه وانما كان إمامى المذهب، ولهذا شرع فى القيام ببعض الأعمال

من شأنها أن تقضى على المذهب الإسماعيلى وتلغيه واحلال المذهب الإمامى محله، وظل أبو على احمد يحكم حكماً مستقلاً أكثر من عام كاد يقضى فيها على المذهب الإسماعيلى ويضع حداً لتاريخ الخلافة الفاطمية الإسماعليية فى مصر، غير أن أتباع الاسماعلية نجحوا فى التكتل تحت زعامة يانس الأرمنى ووافقوا على قتل أبى على أحمد سنة ٥٢٦هـ (١١٣٢م) ووضع حد لمشروعاته فى البلاد وأقيم يانس فى الوزارة ثم وليها بعده بهرام الارمنى الذى كان مسيحياً متعصباً والذى مال إلى سياسة التعايش السلمى مع الصليبيين الأمر الذى فجر الثورة فى وجهه وقادها فى هذه المرة رضوان ابن الولخشى الذى نجح فى إثارة حماس الجماهير بخطبه البليغة وحرصه على إعلان ضرورة مواصلة الجهاد ضد الصليبيين وأدت هذه الثورة إلى فرار بهرام وقيام رضوان بن الولخشى فى الوزارة سنة ٥٣١هـ (١١٣٧م) غير أن رضوان هذا لم يتجه فى البداية إلى تنفيذ ما وعد به من الجهاد. بل دخل فى صراعات جانبية حين أخذ يقصى الأرمن عن الوظائف ويضطهد أتباع سلفه بهرام الأمر الذى أثار المعارضة فى وجهه وتزعم الخليفة الحافظ هذه المعارضة وأخذ يكيد لابن الولخشى ويتصل بالأرمن سرا لمناهضته، وعندئذ قرر رضوان الهرب إلى بلاد الشام حيث اتصل برائد من رواد الجهاد

الاســلامى وهـو عـمــاد الدين زنكى أتـابك حلب والموصـل وطلب مـعونتـه للعـودة إلى مصـر. وعلى الرغم من المعـونة التى حـصل عليـهـا مـن زنكى إلا أنه فـشل فى إحـراز النصــر علـى جـيــوش الخليـفة الفاطـمى واستعـاد مكانته فـى مصـر وانتـهى الأمر بقـتله سنة ٥٣٤هـ (١١٣٩م) ولـم يتحـقق أمله فى شـن نوبة جديدة من الجهاد ضد الصليبيين وإحراز النصر عليهم فى بلاد الشام.

وكان الصـليـبيـون قد دعمـوا أنفسـهم فى البلاد التى اسـتولوا عليـهـا واسـتـقـبلوا أعـداداً كـثـيـرة مـن الجـنود القـادمين من أوربا وراحوا يعبـثون، فساداً فى بلاد الشـام وأطـراف العراق بل لـم يهدأ لهم روع حـتى اسـتــولوا علـى مــدينة عـســقـلان سـنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) وهـى المدينة التى اتخـذها الفـاطمـيـون نقطة انطلاق فى كل مـحاولاتهم ضـد المملكة الصـليـبيـة فى بيت المقـدس، ومركـزاً للتـجـمع فى كل مـحـاولة فـاطمـية ضـد الصـليـبـيين فى فلسـطين والتى ظلت تمثل شـوكة فى جنب المملـكة حتى اسـتولت عليـهـا الجيوش الصليبية ووضـعت حداً لهذه المحاولات الباهتة. ومن ثم صفت الأمور للصليـبيين فى فلسطين ومكنهم استقرارهـم فـيها واسـتيـلاؤهـم على عسقـلان من تهـديد مصـر ذاتهـا. وسـاعـدتهم الظروف الداخليـة فـى مصـر عـلى التطلع إلى الاسـتـيـلاء عليـهـا، وذلك حين نـشب الصـــراع بين شـاور وضــرغــام على مـنصب

الوزارة منذ سنة ٥٥٨هـ (١١٥٣م) واستعانة ضرغام بهم ضد غريمه شاور الذى استعان بنور الدين محمود بن زنكى صاحب دمشق، وتدخلت الجيوش الأجنبية فى مصر أكثر من مرة وانتهى الصراع بين القوى الأخرى إلى سيطرة قوات نور الدين محمود بن زنكى على البلاد، وقيام صلاح الدين الأيوبى بتصفية الدولة الفاطمية والقضاء على مذهبها فى مصر وإعادة البلاد إلى المذهب السنى بل ووضع أسس دولة جديدة فى تاريخ البلاد هى الدولة الأيوبية.

سياسة الفاطميين الخارجية

كان من أهم أهداف السياسة الخارجية للدولة الفاطمية هو محاولة الفوز بزعامة العالم الإسلامي وسلب هذه الزعامة من الخلافة العباسية السنية بل وتقويض دعائم تلك الخلافة إذا أمكن والانتقام منها لما حدث للعلويين من اضطهاد على يديها من قبل والحقيقة أن الخلافة الفاطمية حاولت أن تقيم نشاطها في السياسة الخارجية على أسس واسعة ومقياس عريض يتناسب وضخامة الأهداف التى سعت لتحقيقها • فرنت ببصرها إلى بلاد الحجاز والبحرين واليمن وبلاد الشام بل وإلى العراق نفسه مقر الخلافة العباسية راعية المذهب السنى وفي الناحية الغربية التفتت إلى الخلافة الأموية في الأندلس وإلى المغرب وإلى جزيرة صقلية وكذلك القوى الأوربية المسيحية في الغرب ، وهكذا كان المسرح عريضا فلابد أن يكون الأساس الذى تقوم عليه السياسة الخارجية واسعا يتناسب وهذا البرنامج الضخم •

الفاطميون وبلاد الحجاز :

طمع الفاطميون منذ البداية حتى قبل انتقالهم إلى مصر فى فرض نفوذهم على بلاد الحجاز بالذات ليظهروا أمام العالم الإسلامى أنهم حماة الحرمين والأراضى المقدسة الإسلامية ويكسبوا من وراء ذلك دعاية ضخمة باعتبارهم القوة الأولى في



بخروج بعض الأمراء عـن طاعـة الفـاطميين نظـرا لعجـز الدولـة الفاطمية عن إرضاء كل الأطراف المتنازعة وجمعها علـى فكـرة الولاء لها ولسياستها فضلا عن انشغال الخلافة الفاطمية بمشـاكلها الداخلية والخارجية واستمرار تعلـق بصـر العباسـيين بـهذه البـلاد وعملهم على تصفيه النفوذ الفاطمى فيها مستغلين مـا كـان يثـور بيم الحين والحين من مشاكل بين أمراء الحجاز وعلى هذا يمكن القول بأن النفوذ الفاطمى في بلاد الحجاز لم يكن مستقرا استقرارا دائما وإنما تعرض في كثير من المرات لهزات عنيفة بـل خرجـت هذه البلاد مرات عن طاعة الفاطميين كما حدث عقب وفاة الخليفـة المعز سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٦ م) وبداية حكم العزيز ٠ الذى لم يتوان عن محاولة استرجاع نفوذ الفاطميين في بلاد الحجاز فأرسل بعـد ذلـك بعـامين أحـد خواصـه مـن المغاربـة هو بـاديس بـن زيـرى الصنهاجى أميراً على الحـج وزوده بتعليمـات تـهدف إلـى محاولـة استرداد هذه البـلاد وإعـادة الخطبـة للفـاطميين فيـها فنجـح هـذا الرجل في إحياء النفـوذ الفـاطمى فـي الحجـاز مـرة ثانيـة وأقيمـت الخطبـة للعزيـز علـى منـابر مكـة والمدينـة وعلـى الرغـم مـن أن الحجاز قد عادت إلى طرح طاعة العزيز بعد ذلك وإقامة الدعوة للخليفة العباسى إلا أن العزيز لم ييأس و أرسل حملة سـنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠م) استطاعت إعادة النفوذ الفاطمى في الحجاز وأقـامت

الخطبة من جديد في مكة والمدينة للخليفة الفاطمى وحذفت الخطبة لعضد الدولة بن بويه سلطان بغداد الحقيقى ، وهكذا ظل الحجاز يتأرجح في الولاء للعباسيين تارة والفاطميين تارة أخرى تشده إلى ذلك عوامل كثيرة وتتحكم فيه نزعات مختلفة تجعله يميل إلى هذا الجانب مرة وينعطف إلى ذاك مرة أخرى ٠

ويبدو أن الضعف الذى ران على الخلافتين المتنافستين في القرن الخامس الهجرى قد أغرى أمراء الحجاز أنفسهم بمحاولة طرح طاعتهما جميعا والاستقلال استقلالا كاملا، حتى أن أمير مكة أبو الفتوح الحسن بن جعفر طرح طاعة الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) ودعا لنفسه واتخذ لقب الخلافة وتلقب بالراشد بالله وبدا أن النفوذ الفاطمى قد تعرض لمحنة جديدة في هذه البلاد ألا أن الخليفة الحاكم عاد فاسترد هيبته ونفوذه في بلاد الحجاز وان كان قد بذل في سبيل ذلك الأموال الطائله والعطايا الوافرة وعلى عهد الخليفة المستنصر بالله تذبذب النفوذ الفاطمى في الحجاز أيضا على أثر قيام رأس الأسرة الهاشمية محمد بن جعفر بالاستيلاء على مكة سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٦ م) مع استمراره في إقامة الخطبة للخليفة المستنصر حتى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) حين حذف الخطبة للمستنصر وأقامها للخليفة العباسى غير أن المستنصر بادر بقطع مساعدته

للحجاز وحجز الغلال والمؤن عنها فاضطر أمير مكة للرضوخ وإعادة الخطبة للمستنصر على أن الخليفة القائم بأمر الله العباسى بذل الأموال لأمير مكة فأقام له الخطبة خلال موسم الحج فقط سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠م) وبعث يعتذر للمستنصر وتبع ذلك إرسال السلطان السلجوقى ألب أرسلان الأموال إلى محمد بن جعفر سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) فبادر هذا بالدعوة لسلطان السلاجقة وحذف الدعوة للفاطميين • وهكذا تذبذب النفوذ الفاطمى في بلاد الحجاز ولم يستقر استقرارا دائما لاسيما في العصر الفاطمى الثانى حيث عانى من الانكماش وحلول النفوذ العباسى محلة أو نفوذ القائمين على السلطة في بغداد من السلاجقة أو غيرهم وهو أمر كان طبيعيا نظرا لموقع هذه البلاد من مقر الخلافتين المتنافستين وظروف بلاد الحجاز نفسها الفقيرة القاحلة التى تحتاج إلى الاعتماد على إحدى القوتين لضمان جانب من مواردها وبقدر ما دفع بنو العباسى أو الفواطم بقدر ما امتد نفوذهم في تلك البلاد حتى كانت نهاية الدولة الفاطمية وقيام صلاح الدين الأيوبي الذى أقيمت له الدعوة بالحرمين الشريفين وامتد نفوذه إلى الحجاز ودخل الأمراء في طاعته لاسيما وقد دانت له مصر وبلاد الشام واليمن وأطراف العراق وغدا القوة الفتية العظمى فى ذلك الوقت •

علاقة الفاطميين بالقرامطة :

ينتسب القرامطة إلى داعيهم حمدان بن أشعث الملقب بقرمط، وقد اتخذوا من الدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة لتحقيق مطامعهم السياسية وقد نجح القرامطة بقيادة أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى في اقتطاع إقليم البحرين منذ أواخر القرن الثالث الهجري بعد أن أنزلوا الهزيمة بجيوش الخليفة المعتصم بالله العباسى التى أرسلت ضدهم وأتخذ أبو سعيد الجنابى مدينة الإحساء عاصمة لدولة القرامطة الجديدة التى أسسها سنة ٢٨٦ هـ وغدا لدولة القرامطة شأن كبير في جزيرة العرب ونجحت في بسط نفوذها على كثير من أرجائها فامتد نفوذها على هجر والإحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين والطائف ولما اغتيل أبو سعيد سنة ٣٠٢ هـ خلفه ابنه ثم تقلد أبو طاهر سليمان زمام السلطة في دولة القرامطة ٠

ولقد نشأت علاقة ودية بين القرامطة والفاطميين قبل انتقال هؤلاء إلى مصر ربما ساهم في قيامها ما كان يربط الطرفين من اعتناق المذهب الواحد من ناحية وعدائهم للعباسيين من ناحية أخرى ، فحينما اعتلى أبو طاهر سليمان عرش دولة القرامطة أرسل الخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى إليه كتابا يقر توليه أمرة القرامطة الأمر الذى يثبت ولاء القرامطة حينئذ للخلافة الفاطمية

ببلاد المغرب ٠ وحينما همت الخلافة الفاطمية بفتح مصر بقيادة أبو القاسم بن المهدى أرسل هذا كتابا أخر إلى أبى طاهر سليمان يطلب منه الزحف على مصر لمعاونة الفاطميين في مشروعهم الكبير لفتحها ، غير أن هذا التخطيط لم يتم نظرا لنجاح مؤنس الخادم في إلحاق الهزيمة بجيش الفاطميين قبل أن ينجده القرامطة ومن ثم فشلت الخطة المشتركة لفتح مصر .

غير أن أبا طاهر ما لبث أن قام بعملية . جريئة أثارت حنق العالم الإسلامي وأوقعت الاضطراب فيه حين أغار على مكة في ذى الحجة سنة٣١٧ هـ (يناير سنة ٩٣٠ م) ونهب هو وأصحابه الحجاج وقتلوهم في المسجد الحرام وقلع باب البيت وقبة زمزم والحجر الأسود ونزع كسوة الكعبة ففرقها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة ، وأقام الخطبة في مكة لعبيد الله المهدى بدلا من الخليفة العباسى المقتدر ثم عاد إلى الإحساء حاملا الحجر الأسود . وقد شاع حينئذ أن هذا العمل إنما كان بتحريض من عبيد الله المهدى لاسيما وقد حرص القرامطة على إقامة الخطبة بمكة له ، لكن الخليفة الفاطمى بادر بتبرئة نفسه من هذه الفعلة وأرسل كتابا إلى إبى طاهر يلعنه ويعنفه على فعلته ويبرئ نفسه منها . وليس من شك في أن القرامطة حاولوا تمهيد السبيل لحلفائهم الفاطميين في بلاد الحجاز وذلك بإظهار عجز الخلفاء العباسيين عن حماية

الحجاج وتأمين سلامتهم إلى الأراضى المقدسة بدليل قيام القرامطة بقيادة أبى طاهر بعد ذلك بعدة سنوات (٣٢٣ هـ) بمهاجمة الحجاج من جديد وفرض إتاوه عليهم مقابل تأمين سلامتهم .

وهكذا حرص القرامطة طوال النصف الأول من القرن الرابع الهجري على الولاء للفواطم والاحتفاظ بعلاقات الود معهم، وكان لهذه السياسة أثرها في نشر المذهب الإسماعيلي وصعود نجم العلويين في القرن الرابع الهجري وأفول نجم العباسيين ، فبسط الفاطميون سلطانهم على مصر وبلاد الشام وكثير من بقاع الجزيرة العربية وهى التى كانت تدين بالطاعة للعباسيين. غير أن هذه العلاقة ما لبثت أن تعرضت للذبول بعد منتصف القرن الرابع لاسيما على عهد الحسن ابن أحمد القرمطى الذى أتبع سياسة غير ودية مع الفاطميين ، وسالم الخليفة العباسى في بغداد وتسلم المال والسلاح منة ليحارب الفاطميين ويزعزع نفوذهم في بلاد الشام وقد طالب الحسن بن أحمد من الفاطميين دفع الإتاوة بعد استلائهم على دمشق بقيادة جعفر بن فلاح وهى الإتاوة التى كان يؤديها الإخشيديون ، إلا أن الفاطميين رفضوا دفعها فتذرع الحسن بن أحمد بهذه الذريعة وبدأ يناصب الفاطميين العداء ويحاول تقويض دعائم دولتهم في بلاد الشام بل وغزو مصر أن أمكن . ويبدو أن

الفاطميين لم يكونوا في هذا الدور حريصين على استمرار علاقة الود مع القرامطة نظرا لما أظهره هؤلاء من الجشع من ناحية ولما أتوه من أعمال فجرت الثورة عليهم في أنحاء العالم الإسلامى .
وساهم في إذكاء الصراع بين الفاطميين وقرامطة البحرين ما حدث من تدخل المعز لدين الله الفاطمى في النزاع الداخلى بين أمراء القرامطة وانحيازه إلى الجانب المعارض للحسن بن أحمد وعندئذ رد الحسن بن أحمد بقطع الخطبة الفاطمية في بلاده وإحلال الخطبة للعباسيين محلها ولبس السواد شعار العباسيين ، ثم أردف هذا بالزحف إلى دمشق سنة ٣٦٠ هـ ، واشتبك مع الفاطميين في عدة معارك انتهت باستلائه على دمشق ، ثم بدأ بزحف على مصر حيث أخذ يهدد مدينة القاهرة الناشئة ، وكان جوهر الصقلى قد حصنها بخندق عظيم ورتب أمر الدفاع عنها ، فلما دارت رحى الحرب أبدى الجنود المصريون الذين انضموا إلى جيش جوهر شجاعة منقطعة النظير الأمر الذى ترتب علية صد القرامطة وإجبارهم على الانسحاب حيث رحل الحسن بن أحمد إلى الإحساء سنة ٣٦١هـ (٩٧٢ م) .

غير أن الحسن بن أحمد عاد لغزو مصر سنة ٣٦٣هـ على أثر تلقيه خطابا من المعز لدين الله يعنفه فيه ويذكره بعدم أحقيتة في الولاية على القرامطة ، وأوغلت جيوشه في الأرض المصرية

من جديد متجهة نحو القاهرة لكنه عجز في هـذه المـرة أيضـا عـن الاستيلاء عليها واضطر إلى التقهقر إلـى بـلاد البحريـن ، فزحـف الفاطميون إلى بلاد الشـام ونجحـوا فـي اسـترداد مـا فقـدوه منـها .
وحيـن استعان أفتكيـن الـتركى سـنة٣٦٥ بـالحسـن بـن أحمـد ضـد الفاطميين في بلاد الشام خرج الخليفة العزيز بالله من مصـر علـى رأس حملة كبيرة أوقعت الهزيمة بقوات أفتكين والقرامطة وأجلـت القرامطة عن بلاد الشام وثبتت أقدام الفاطميين في تلك البـلاد ، ثـم أدى ضعف القرامطة منذ أواخر القرن الرابع الهجري إلى تقلـص نفوذهم وكف عاديتهم عن الجهات المحيطة ثـم أدى التنـافس بينـهم إلى زوال دولتهم من البحرين نهائيا قرب أواخر ذلك القـرن حيـث تفرق أمرهم وتلاشت دعوتهم على حد تعبير ابن خلدون وتخلصت الخلافة الفاطمية من خطر هدد وجودهـا فـي بـلاد الشـام بـل وفـي مصر ذاتها .

الفاطميون وبلاد اليمن :

تنبه إمام الإسماعيلية محمد الحبيب المقيم بمدينة سلمية ببـلاد الشام إلى أهمية بلاد اليمن منذ البداية وتطرف موقعها وصلاحيتها لانتشار الدعوة الإسماعيلية ، ولهذا بادر بإرسال اثنيـن مـن الدعـاة إليها هما على بن الفضل اليمانى وأبو قاسم رستم ابن الحسـين بـن فرج بن حوشب الكوفي ، فوصلا إلى اليمن سنة ٢٦٨هـ (٨٨١ م)

وأخذافي بث الدعوة الإسماعيلية فيها . ولقد لقيت الدعوة قبولا بين أهل اليمن وانتشرت انتشارا واسعا ساعد على ذلك بعدها عن مركز الخلافة العباسية من ناحية وضعف الدولة الزيادية القائمة بالحكم فيها والموالية للعباسيين من ناحية أخرى . وفي نفس الوقت اتجه أبو عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب لبث الدعوة هناك وانتهت حركتة بقيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب . والواقع أن أسبقية انتشار الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن قد اعطى دعاتها مكانة خاصة وجعلهم يأملون في أن يكون ظهور عبيد الله المهدى من بلادهم ، ولهذا حاولوا اجتذابه إلى اليمن ، إلا أنه مال إلى إقامة دولته بالمغرب لاسيما وأن عمل أبى عبدالله الشيعى انتهى سريعا بتمهيد السبيل له في تلك البلاد .

على أن بزوغ الدولة الفاطمية من المغرب لم يكن له من أثر في نفوس دعاة الإسماعيلية في اليمن اللهم إلا الترحيب والقبول ، بل أخذ رجال اليمن يتجهون بقلوبهم إلى عبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى بوصفه الإمام والزعيم الكبير ، وإذا كان بعض دعاة اليمن قد استغلوا فرصة الهدوء وانشغال الفاطميين بمشاكل دولتهم وجنحوا نحو الاستقلال وبسط سلطانهم على البلاد كما فعل أحدهم وهو على بن الفضل ، إلا أن هذا المثل كان فريدا وكان نموذجا شاذا لا يعبر عن حقيقة العلاقات بين دعاة الإسماعيلية في اليمن

والخلافة الفاطمية في شمال افريقية والدليل على ذلك أن هذا الرجل سرعان ما أفل نجمه وتكاثر عليه الخصوم حيث وضعوا حدا لمشروعاته في تلك البلاد .. ويبدو أن هذا الولاء للخلافة الفاطمية والدعوة الإسماعيلية كان ثمار فترة طويلة من الدعاية الإسماعيلية في بلاد اليمن الأمر الذى جعل دعاة الإسماعيلية هناك يحرصون حرصا تاما على استمرار العلاقات الطيبة بينهم وبين الدولة الأم .

ولقد ازدادت العلاقات توطدا بين الخلافة الفاطمية ودعاة الإسماعيلية ببلاد اليمن لاسيما بعد انتقال الفاطميين إلى مصر ونقل خلافتهم إلى القاهرة ، فقد حفظت لنا المراجع المعاصرة نصوص خطابات متبادلة بين زعيم الإسماعيلية باليمن ابن جفتم من جهة وبين الخليفة المعز والعزيز الفاطميين من جهة أخرى ، الأمر الذى يؤكد بقاء الرابطة قوية بين الجانبين على أنه يبدو أن الخلفاء الفاطميين لم يكونوا قانعين بمجرد بث الدعوة الإسماعيلية واستمالة الناس إلى المذهب الإسماعيلي ، بل تطلعوا إلى بسط نفوذهم السياسى في تلك البلاد و القضاء على النفوذ العباسى فيها ، يشهد بذلك نشاطهم بعد انتقالهم إلى مصر ومحاولتهم المستمرة مع الحكام لاسيما بنى يعفر الذين ما لبثوا أن قطعوا الخطبة للخليفة العباسى وأحلوا محلها الخطبة للخليفة الفاطمى في أواخر القرن

الرابع الهجري . وعلى عهد الخليفة المستنصر نجح أحد دعاة الإسماعيلية وهو على بن محمد الصليحى – بفضل تأييد ومعونة المستنصر من أن يبسط سيطرته على معظم أرجاء اليمن حوالى منتصف القرن الخامس الهجري (الحادى عشر الميلادى) وكان هذا الرجل يقوم بحكم اليمن باعتباره نائبا عن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وكان يدعو للمستنصر وللصليحى معا في الخطبة، مما يؤكد نجاح السياسة الفاطمية في بسط نفوذها في بلاد اليمن وطرد النفوذ العباسى منها ويؤكد هذا النجاح استمرار العلاقة بين الطرفين قوية حتى بعد مقتل الصليحى سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧م) اذ واصل ابنه المكرم سياسة والده مع الخليفة المستنصر وحرص على كسب تأييده لاسيما ضد خصومه من بنى الأحول، . وبعد وفاة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) سار ابنه المستعلى على نفس السياسة تجاه اليمن واستمرت الخطبة تقام له هناك وعلاقات الود تربط بين الجانبين .

وكان من الطبيعى أن تتعرض العلاقات بين الجانبين للذبول بعد أن ضعفت الخلافة الفاطمية في دورها الثانى وهيمن على أقدارها الوزراء ونزلت بها المحن ، في الوقت الذى بدأت الانقسامات بين الإسماعيلية باليمن في القرن السادس الهجري ، فساهمت كل هذه العوامل في ضعف الروابط وانحلالها ، ولما

سقطت الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) علـى يـد صـلاح الدين الأيوبى بزغت صفحة جديدة في تاريخ العلاقات بيـن مصـر وبلاد الشام .

سياسية الفاطميين تجاه بلاد الشام :

لم يكد جوهر الصقلى يفتح مصر ويستقر بها حتـى فكـر فـي تأمين وجود الفـاطميين فيـها بفتـح الشـام ، اذ أن القطريـن يمثـلان وحدة واحدة متكاملة كما أن بلاد الشام تعتبر الباب الشرقى لمصـر والمسرح الذى قدر الفـاطميون اشـتداد التنـافس فوقـه مـع الخلافـة العباسـية للحصـول علـى زعامـة العـالم الإسـلامى ، وكـانت بقايـا الدولة الإخشيدية لاتزال تحكم أجزاء من بـلاد الشـام وتلـتزم بدفـع إتاوة للحسن ابن أحمد القرمطى ، حتى نجح جعفـر فـلاح الكتـامى في دخول دمشق سنة ٣٥٩ هـ فأمر بقطع تلك الإتاوه - كما سبقت الإشـارة - فعجـل هـذا العمـل بـاندلاع الصـراع بيـن القرامطـة والفاطميين وهو الصراع الذى عرضنا له من قبل .

ويهمنا من أمر هذا الصراع الآن أن حملة الحسـن بـن أحمـد القرمطى على مصر سنة ٣٦٣ هـ كـانت تضـم قبيلـة بنـى طـى ، تحت زعامة حسان بن الجراح ، وأن المعـز لديـن الفـاطمى تمكـن من استمالة حسان بن الجراح قبل الاشتباك مع القرامطة بـأن بـذل له الأموال الوفيرة فلما انصرف بنو طـىء عـن حليفـهم القرمطـى

حلت الهزيمة بهذا الأخير واضطر إلى التقهقر بجيوشه إلى دمشق التى كان قد أستولى عليها ومنها رحل إلى الإحساء وشرع الفاطميون بعدئذ على استعادة ما فقدوه في بلاد الشام .

ولم يكد الفاطميون يفيقون من هذه الأحداث حتى برز مغامر آخر هدد نفوذهم هناك من جديد وأعنى به أفتكين التركى الذى كان قائدا لجماعة الأتراك في بغداد والذى خرج إلى دمشق فاستولى عليها سنة ٣٦٤ هـ ودعا فيها للخليفة الطائع العباسى وحذف الخطبة للخليفة الفاطمى ، وساعده على تأكيد نفوذه حينئذ ما حدث من وفاة الخليفة - الفاطمى المعز في السنة التالية وقيام ابنه العزيز في الخلافة - إلا أن هذا ما لبث أن أثبت أنه لايقل عن والده حماسة لاسترداد بلاد الشام ، فبدأ بإرسال جيش يقوده جوهر الصقلى إلى دمشق حيث فرض الحصار على أفتكين وشدد الحصار عليه الأمر الذى دفع أفتكين إلى الاستنجاد بالحسن بن أحمد القرمطى ، وعندئذ خشى جوهر أن يتعرض لهجوم أفتكين من الداخل وجيش القرامطة من الخارج فآثر الانسحاب إلى الرملة . ولما انضمت قوات الحلفاء معا نجحت في إحراز بعض الانتصارات على القوات الفاطمية في بلاد الشام ، مما دفع الخليفة العزيز إلى الخروج بنفسه على رأس حملة كبيرة استطاع بها أن ينزل الهزيمة الساحقة بقوات أفتكين والقرامطة جميعا بالرملة فى المحرم سنة

٣٦٧ هـ حيث قضى على نفوذ القرامطة بهذه البلاد وإجبارهم على الجلاء عنها وتمهيد السبيل أمام استقرار الحكم الفاطمى فيها .

غير أن قبيلة بنى طىء ظلت تمثل إحدى المشكلات بالنسبة لاستقرار الأوضاع في بلاد الشام ، اذ حاول بنو طىء بفلسطين تكوين إمارة مستقلة لهم عن الخلافة الفاطمية وثار زعيمهم مفرج بن دغفل بن الجراح بالرملة سنة ٣٨٨ هـ ، وفي مطلع القرن الخامس الهجري ٤٠١ هـ (١٠١٠ م) اتفق بنو الجراح على مبايعة الحسن بن جعفر أمير مكة بالخلافة وعمدوا لاستدعائه لمبايعته، وحينئذ عمد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله إلى استمالة حسان ومفرج وغيرهما من زعماء بنى طىء بالأموال والهدايا فتخلى بنو طىء عن أمير مكة الذى اضطر في النهاية إلى العودة إلى مكة حيث عاد من جديد إلى طاعة الفاطميين ، وعلى عهد الظاهر الفاطمى حاول حسان بن مفرج بن جراح من جديد استرداد سلطته بالرملة والاستقلال بفلسطين واتفق مع اثنين من زعماء القبائل الأخرى سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٥م) هما صالح بن مرداس أمير بنى كلاب ، وسنان بن عليان أمير بنى كلب ، لتوحيد جهودهم وطرد الفاطميين من بلاد الشام واقتسامها فيما بينهم على أن تكون المنطقة من حلب إلى عانة على نهر الفرات لصالح بن مرداس ومن الرملة إلى حدود مصر لحسان أمير الطائيين ، ودمشق وما

حولها لسنان بن عليان وعشيرته ، غير أن الخليفة الظاهر جهز جيشا سنة ٤٢٠هـ(١٠٣٠م) وتمكن بفضله من إنزال الهزيمة بقوات الحلف العربى عند طبرية ، ونجح بذلك في استرداد الأقاليم الجنوبية والوسطى من سورية .

أما بالنسبة لشمال الشام ، فقد لقى الفاطميون صعوبات جمة هناك تمثلت في الإمارة الحمدانية فى حلب التى رفضت الإذعان للفاطميين ، حين حاولوا الاستيلاء عليها في خلافة العزيز سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م) حيث استنجد أميرها سعيد الدولة أو الفضائل الحمدانى بالإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى الذى لم يتوان فى نجدته وعندئذ تراجعت جيوش الخلافة الفاطمية عن حلب وعادت إلى دمشق . وإذا كانت الخطبة قد أقيمت للحاكم بأمر الله الفاطمى بحلب بعد عهد سعيد الدولة الحمدانى سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٢م) ، فإن مرجع ذلك إلى أن مغتصب الحكم في الإمارة وهو لؤلؤ السيفي مولى الأمير الحمدانى رأى ضعف مركزه بحلب فحاول تجنب الدخول فى أى صراع مع الفاطميين ، فبادر بحذف الخطبة للخليفة العباسى وإقامتها للحاكم ، غير أن ابنه منصور بن لؤلؤ الذى صارت إليه الأمور بعد وفاة لؤلؤ سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) عجز عن الاحتفاظ بسلطانه في حلب نظرا لطيشه وعسفه ونقضه العهد ولاسيما مع أمير بنى كلاب صالح بن مرداس ، فلما تكاثر

خصومة وضعف موقفه آثر الهرب إلى إنطاكية مستجيرا بحماية البيزنطيين وعندئذ دخل نواب الحاكم بأمر الله الفاطمى حلب واستولوا عليها ، غير أن ذلك لم يرض أمير بنى كلاب صالح بن مرداس الذى ما لبث أن هاجم حلب واستولى عليها سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤م) ووضع بداية إمارة لبنى كلاب في شمال الشام ظلت قائمة أكثر من نصف قرن من الزمان وحتى سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩م) ، على الرغم من محاولات الفاطميين المتقطعة لاسترداد حلب منهم وقطع تسلسل حكم بنى مرداس فيها ، حتى أنه يمكن القول أن النفوذ الفاطمى في شمال الشام لم يكن ثابتا حتى أواخر القرن الخامس الهجري عندما بدأت قوة جديدة تفرض نفسها على مسرح الأحداث وأعنى بها قوة الأتراك السلاجقة .

أخذ السلاجقة بعد أن أحلوا أنفسهم محل بنى بويه في الهيمنة على أقدار الخلافة العباسية في بغداد منذ منتصف القرن الخامس الهجري ، يعملون على استعادة ما فقدته الخلافة العباسية من البلاد ومحاولة التصدى للخلافة الفاطمية خاصة في بلاد الشام ، ولا يخفي علينا أن السلاجقة وجدوا أنفسهم في صراع مع تلك الخلافة لأنهم كانوا سنيين متعصبين من ناحية ثم أنهم غدوا حماة العباسيين من ناحية أخرى ، ولهذا بادر السلطان السلجوقى ألب أرسلان في سنة ٤٦٢ هـ(١٠٦٩م) بإرسال كتاب إلى محمود بن صالح بن

مرداس أمير حلب يطلب منة إحلال الدعوة للخليفة العباسي محل الدعوة للخليفة الفاطمى ، فلم ير محمود المرداسى بدا من الإذعان لاسيما وقد زحف ألب أرسلان تجاه حلب وأنذر بالاستيلاء عليها لولا ما بلغه من خروج الروم لحربه فتحول اليهم حيث أنزل بهم الهزيمة في مانزكرت الشهيرة سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧١م) وعلى عهد السلطان ملكشاه قام أحد مغامرى التركمان ويدعى أتسز بن أوق سنة ٤٦٥ هـ(١٠٧٢م) بغزو الشام فاستولى على الرملة وبيت المقدس ، ثم هاجم دمشق ونجح في النهاية في الاستيلاء عليها سنة ٤٦٧ – ٤٦٨ هـ (١٠٧٤م) بعد حصار طويل، وأقام الخطبة فيها للخليفة – المقتدى بأمر الله العباسي وحذف اسم المستنصر الفاطمى من الخطبة ، ويبدو أن أتسز خشى أن يعاود الفاطميون مهاجمته في دمشق فأعد جيشا لغزو مصر نفسها وذلك سنة ٤٦٩هـ (١٠٧٦م) ، غير أن بدر الجمالى استطاع أن يتصدى له ويلحق به الهزيمة ويجبره على الانسحاب إلى غزة ثم إلى الرملة في حالة سيئة ومن ثم قفل أتسز راجعا إلى دمشق دون أن يحقق هدفه . على أن بدر الجمالى ما لبث أن أرسل جيشا لمطاردة أتسز الذى سارع بالاستنجاد بتاج الدولة تتش بن ألب أرسلان وأخي ملكشاه ، وكان حينئذ يحاصر حلب ، وبمجرد تقدم جيش تتش لنجدة دمشق تراجع الفاطميون عنها وانسحبوا إلى مصر . لكن

أتسز وقع في يد تتش الذى قبض عليه وقتله واستخلص دمشق لنفسه سنة ٤٧١هـ (١٠٧٨م)، وإذا كان بدر الجمالى لايزال يعمل على طرد السلاجقة من بلاد الشام فإنه لم ينجح إلا في استعادة بعض المدن الساحلية سنة ٤٨٢هـ (١٠٨٩م) بمعاونة الأسطول الفاطمى الذى كان يرتاد هذه السواحل ويعمل على ربطها بمصر . غير أن الفاطميين لم يتمكنوا من الاحتفاظ طويلا بسيطرتهم على هذه المدن لأن السلطان ملكشاة لم يلبث أن أمر نوابه بحلب والرها بالمسير مع أخيه تتش سنة ٤٨٥ للاستيلاء على ما بيد الفاطميين من بلاد ومدن ساحلية فنجح تاج الدولة تتش في ضم حمص وعرقة وأفامية وغيرها من المواضع دون أن يتمكن الفاطميون من صدة بسبب ما كانت تمر به الخلافة الفاطمية من ضعف واضمحلال في أواخر عهد المستنصر .

وفي نفس العام ٤٨٥ (١٠٩٢م) توفي ملكشاه وطمع تتش في اعتلاء السلطة في فارس فدخل في صراع مع بن أخيه بركياروق انتهى بقتل تتش في الرى سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م)، حيث أقتسم ولداه رضوان ودقاق أملاكه ببلاد الشام فنال رضوان حلب وحظى دقاق بدمشق وما لبثت الحرب أن اندلعت بين الأخوين في بلاد الشام وامتدت الفتن والانقسامات بين القوى الإسلامية في بلاد الشام سواء بين الأتراك أنفسهم أو بينهم وبين

الفاطميين الأمر الذى ترتب عليه ضعف الجبهة الإسلامية في مواجهة الغزو الصليبى ، الذى ما لبث أن زحف إلى بلاد الشام وفل قوة السلاجقة بشمال الشام وقضى على نفوذ الفاطميين في الجنوب و أقام المملكة الصليبية في بيت المقدس و الإمارات الأخرى في الرها و أنطاكية وطرابلس وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ هذه المنطقة .

الفاطميون والخلافة العباسية في العراق :

في الوقت الذى استقرت فيه دعائم الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب (النصف الأول من القرن الرابع الهجري) سيطر بنو بويه على أقدار الخلافة العباسية في العراق ، وعلى الرغم من أن هؤلاء البويهيين كانوا من الشيعة وأقرب إلى الخلافة الفاطمية منهم إلى العباسيين ، إلا أنهم قدروا أن بقاء نفوذهم ووصايتهم على الخلافة العباسية واتساع سلطانهم إنما هو رهن ببقاء الخلافة العباسية ويمكن لهم أن يواصلوا وصايتهم عليها ، ولهذا كانت نظرتهم للخلافة الفاطمية من وجهة النظر السياسية لا المذهبية ويبدو أن مبادرة الخلافة الفاطمية بالانتقال إلى مصر وحرصها على الفوز بزعامة العالم الإسلامى ومد نفوذها على بلاد الشام والحجاز واليمن حتى لم يصبح ثمة فاصل بين الخلافتين الأمر الذى أنذر بصراع مباشر ورهيب بين الجانبين ، يبدو أن ذلك له

ضلع في تخوف بني بويه من الخلافة الفاطمية التي لم تكن لترضى بغير السيادة والطاعة بديلا ، ولن تسمح بمراكز قوى في داخلها ، ولهذا لجأ بنو بويه إلى تحريض قرامطة البحرين على مهاجمة الفاطميين في بلاد الشام ، كما حرضوا الإمارة الحمدانية ضد الفاطميين في شمال الشام ، ولم تجد مع بني بويه محاولات الفاطميين استمالتهم باسم الوحدة المذهبية اذ لم يؤد الاتصال بعضد الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه وإرسال خطاب من الخليفة الفاطمى العزيز سنة ٣٦٩ هـ(٩٧٩م) ، إلى نتيجة حاسمة في هذا الأمر ، لأن البويهيين واصلوا سياستهم في الحفاظ على مكانتهم في بغداد وعدم الإذعان لرغبات الخلافة الفاطمية ، بل إن عضد الدولة سارع بعقد مجلس أعلن فيه عدم صحة نسب العبيديين ، وأنهم لا ينحدرون من سلالة على وفاطمة ، ويقال أن عضد الدولة لم يكتف بهذا بل أخذ يتأهب لغزو مصر نفسها ووضع حد لمشروعات العبيديين فيها .

على أن الفاطميين قاموا منذ نجاح دعوتهم ببلاد المغرب ببث دعاتهم في بلاد العراق وفي بغداد نفسها وأمدوهم بالأموال والتأييد ، وأظهر الخليفة المعز لدين الله رغبة جامحة في الفوز بالعراق وهدم الخلافة العباسية ، وأعلن أكثر من مرة أمله في دخول بغداد .ويبدو أن دعاة الخلافة الفاطمية قد حققوا نجاحا كبيرا

في بلاد العراق ، فأقيمت الدعوة للخليفة العزيز الفاطمى سنة ٣٨٢هـ(٩٩٢م) بالموصل على يد أميرها العقيلى الملقب بمعتمد الدولة، ونجح الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى في استمالة قرواش ابن المقلد العقيلى أمير بنى عقيل الذى آلت إليه السلطة في الموصل فطرح طاعة الخليفة القادر بالله العباسى وقام بنشر الدعوة الفاطمية في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة ، كما دعى للخليفة الحاكم الفاطمى وحذف اسم الخليفة العباسى ، ولم يقف الخليفة القادر العباسى من هذه الدعوة موقفا سلبيا فقد بادر بالكتابة إلى بهاء الدولة يوضح له الخطر الذى يتهدد خلافته من قبل الفاطميين ويلتمس منه العمل على التصدى لحلفاء الفواطم في بلاد العراق ، فاستجاب هذا لرغبة الخلافة وأرسل جيشا إلى ابن المقلد أجبره على وقف الخطبة للحاكم وإعادتها للخليفة القادر العباسى ، وفي نفس الوقت عقد الخليفة القادر مجلسا ليشهر بالفاطميين ويشوه سمعتهم في العالم الإسلامى ، وضم ذلك المجلس الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة ، وكتبوا محضرا طعنوا فيه في النسب الفاطمى وأعلنوا أن الحاكم واسلافه "ادعياء خوارج لانسب لهم في ولد على بن أبى طالب" وإنما هم زنادقة كفرة ملحدون "ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون" . وكتب هذا المحضر سنة ٤٠٢هـ ووقع عليه الحضور من العلماء والقضاة

وأرسلت منه نسخ إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامى . ورد الفاطميون على هذا بزيادة نشاطهم في بلاد العراق وبث دعاتهم فيها فاستجاب لهم الكثيرون هناك ، وفي بلاد فارس حيث بذل داعى الدعاة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازى ، نشاطا جما في نشر الدعوة للمستنصر الفاطمى في بلاد فارس والعراق وحقق نجاحا في ذلك باستمالة أحد ملوك بنى بويه وهو أبو كاليجار البويهى .. فضلا عن انتشار الدعوة الفاطمية بين عدد كبير من جند بنى بويه من الديالمة والأتراك .

وممن تأثروا بالدعوة الفاطمية أبو الحارث أرسلان البساسيرى ، الذى كان من قادة بنى بويه واستطاع أن يمكن لنفسه ببغداد حتى عينه الخليفة العباسى القائم رئيسا للأتراك ، إلا أن العلاقة سرعان ما ساءت بينه وبين الخليفة بسبب السعاية بينهما ولاتهام الخليفة إياه بمكاتبة الفاطميين . لذلك أضطر الخليفة لمراسلة طغرلبك السلجوقى عام ٤٤٦هـ(١٠٥٤م)سرا يحثه على المسير إلى العراق ، وكان طغرلبك سنيا حنيفا متعصبا ، فلم يتوان عن تلبية طلب الخليفة لحمايته من ناحية وبسط نفوذ السلاجقة على العراق من ناحية أخرى ، وعندما تقدم طغرلبك إلى بغداد في العام التالى (٤٤٧هـ) هرب البساسيرى منها إلى الرحبة ومنها كاتب الخليفة المستنصر الفاطمى يطلب المعونة والمال لمواصلة الدعوة

للمستنصر في العراق ، ولم تأل الخلافة الفاطمية جهدا مد البساسيري بالمعونة والمساعدة حتى يقف في وجه الخليفة العباسى فما لبث بفضل هذه المعونة وبفضل مبعوث الخلافة الفاطمية المؤيد في الدين هبة الله الشيرازى داعى الدعاة أن قوى أمره في شمال الشام وشمال العراق ، وانحاز إليهما صاحب حلب ثمال بن صالح بن مرداس وصاحب الموصل قريش بن بدران ودبيس بن مزيد ، فانتهز البساسيرى فرصه خروج طغرلبك من بغداد ودخلها في ذى القعدة سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٨م) " ومعه الرايات المصرية " وفي صحبة قريش بن بدران العقيلى . حيث أقام الخطبة للمستنصر الفاطمى في جامع المنصور ونفي الخليفة العباسى إلى بلدة حديثة عانة ، وأردف هذا بالعمل على إحلال السيادة الفاطمية محل العباسية في أنحاء العراق ، فقام بفتح واسط والبصرة وأقام فيهما الخطبة للمستنصر . واذا كان البساسيرى قد تعرض بعد نحو عام للهجوم من جديد على يد السلاجقة بقيادة طغرلبك واضطر إلى الهرب من بغداد إلى الكوفة حيث طارده السلاجقة وقتلوه هناك ، فإن ذلك لايعنى انتهاء نفوذ الدولة الفاطمية نهائيا في العراق ، حقيقة عاد الخليفة العباسى القائم إلى بغداد ووضع لأول مرة تحت حماية السلاجقة إلا أن الدعوة الفاطمية ظلت تلقى بعض التأييد في تلك البلاد .

غير أن الضعف الذى أمست فيه الخلافة الفاطمية اعتبارا من النصف الثانى للقرن الخامس الهجري ، فضلا عن نشاط السلاجقة في الحد من نفوذها في بلاد الشام ، قد جعل السيادة الفاطمية تنحسر عن أقاليم كثيرة وبلاد عدة ، بل وصل الأمر حد إقامة الخطبة للخليفة العباسى القائم بأمر الله في مصر ذاتها في جميع أنحاء الوجه البحرى ، وذلك بفضل حركة ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبى الذى كان يتولى قيادة الأتراك في جيش الخلافة الفاطمية ، ولكنه خلع طاعة المستنصر عام ١٠٧٠م(٤٦٢هـ) وكاتب السلاجقة لامداده بالنجدة ليقيم الدعوة العباسية بمصر على أن تؤول إليه السيادة على مصر جميعها فرحب بذلك السلطان ألب أرسلان إلا أنه شغل في العام التالى بحرب البيزنطيين . غير أن ناصر الدولة لم ينثن عن عزمه ، فسار إلى مصر حيث أوقع بالجيش الذى أنفذه المستنصر لمحاربته وحذف أسمه من الخطبة عام ١٠٧٢ في الوجه البحرى وسار بجيشه الكبير من العرب والبربر إلى الفسطاط فتولى الحكم فيها ، ثم سار إلى القاهرة وبالغ في إهانة الخليفة الفاطمى ، إلا أن حركته لم يقدر لها النجاح في النهاية اذ سرعان ما ثار به الأتراك ووضعوا حدا لمشروعاته .

وقد قابلت الدعوة الفاطمية منذ أوائل القرن السادس الهجري سواء في مصر أو في غيرها كثيرا من الصعاب الأمر الذى

عرضها للزوال ، وترتب على عدم الاستقرار في مصر وانصراف بعض رجال الحكومة الفاطمية عن الاحتفاظ بالولاء للمذهب الإسماعيلي بل ومحاولة إحياء المذهب السنى أن أتيحت الفرص أمام السلاجقة والعباسيين للقضاء على بقايا النفوذ الفاطمى في بلاد الشرق الأدنى ومن ثم لم يعد كبير أمل لهذه الخلافة للاحتفاظ بقدرتها على المبادرة والاستمرار في مناهضة الخلافة السنية في بغداد .

علاقات الفاطميين بكل من الأندلس والمغرب :

أعلن عبد الرحمن الناصر الأموى نفسه خليفة بالأندلس سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) فغدا بالعالم الإسلامى ثلاث خلافات : الخلافة العباسية في المشرق والخلافة الفاطمية ببلاد المغرب ثم الخلافة الأموية بالأندلس . وقبل أن ينقل الفاطميون خلافتهم إلى مصر وحاضرتهم إلى العاصمة الجديدة التى أسسوها فيها وهى القاهرة ، احتدم التنافس بينهم وبين خلافة بنى أمية بالأندلس ، لا سيما في مجال البحر اذ بنى عبد الرحمن الناصر أسطولا قويا واعتبر الجانب الغربى من البحر المتوسط مجال نفوذه ومنطقة خاصة به، في الوقت الذى لعبت فيه البحرية الفاطمية دورا هاما في البحر المتوسط ومدت نشاطها إلى جزره : صقلية وكورسيكا وسردينيا ، وهددت شواطىء فرنسا و إيطاليا ، ولهذا أرهصت الأحداث

باندلاع الصراع شديدا بين الخلافتين لا سيما وقد اهتم بنو أمية ببلاد المغرب ورغبوا في مد نفوذهم إليها ونجحت جهودهم فعلا في هذا الميدان حيث خلع موسى بن أبى العافية طاعة عبيد الله المهدى الفاطمى في المغربين الأوسط والأقصى ودخل في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموى ودعا له في الخطبة ، مما دفع الخليفة الفاطمى القائم إلى إرسال الجيوش لمحاربته فنجحت في دخول مدينة فاس ووضعت حدا لمشروعات حاكمها المنشق .

اشتد النزاع بعد ذلك بين الخلافتين ولجأت كل منهما إلى محاولة بث دعايتها في الجانب الآخر كما لجأ بنو أمية إلى محاولة عزل الخلافة الفاطمية وتحديد مجال نشاطها بعقد بعض المعاهدات مع أعدائها لمحاولة تطويقها وشل حركتها ، فتقاربت مع الدولة الإخشيدية بمصر لمقاومة المذهب الشيعى وعقدت معاهدة مع الإمبراطورية البيزنطية التى اقتطع الفاطميون منها جزيرة صقلية ، ومعاهدة مع امير بروفانس الذى حنق على الفاطميين لهجومهم على سواحل إمارته وتدميرهم ميناء جنوة وتشطت الخلافة الأموية في التصدى لمحاولات الفاطميين في الأندلس والمغرب ولجهود الخليفة المعز لدين الله في ذلك ، كما أمر عبد الرحمن الناصر بلعن الفاطميين على منابر بلاده وكتب بذلك إلى جميع عماله.

وبعد انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر استمرت العلاقات العدائية بينها وبين خلافة الأمويين بالأندلس . فبعد وفاة عبد الرحمن الناصر الأموى سنة ٣٥٠هـ وقيام أبنه الحكم المستنصر اشتد النزاع بينه وبين الفاطميين على عهد المعز لدين الله أيضا وأرسل الحكم المستنصر حملة سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢م) إلى بلاد المغرب الأقصى والأوسط للقضاء على النفوذ الفاطمى فيها فنجحت هذه الحملة في بسط سلطان الخليفة الأموى على تلك البلاد، وأعلنت قبائل زناتة ومغراوة ومكناسة خروجها عن طاعة الفاطميين وإقامتها الدعوة للحكم المستنصر .وما لبث الخليفة العزيز الفاطمي الذى ولى بعد وفاة المعز سنة ٣٦٥هـ - أن أرسل خطابا إلى الحكم المستنصر يسبه فيه ويهجوه ، فكتب إلية الحكم المستنصر " قد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك " .. وهكذا كانت العلاقات عدائية بين الجانبين على عهد العزيز في مصر والحكم المستنصر في الأندلس .

وتجلى النزاع على أشده بين الخلافتين الفاطمية والأموية حينئذ إبان الثورة التى قام بها أبو ركوة وهو أموي من ذرية هشام ابن عبد الملك بن مروان ، كان قد نزح إلى برقة واستقر بين قبيلة بنى قرة ، وقام بحركة ضد الخلافة الفاطمية دعا فيها إلى عمه هشام المؤيد بالله الخليفة الأموى بالأندلس ووجدت دعوته صدى

وقبولا في نفوس البدو في أنحاء برقة وما حولها ، وأيدته قبيلة بنى قرة لحنقها على الفاطميين ، وما لبث أن أنزل الهزيمة بجيش الحاكم بأمر الله الفاطمى وبسط سيطرته على برقة سنة ٣٩٥هـ(١٠٠٤م) ، وأمر بحذف اسم الحاكم من الخطبة وتلقب بالثائر بالله ، واتخذ من الخطوات ما يؤكد اتجاهه إلى الاستقلال في الحكم كضرب السكة والتقرب إلى الأهالى ، وحين حاول الحاكم بأمر الله الفاطمى مرة أخرى الإيقاع بأبى ركوة تعرض جيشه للهزيمة من جديد حيث أسر قائده ثم قتل ووقع في يد أبى ركوة كثير من الغنائم والأموال ، فاشتد بأسه وطمحت همته إلى غزو مصر نفسها والاستيلاء عليها ، وحين تقدم صوب الإسكندرية أرسل إليه الحاكم جيشا أخر سنة ٣٩٦هـ(١٠٠٥م) على رأسه الفضل بن عبد الله ، حيث دارت معركة هامة قرب الإسكندرية أرتد على أثرها الفضل صوب القاهرة ، فواصل أبو ركوة مسيره حتى وصل إلى صحراء الفيوم حيث تبعه الفضل وأنزل به الهزيمة وطارده نحو حدود النوبة حيث انتهى الأمر بالقبض على أبى ركوة وقتله وإنهاء فتنته التى لم تكن في حقيقتها سوى حلقة من حلقات الصراع مع خلافة الأمويين بالأندلس .

أما بالنسبة لعلاقة الفاطميين بالمغرب ، فالمعروف أن المعز لدين الله الفاطمى عهد ببلاد المغرب عند انتقاله إلى مصر إلى

بلكين بن زرى الصناهجى ، على قاعدة الولاء للخلافة الفاطمية وإقامة الخطبة لخليفتها وإرسال الجزية إليهم كل سنة ، وقد أظهر بلكين هذا الولاء للفاطميين وسار ، خلفاؤه على سياسته فترة . لكن يبدو أن اهتمام الخلافة الفاطمية بأمور المشرق ودأبها على محاولة انتزاع الزعامة من الخلافة العباسية ودخولها في صراع من أجل ذلك قد قلل إلى حد كبير اهتمامها بشئون المغرب ، الأمر الذى جعل ولاة المغرب يشعرون بقدر كبير من الاستقلال ، حتى انتهى الأمر بإعلانهم الاستقلال التام والخروج عن طاعة الخلافة الفاطمية ، وذلك حين أعلن المعز بن باديس طرحه لطاعة الفاطميين ودخوله في طاعة الخليفة القائم بأمر الله العباسى سنة ٤٣٣هـ(١٠٤١م) . وتذكر المراجع أن المعز بن باديس هذا كان منحرفا عن المذهب الشيعى ويعتنق مذهب أهل السنة ولهذا فقد أجبر أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك "وحسم مادة الخلاف في المذاهب" . وأردف هذا بحذف أسم الخليفة المستنصر الفاطمى من الخطبة والسكة وإحلال أسم الخليفة العباسى محله. وحاول الخليفة المستنصر استمالة المعز من جديد وكتب له بعض الرسائل إلا أن ذلك لم يؤد في الحقيقة إلا إلى إمعان المعز في لعن الفاطميين في الخطبة وإزالة أسمائهم من الرايات ومن السكة ، وحيث أن الخلافة الفاطمية لم تكن لتقوى على عمل شيء حاسم

يعيد نفوذها وهيبتها في بلاد المغرب فقد اكتفي الوزير الفاطمى اليازورى بارسال بعض بطون من بنى هلال وبنى سليم الذين كانوا قد استقروا بصعيد مصر ، فألحقوا بالمعز بن باديس الهزيمة سنة ٤٤٣هـ(١٠٥١م) ، ودخلوا مدينة القيروان وخربوها ومنذ ذلك بدأ ملك بنى زيرى في الاضمحلال .. وانقطعت الخيوط الواهية التى كانت تربط بنى زيرى بالفاطميين .. وبعد ذلك ظلت الخطبة للعباسيين تقام في بلاد المغرب حتى قامت دولة الموحدين في أوائل القرن السادس الهجري وقطع أميرها عبد المؤمن بن على الدعوة للخليفة العباسى المقتفي وجد في بسط نفوذه في شمال افريقية كلها .

العلاقات بين الدولة الفاطمية وكل من المدن الإيطالية، وصقلية والإمبراطورية البيزنطية :

المعروف ان الدولة الفاطمية ورثت الأغالبة في شمال إفريقية وفي الحوض الأوسط للبحر المتوسط ، وكان الأغالبة يشكلون قوة بحرية هامة في ذلك الجزء من البحر ، ومن ثم بدأ الفاطميون يكونون أسطولا بحريا استطاع أن يهدد سواحل أوربا الجنوبية ويشكل خطرا على سواحل إيطاليا وجنوب فرنسا بصفة خاصة بالإضافة إلى جزر سردينيا وكورسيكا وغيرها من جزر البحر المتوسط ، لكن أستتبع انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر

انتقال مركز الثقل البحرى إلى الجانب الشرقى من حوض البحر المتوسط ، حيث أخذ الأسطول الفاطمى يرتاد سواحل بلاد الشام ويربط بين موانيها وبين مصر فضلا عن التصدى لنشاط الدولة البيزنطية في ذلك الجزء من العالم وترتب على ذلك أن تنفست المدن الإيطالية الصعداء وأخذت تخطط للنهوض بأحوالها الاقتصادية وعلاقتها مع القوى الأخرى . وتشير الدلائل إلى أن مدينة أمالفي الإيطالية كانت من أولى المدن التى أقامت علاقات ود مع مصر والشام على عهد الخلافة الفاطمية والدليل على ذلك أنه جرت محادثات بينها وبين الخلافة الفاطمية على عهد الخليفة الظاهر وذلك سنة ٤١١هـ(١٠٢٠م) بهدف أخذ موافقة الخليفة على التنازل عن قطعة أرض بالحى المسيحى بمدينة بيت المقدس التابعة للفاطميين لإقامة دير عليها لإيواء الحجاج والتجار من أهل أما لفي ، وقد مثل أما لفي في تلك المحادثات أحد أثرياء المدينة ويدعى ماروس وكان هذا الرجل قد استعان ببعض صناع وفناني الإسكندرية من المهرة لتزيين بعض قصوره هناك بأعمال الفسيفساء .

أما مدينة بيزا فقد أرسلت في سنة (٥٤٩هـ)١١٥٤م سفيرا إلى بلاد الخليفة الظاهر الفاطمى فاستقبله الخليفة أستقبالا رسميا ، وهدفت هذه السفارة إلى تصفية بعض الصعوبات التى نشأت عن

احتكاك بعض التجار من بيزا بالمصريين في إحدى السفن وسلبهم بضائعهم وقتل فريق منـهم ، وكـانت الحكومـة الفاطميـة قد ثـأرت لهذا الحادث من التجار البيازنة المقيمين بمصر وألقت ببعضهم في السجون ونجحت السفارة في تسوية هذه المشكلة بتعهدها بقيام حكومة بيزا بالقصاص من المعتدين وتعهدها أيضا بعدم تقديم أية مساعدة للقوى الصليبية في بلاد الشام وغيرهم من أعداء الفاطميين ، وتعهدت الحكومة الفاطمية من جانبها بإطلاق سراح المسجونين من تجار بيزا وحماية الحجاج والتجار البيازنة المسافرين في سفن غير حربية ، وفي سنة ٥٥٠هـ(١١٥٥م) ، وحين اعتلى الوزارة طلائع بن رزيك حرصت بيزا على إرسال سفارة ثانية إلى مصر لتقديم التهنئة من ناحية والتأكد من استمرار تعهد الفاطميين بحماية التجار والرعايا البيازنة من ناحية أخرى . ويبدو أن بيزا لم يكن يهمها سوى مصالحها التجارية ومدى ما تحصل علية من امتيازات تجارية بدليل أنها أبدت استعدادها لمعاونة الصليبين حين أخذ الملك عموري الصليبي يهدد مصر ويخطط للاستيلاء عليها بعد أن حصلت على وعد منه بامتيازات جديدة في مصر . لكنها تداركت الأمر حين أيقنت عجز عموري عن البقاء في مصر فسارعت بالقيام بالوساطة بين الطرفين فحصلت على امتيازات تجارية من الخليفة العاضد ، غير أنها عادت إلى إيثار مصالحها

الخاصة بمساعدة الصليبين في هجومهم على دمياط . وعلى كل حال فقد وضح مدى حرص هذه المدينة الإيطالية على مصالحها التجارية وعدم احترامها لعهودها في علاقتها مع الخلافة الفاطمية.

ولم تكن مدينة جنوة أقل حرصا من بيزا على علاقتها مع الفاطميين فيذكر أنها بعثت بمندوب عنها إلى مصر سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) حيث نجح في عقد معاهدة تجارية مع الحكومة الفاطمية ، وفي أواخر العصر الفاطمي حصلت جنوة على تعهد من الحكومة الفاطمية بحماية رعاياها أثناءإقامتهم بأراضى الدولة الفاطمية ، فى الوقت الذى تردد فيه كثير من تجارها إلى الإسكندرية لاستيراد الشب والنطرون التى احتكرت الحكومة الفاطمية تجارته.

أما البندقية فقد أظهرت هى الأخرى اهتماما كبيرا بالعلاقات الودية مع الدولة الفاطمية وكان لها بعض الجاليات في مصر ، ودأبت منذ القرن العاشر الميلادى على إمداد البلاد العربية بالخشب اللازم لبناء السفن ، غير أنها عادت وامتنعت عن إمداد مصر بهذا النوع من الأخشاب نظرا لما تعرضت له من تهديد الإمبراطور البيزينطى اذا واصلت مد المصريين بما يحتاجون إليه من الأخشاب لصناعة سفن الأسطول الذى هدد النفوذ البيزنطى في شرقى البحر المتوسط ، ويبدو أن هذه المدن راعت مصالحها

الأخرى وكيفت علاقتها بالقوى المختلفة طبقا لمصالحها التجارية غير أنها حرصت على استمرار وصول بعثتها إلى مصر للحصول على أفضل الامتيازات التجارية ، وصارت سفن هذه المدينة تمخر عباب البحر تنقل المتاجر بين الشرق والغرب غير أنها عادت تضرب عرض الحائط بتحذيرات البيزنطيين والقوى الصليبية وصارت تنقل الأخشاب اللازمة لصناعة السفن إلى مصر وزيادة النشاط التجارى مع الخلافة الفاطمية .

أما عن علاقة الفاطميين بجزيرة صقلية ، فالمعروف أن هذه الجزيرة آلت إلى الفاطميين بعد قضائهم على دولة الأغالبة ، منذ أواخر القرن الثالث الهجري ، إلا أن هذه الجزيرة ما لبثت بعد سنوات قليلة أن طرحت طاعة الفاطميين واختارت في سنة ٣٠٠هـ(٩١٢م) حاكما من أصل عربى هو أحمد بن قرعب ، الذى بادر بقطع الخطبة للخليفة المهدى ودعا للخليفة العباسى ، بل وأرسل سفنه لمهاجمة شواطىء شمال إفريقية ، وعلى الرغم من أن الخليفة عبيد الله المهدى نجح في إنهاء هذه الفتنة إلا أن حكم هذه الجزيرة لم يصف كلية للفاطميين بسبب االنزاع بين أهلها المسلمين بعضهم وبعض من ناحية وبينهم وبين المسيحيين من ناحية أخرى . ويبدو أن الخلافة الفاطمية اتجهت إلى تثبيت حكمها بالقوة في تلك الجزيرة فقام واليها الفاطمى الحسن بن على الكلبى

وكان معينا من قبل الخليفة المنصور الفاطمي في سنة ٣٣٦هـ(٩٧٦م) بالضرب بشدة على أيدى العابثين من أهلها المسيحيين الأمر الذى جعل هؤلاء يستنجدون بالإمبراطور البيزنطى قنسطنطين السابع الذى لم يتوان عن إرسال الحملات بهدف زحزحة المسلمين منها ، لا سيما وقد اتخذها الفاطميون مركزا للتحكم في مواصلات البحر المتوسط وقاعدة بحرية لشن الهجمات على سواحل أوربا الجنوبية ، وسار على هذه السياسة أباطرة بيزنطة بعد قنسطنطين السابع لا سيما نقفور فوقاس وميخائيل الرابع مما جعل هذه الجزيرة مسرحا لعمليات حربية متواصلة تهدف إلى طرد المسلمين منها .

على أن انتقال الفاطميين إلى مصر واتجاههم وجهة شرقية في سياستهم قد قلل اهتمامهم بأمر هذه الجزيرة وفي الوقت الذى ظهر فيه النورمان على مسرح الأحداث الأوربية في العصور الوسطى ، فقاموا بغزو صقلية في أواخر القرن الخامس الهجري ٤٨٤هـ(١٠٩١م) ، وملك روجر النورماني كل الجزيرة وأباح سكنها للروم والفرنج ، وقضى على نفوذ المسلمين السياسي بهذه الجزيرة الهامة .

أما فيما يختص بعلاقات الدولة الفاطمية بالبيزنطيين فقد كان يسودها العداء ، وجرت مصادمات بين الجانبين في صقلية

وجنوب إيطاليا ، وفي البحر الأدرياتى أيضا ، وبعد أن انتقل الفواطم إلى مصر ومدوا نفوذهم إلى بلاد الشام اصطدموا بالبيزنطيين الذين حاولوا بسط سيطرتهم على شمال سورية وهاجموا إنطاكية سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) واستولوا عليها وهددوا حلب وأجبروا أميرها على عقد صلح مهين معهم ، وانتهز البيزنطيون فرصة انشغال الفاطميين بحرب القرامطة وثبتوا أقدامهم في إنطاكية وما حولها ، وتقدم الإمبراطور يوحنا تزيمسكيس سنة ٣٦٤هـ(٩٧٥م) صوب حمص ومنها إلى بعلبك ، فأذ عنت له دمشق ووافقت على دفع الجزية ، كما اذعنت له طبرية وقيسارية ، ثم اتجه الامبراطور شمالا حيث استولى على بيروت وصيدا ، غير أنه منى بالهزيمة أمام طربلس التى نجح واليها والحامية بمساعدة الأسطول الفاطمى في هزيمته ، فانسحب إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية . وإذا كان الخليفة الفاطمى العزيز قد حاول الثأر من الإمبراطورية البيزنطية سنة ٣٧٧هـ(٩٨٧م) حين أرسل حملة بحرية لغزو بلاد الروم ، إلا ان هذه الحملة منيت بالفشل ، وأعقبها عقد هدنة بين الجانبين ، فوصلت رسل الإمبراطور باسيل الثانى تحمل هدية للخليفة العزيز وتطلب عقد الصلح فأجاب الخليفة الرسل إلى الصلح واشترط : أن يقوم البيزنطيون بإطلاق سراح أسرى المسلمين لديهم ، وأن يوافقوا

على إقامة الخطبة للخليفة العزيز بجامع القسطنطينية ، وأن يكون أمد الهدنة سبع سنين . غير أن ذلك لم يكن نهاية المتاعب بين القوتين نظرا لأن البيزنطين حرصوا على مساعدة أمير حلب الحمدانى الذى استنجد بهم على أثر مهاجمة الجيوش الفاطمية لإمارته ، وحين خرج حاكم أنطاكية البيزنطى لمساعدة أبى الفضائل سعيد الحمدانى سنة ٣٨١هـ (٩٩١م) ، نجحت القوات الفاطمية في إلحاق الهزيمة بجيوش الحلفاء على ضفاف نهر العاصى وتقدمت لمحاصرة حلب ، وعندئذ خرج الإمبراطور باسيل الثانى بنفسه للتصدى للخطر الفاطمى في شمال الشام ، فاستولى على شيزر في حوض نهر العاصى وعلى حمص وتقدم ناحية طرابلس ، إلا أنه ما لبث أن ارتد عنها ، وعاد إلى بلاده سنة ٣٨٥هـ (٩٩٥م) .

ولازالت العلاقات العدائية تحكم السياسة الفاطمية ضد البيزنطيين لا سيما وأن هؤلاء درجوا على انتهاز الفرص للايقاع بالفاطميين في بلاد الشام ، فحين طرح والى صور طاعة الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى سنة ٣٨٨هـ (٩٩٨م) ، وأرسل يستنجد بالإمبراطور باسيل الثانى ويعده تسليم المدينة إليه ، سيرت الخلافة جيشا بريا لمحاصرة صور وأسطولا لقتالها بحرا ، وحين التأمت قوات الثائر علاقة مع قوات البيزنطيين ، جرت المعارك بينها

وبين الفاطميين شديدة ، أسفرت في النهاية عن هزيمة الحلفاء ودخول الفاطميين صور حيث جرى أسر الوالى الثائر وإرساله إلى القاهرة حيث أعدم ، في الوقت الذى تقدمت فيه الجيوش الفاطمية صوب أفامية مطاردة لفلول البيزنطيين وأوقعت بهم ثانية وطاردتهم إلى أسوار أنطاكية . وأعقب ذلك الدخول في مفاوضات من أجل الصلح بين الخلافة الفاطمية والدولة البيزنطية ورحب الإمبراطور باسيل بعقد الصلح ، وأرسل سفيره فعلا إلى القاهرة ليتفق على شروط الصلح ، ويبدو أن المحادثات تعثرت في القاهرة بين الجانبين الأمر الذى دفع باسيل إلى القيام بمحاولة في بلاد الشام من شأنها أن تضغط على الخليفة ليذلل الصعاب لعقد الصلح ، في الوقت الذى تقدمت فيه قوات الخلافة الفاطمية نحو إنطاكية ، غير أن محاولة الإمبراطور منيت بالفشل فضلا عما بلغه من أخبار تقدم البلغار ضد بلاده ، لهذا آثر الارتداد سريعا إلى عاصمته وفوض سفيره لعقد الصلح مع الفاطميين وانتهت المفاوضات بعقد صلح جديد بين الطرفين على أساس : أن تظل الهدنة قائمة بين الجانبين مدة عشر سنين ، وأن يتعهد الإمبراطور باسيل الثانى بإمداد مصر بما تحتاجه من الغلال ، وفي مقابل ذلك يتعهد الفاطميون بكفالة الحرية الدينية للمسيحيين في جميع أنحاء الدولة الفاطمية ، كما يسمح لهم ببناء كنائسهم وتجديدها .

ساءت العلاقات من جديد بين الطرفين على عهد الخليفة الفاطمى الحاكم على أثر سياسة هذا إزاء المسيحيين من رعاياه ، وقيامه بهدم كنيسة القيامة ببيت المقدس ، ولم تجد الإمبراطورية ما ترد به على هذا الحدث غير هدم جامع القسطنطينية . غير أن العلاقات ما لبثت أن تحسنت بعد وفاة الحاكم وقيام الظاهر في الحكم لا سيما وقد بدأ هذا عهده برفع الغبن عن النصارى والسماح بتجديد كنائسهم وببناء كنائس أخرى ، فعقد صلح جديد بين الطرفين سنة ٤١٨هـ (١٠٢٦م) ، تعهد بموجبة كل طرف بكفالة الحرية الدينية في بلده وإعادة ما تهدم من دور العبادة والتعهد بعدم مد يد المساعدة للثائرين من رعايا الطرف الآخر وتعهدت الخلافة الفاطمية من جانبها بعدم القيام بأى أعمال عدائية ضد حلب .. ولم يلتزم البيزنطيون في الحقيقة بشروط هذا الصلح طويلا ، فسرعان ما نقضوه سنة ٤٢٢هـ (١٠٣٠م) وساعدوا بعض أمراء العرب بالشام لا سيما حسان بن مفرج بن الجراح في ثوراته ضد الفاطميين بفلسطين .

وحينما ولى الخلافة الفاطمية المستنصر بالله ، آثر أن يبدأ مع البيزنطيين صفحة من العلاقات الطيبة فعقد مع الإمبراطور ميخائيل الرابع هدنة سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) سمح بموجبها للإمبراطور بإتمام إصلاح كنيسة القيامة ببيت المقدس مقابل تعهده

بإطلاق سراح خمسة آلاف أسير مسلم وتـم إطـلاق الأسـرى فعـلا والعمل في إصلاح الكنيسـة فـي نفـس الوقـت ، وجـرت العلاقـات الطيبة بين الطرفين على عهد الإمبراطور قنسطنطين التاسع حيث استقبل رسـل الخليفـة الفـاطمى الذيـن حملـوا هديـة قيمـة إليـه مـن الخليفة المستنصر .

غير أن الأمور تبدلت على عهد الإمبراطورة ثيودورا خليفة قسطنطين التاسـع التـى تولـت العرش سـنة ٤٤٦هـ (١٠٥٤م) ، وكان المستنصر قد طلـب مـن الإمـبراطور قنسطنطين التاسـع أن يمده بأربعمائة ألف أردب من القمح نظرا لما حل بمصر وقتها من شدة وانخفاض في النيل ، فوافق الإمبراطور على ذلك ، إلا أنه ما لبث أن توفي فجـأة وخلفته ثيـودورا ، التـى اشـترطت لاتمـام هـذه الصفقة أن يوافق الخليفة الفاطمى على مدها بالجنود إذا هدد دولتها عدو ، وبطبيعـة الحـال لـم يوافـق المسـتنصر علـى ذلـك فتعـثرت المفاوضـات وألغيت الصفقـة ، وقـد اسـتتبع هـذا الرفـض حـدوث بعض الأعمـال الحربيـة في بـلاد الشــام بيـن الطرفيـن ، لكـن المستنصر آثـر فـي النهايـة إرسـال سفارة إلـى القسـطنطينية سـنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) علـى رأسـها القـاضى أبـو عبـد الله القضـاعى لتسوية الخلاف بين الجانبين لا سيما وقـد كـانت الخلافـة الفاطميـة تسعى للحصول على زعامـة العـالم الإسـلامى الدينيـة فـي الوقت

الذى نشط فيه السلاجقة للحصول على الزعامة للخلافة السنية وكان رسول طغرليك السلجوتى قد وصل إلى القسطنطينية هو الآخر يلتمس من الإمبراطورة أن يصلى في جامع القسطنطينية ، وعندئذ لم تتردد الإمبراطورة في الإذن لرسول طغرليك بالصلاة في جامع القسطنطينية وإقامة الخطبة للخليفة العباسى القائم ولم تحفل برسول المستنصر الذى أرسل إلى المستنصر بذلك فتضايق هذا كثيرا وأمر بالقبض " على جميع ما في كنيسة القيامة ... وكان هذا من الأسباب الموجبة لفساد ما بين المصريين والروم " .

وظلت العلاقات سيئة بين الجانبين حتى قامت الحروب الصليبية وساهمت الإمبراطورية البيزنطية بنصيب في هذه الحروب ، لا سيما حين ساعدت ملك بيت المقدس الصليبى عمورى في حملته على مصر بأسطول بحرى وبعض الفرق من الفرسان والمشاة لغزو دمياط برا وبحرا سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩-١١٧٠م) وكان ذلك على عهد الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين غير أن هذه الحملة لم تستطع تحقيق أهدافها وأضطرت إلى الارتداد على أثر نشاط نور الدين محمود ضد الإمارات الصليبية ببلاد الشام سنة ١١٧٠م .

وهكذا تراوحت العلاقات بين الخلافة الفاطمية و والإمبراطورية البيزنطية بين العداء والصفاء فترات مختلفة على

امتداد تاريخ الخلافة الفاطمية منذ قيامها ببلاد المغرب حتى انتهاء عهدها فـى مصـر سـنة ٥٦٧هـ (١١٧٢م) وكـانت جبهـه الصـدام غالبا في بلاد الشام حيث طمعت بيزنطة في مـد نفوذهـا هنـاك فـي الوقت الذى نشطت فيه الخلافة في محاولة لتقويض دعائم الخلافة العباسية من ناحية والإمـارات الأخـرى المستقلة الدائـرة فـي فلـك الخلافة العباسية ، ونفوذ البيزنطيين جميعا في هذه البلاد .

بعض الجوانب الحضارية والعمرانية لعهد الخلافة الفاطمية في مصر

نظم الحكم والإدارة :

جرى نظام ولاية العهد عند الفاطميين على أساس أن يعين الخليفة ولى عهده قبل وفاته على ألا يعهد بالإمامة لأكثر من واحد، وكان لهذا النظام ميزاته لأنه كفل للدولة جانبا كبيرا من الاستقرار في هذه الناحية بالمقارنة بالخلافتين الأموية والعباسية . التي جرت فيهما ولاية العهد على قاعدة تعيين أكثر من واحد وليا للعهد فأدى ذلك إلى التنافس بين أفراد البيت المالك وحدوث المؤامرات والفتن وضعف الخلافتين في النهاية وزوالهما . ولقد استمدت الخلافة الفاطمية من ظروف قيامها ومن قرابتها لآل رسول الله سندا للظهور بمظهر الخلافة المقدسة والخلافة السامية على كل البشر ، فأحاط الخليفة الفاطمى نفسه بهالة من القدسية والجلال واعتبر نفسه أسمى من كل الناس ، وأدى ذلك في نهاية الأمر أن أدعى الحاكم بأمر الله الألوهية وتقرب إليه بعض الجهال فنادوا به إلها ورفعوه إلى مصاف الآلهة ولازال الدروز يعتقدون في غيبته ورجوعه في أخر الزمان ليملأ الدنيا أمنا وعدلا وسلاما، ويبدو أن الخلفاء الفاطميين رأوا في تقديس الناس لهم إعلاء لشأنهم، وأنهم ليسوا سوى هداة لهم . فأستمدوا من ذلك حكما مطلقا

حيث تصبح كلمة الخليفة هي القانون ومشيئته هي النافذة ، وسادت هذه النظرية في العصر الفاطمي الأول على الأقل ، قبل أن يضعف الخلفاء ويتدهور نفوذهم ويستأثر الوزراء بالسلطة دونهم في العصر الفاطمي الثاني .

وكان الخليفة يختار وزيره ليساعده في تدبير شئون الدولة ، فبعد فتح مصر مباشرة اقر جوهر الصقلي الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات في منصبه ، نظرا لخبرته بشئون مصر المالية والإدارية ، وحتى لا يؤدي عزل ابن الفرات إلى فوضى واضطراب في شئون البلاد . وفي الوقت نفسه عمل جوهر على تقييد سلطة ابن الفرات ووضع العيون عليه حتى يتم مراقبته مراقبة دقيقة ، ولهذا كره ابن الفرات بقاءه في منصبه فانتهز فرصة قدوم الخليفة المعز واعتذر له عن منصب الوزارة فأعفاه المعز من منصبه ، وكانت وزارة العهد الفاطمى الأول – كما سبقت الإشارة – وزارة تنفيذ ، حيث تصبح مهمة الوزير مجرد تنفيذ أوامر الخليفة ، وتصبح سلطة محدودة إلى حد بعيد وبقاؤه رهنا بتأييد الخليفة ورضاه . ولم ير خلفاء الدولة الفاطمية بأسا في تقليد الوزارة لبعض ذوى الشأن من أهل الذمة من النصارى أو اليهود ، فقلد الخليفة المعز الوزارة ليعقوب بن كلس الذى كان يهوديا ثم أسلم ، ولقب هذا الرجل فيما بعد بالوزير الأجل ، وكان

ابن كلس يجلس للمظالم كل يوم بعد صلاة الصبح ، فيدخل الناس عليه بظلاماتهم ، واتخذ في قصره بعض الدواوين تختص بالنظر في الشئون المالية وشئون الجيش والسجلات ، والموارد المالية وبكل ديوان عدد من الموظفين ومن وزراء العهد الفاطمي أيضا أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح الذى لقب "بوزير الوزراء ذي الريا ستين الأمر المظفر قطب الدولة" ، وأبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى الذى ظل يتقلد الوزارة فترة طويلة ابان عهد الخليفة الظاهر وفترة من حكم الخليفة المستنصر ، ومن الوزراء الفاطميين أيضا الوزير أبو منصور بن يوسف الفلاحى الذى نازعه السلطة وحد من نفوذه كثيرا أبو سعد التسترى اليهودى وصاحب الحظوة لدى المستنصر ووالدتة كما سبقت الأشارة .

وفي العصر الفاطمى الثانى تبدل الحال وأصبحت الوزارة وزارة تفويض وتقلدها الوزراء العظام من أرباب السيوف أى من رجال الجيش وأول وزير فى هذا العصر هو بدر الجمالى الذى ولى الوزارة للمستنصر سنة ٤٦٦هـ (١٠٧٣م) ، حيث تحولت الوزارة إلى سلطة استبدادية حيث جاء في سجل تقليده " وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر في كل ما وراء سريره .."، وزاد الخليفة في ألقابه " السيد الأجل أمير الجيوش كافل قضاه المسلمين وداعي دعاة المؤمنين " ... وقد

لقب رضوان ابن الولخشي نفسه بلقب " الملك " فقيل لـه " السيد لأجل الملك الأفضل " وتلقب طلائع بن رزيك بلقب "الملك المنصور" وبلغ من سلطة وزراء العهد الفاطمى الثانى أن أبا على بن الأفضل وحفيد بدر الجمالي قام بانقلاب سياسى كامل وقطع ذكر اسم الخليفة في الخطبة وأمر بذكر اسمه هو في الخطبة بألقاب مثل " ناصر إمام الحق وهادى القضاه ، ومولى النعم ، ورافع الجور عن الأمم ، مالك فضيلتى السيف والقلم " .

أما عن الادارة أو النظام الادارى فقد رأى جوهر الصقلى منذ البداية قلة خبرة المغاربة بالشئون الإدارية والمالية فرأى أن يشرك مع كل موظف مصرى موظف مغربى ، ليتدرب على شئون الوظيفة من ناحية ويكون عينا على الموظف من ناحية أخرى ، فإذا ما تم تدريبه انفرد بالوظيفة . وانقسمت مصر إبان العصر الفاطمى إلى أربع ولايات كبيرة أو أقاليم كبيرة هى : ولاية قوص وتشمل جميع بلاد الصعيد ، وولاية الشرقية وتضم تقريبا كل الأراضى الواقعة إلى الشرق من فرع دمياط ، وولاية الغربية وتشمل كل الأراضى الواقعة بين الفرعين من الشمال إلى الجنوب، وولاية الإسكندرية التى يضاف إليها البحيرة ، وكان ولاة هذه الأقاليم الأربعة لهم الحرية التامة في اختيار العمال الذين يساعدونهم في حكم المدن والقرى والنواحى الداخلة في نطاق

عملهم . في الوقت الذى جرى تعيين والى على القاهرة وآخر على الفسطاط ، ولكل منهما مكانة خاصة لدى الخليفة ، وكان لكل من تنيس وعيذاب وال يحكمهما نظرا لأهميتهما التجارية ... وكان لوالى القاهرة منزلة أعلى من كل الولاة بحكم ولاية العاصمة . وكان يشرف على شئون الإدارة مجموعة من الدواوين وكانت أشبه بالوزارات من بينها دواوين الإدارة المالية ومن مهامها الإشراف على جباية الأموال وإنفاقها ، ودواوين الإدارة المحلية التى تشرف على حكم الولايات ، وديوان الجيش ، وديوان الإنشاء، وديوان الكسوة والطراز ، وديوان الأحباس أى الأوقاف ، ويتولى الإشراف على كل ديوان موظف كبير يسمى صاحب الديوان يعاونه عدد من صغار الموظفين والكتبة . هذا بالإضافة إلى عدد من الموظفين منهم ، قاضى القضاة وصاحب بيت المال وصاحب الباب ، وتقاضى الموظفون في العهد الفاطمي رواتب كبيرة وكانوا يمنحون الملابس والهدايا الثمينة في المناسبات المختلفة والأعياد والمواسم . ونظرا لاتساع نفوذ مصر في العصر الفاطمي وامتداد سلطانها من المغرب إلى بلاد الشام وجزيرة العرب أن احتل ديوان الإنشاء مكانة هامة بين الدواوين ، وسماه ابن منجب الصيرفي – على عهد الخليفة الآمر – بديوان

" الرسائل " ومن واجبات صاحب ديوان الإنشاء هذا استلام المكاتبات الواردة وعرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها . واهتم الفاطميون بالبريد اهتماما كبيرا فأظهروا عنايـة بطرقـه ومحطاتـه لربط أجزاء الدولة بعضها ببعض واستخدموا الحمـام الزاجـل فـي نقـل الرسـائل . وعنـى الفـاطميون عنايـة خاصـة بالشـرطة لحفـظ النظام واستتاب الأمـن حيث يسند لصـاحب الشـرطة مهمـة تنفيذ أحكام القضاة ، وقسمت الشرطة إلى شرطة عليا ومقرهـا القـاهرة والشرط السفلي ومقرها الفسطاط . وكان من مهام القاضـي الفصل في القضايا المرتبطة بالدين وحكم الشـريعة بوجـه عـام ، أمـا مـن مـهام المحتسـب فـهو النظـر فيمـا يتعلـق بالنظـام العـام والأسـواق ومراقبـة الآداب العامـة ، أمـا قـاضـي المظـالم مهمتـه الفصـل فـي الأحكام التي تستعصي على القاضي والمحتسب ... هذا على الرغم من تضاءل سلطة القضاة في العصر الفـاطمي بسـبب بقـاء بعـض القضاة من السنة يباشرون عملهم في دولة شيعية لا سيما في بدايـة عهد الدولة الفاطمية .

الجيش والأسطول :

لما كانت سياسـة الخلافـة الفاطميـة تقـوم علـى مبدأ التوسـع ومحاولة الحصول على زعامة العالم الإسلامي ، فقد كـان متوقعـا أن يهتم الفـاطميون بـالجيش والأسـطول ليكـون سـندا لـهم لتحقيـق

مشروعاتهم العريضة ، وقد تشكل الجيش الفاطمى من عدة عناصر أهمها المغاربة الذين اعتمد عليهم المعز بصفة أساسية وكانوا يضمون عدة طوائف من البربر كالكتامية والباطلية والمصامدة والجودرية، وأدخل الأتراك في الجيش على عهد الخليفة العزيز ، وفي عهد الخليفة الحاكم بأمر الله أدخل عنصر السودان في الجيش وزادت أعدادهم في عهد المستنصر حتى بلغت نحو خمسين ألف رجل ، وكان لكل طائفة من طوائف الجيش قائد يشرف عليهم ، ونسبت بعض فرق الجيش الفاطمى أحيانا إلى الخلفاء فقيل الآمرية والحافظية ، كما نسب بعضها إلى الوزراء فقيل الجيوشية والأفضلية .. وقد ترتب على تعدد طوائف الجيش حدوث التنافس بينهم واندلاع الفتن أحيانا وانعكست هذه الأحداث على أحوال مصر الداخلية كما حدث إبان عصر المستنصر . وأضيفت إلى طوائف الجيش فرق أجنبية كالأرمن الذين وفدوا مع بدر الجمالي والذين استكثر منهم بهرام الارمنى ، والبرقية نسبة إلى أهل برقة الذين كون منهم طلائع بن رزيك فرقة أضيفت إلى فرق الجيش .. هذا فضلا عن فرقة من المصريين الذين دخلوا في الجيش الفاطمي لا سيما حين هدد الصليبيون مصر ، وهب المصريون للدفاع عن بلادهم ضد الغزو الصليبي ... وعلى عهد

الخليفة العاضد دخلت فرقة من الأكراد مع أسد الدين شركوه وابن أخيه صلاح الدين .

أما بالنسبة لرتب الجيش فقد كان هناك الأمراء (القادة) وطوائف الجند ولا يسمح للجندي بالارتقاء إلى رتبة الأمير أى الضابط ، ويتمايز الأمراء بعضهم عن بعض بعلامات خاصة بحسب مراتبهم في المواكب الرسمية والأعياد والمناسبات العامة ، اذ يحمل كبار الأمراء حول أعناقهم أطواق الذهب ، ويسند إلى كل منهم قيادة ألف جندي ، في حين هناك فريق أخر من الأمراء يعرفون بأصحاب القضب ، وكانوا يحملون قضبا من الفضة في أيديهم ، ويسند إلى كل منهم قيادة مائة جندي .

واهتم الفاطميون اهتماما كبيرا بالأسطول ، لحماية سواحل مصر الطويلة من ناحية والإعداد للتوسيع لا سيما في بلاد الشام من ناحية أخرى والدفاع عن البلاد من خطر البحرية البيزنطية من ناحية ثالثة ، فأنشاوا مراكز لبناء السفن الحربية في مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) وفي جزيرة الروضة ، وفي المقس ، وفي الإسكندرية ودمياط ، وتكون الأسطول المصري على عهد المعز لدين الله من نحو ستمائة سفينة حربية . وتنوعت سفن الأسطول الفاطمي فكان منها الشواني التي أعدت لعمليات الدفاع والهجوم البحري بما لها من أبراج وما زودت به من مخازن للقمح

وصهاريج للمياه ، ومنها الحراريق التى خصصت لمهاجمة سفن الأعداء بقذف النفط ، ومنها أيضا الطرائد التي استخدمت في نقل الخيول ، ومنها أيضا الشلندريات ، وهى عبارة عن سفن مسطحة يحمل فيها العتاد والجند ، فضلا عن الحمالات التي خصصت لحمل الذخيرة . وكان على رأس الأسطول عشرة من القادة يرأسهم واحد هو قائد القواد ، وبلغ عدد جند الأسطول الفاطمي نحو خمسة آلاف جندي كانت لهم رواتبهم الخاصة .

وتجلى اهتمام الفاطميين بقواتهم البرية والبحرية في تلك الاستعراضات الضخمة والاحتفالات المهيبة التى أقاموها عند توديعها كلما خرجت لمحاربة الأعداء ، فكان الخليفة يجلس بمنظرة باب الفتوح حيث يستقبل قائد الجيش فيخلع عليه الخلع ويأذن له بالمسير بجيشه ، وفي توديع الأسطول كان الخليفة يجلس بمنظرة المقس حيث يكون مقدم الأسطول في انتظاره ، فيستعرض الخليفة السفن الحربية ، ثم يخلع على مقدم الأسطول ويأذن له بالمسير ، ويجرى الاحتفال أيضا بالأسطول عند عودته وبعد إحراز الانتصار حيث يخلع على رجاله ويستعرض الأسرى والغنائم . وليس من شك في أن الأسطول الفاطمي قام بكثير من الأعمال الحربية الهامة في حوض البحر المتوسط لا سيما ضد

البحرية البيزنطية وكانت له السيادة في الركن الشرقي من حوض ذلك البحر .

الشئون المالية والاقتصادية :

أفاد الفاطميون دون شك من ثروة مصر وغناها ، واعتنوا بمواردها المالية فحصلوا من ذلك على عائد ضخم أعانهم في مشاريعهم الخارجية من ناحية وفي إضفاء قدر كبير من الرفاهية والترف على حياتهم الداخلية من ناحية أخرى . فلقد اهتم الفاطميون كثيرا بالزراعة باعتبارها المورد الأساسى الحقيقى للاقتصاد المصرى ، فاعتنوا بمشاريع الرى والصرف وإقامة الجسور وحفر الترع واستصلاح الأراضي ، وكانت زراعة القمح تشغل الجزء الأكبر من الأراضي المصرية فضلا عن زراعة الكتان وقصب السكر والفواكه كالكروم والنخيل وأشجار الغابات التي أمدت الفاطميين بالخشب اللازم لصناعة السفن الحربية والتجارية ، وربما تجلت عناية الفاطميين بالمشاريع الزراعية فى قيامهم بحفر خليج يخرج من فرع دمياط لرى الأراضي الواقعة شرق هذا الفرع وقام بحفره أبو المنجاة في عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالي . واهتم الفاطميون أيضا بمعاملة الفلاحين معاملة كريمة ولم يتركوا تقدير الخراج للمقطعين إنما قاموا بتحديده ولم يجر إبان العهد الفاطمي ما ينبئ عن تعسف السلطات إزاء الملاك

الزراعيين أو نزع أراضيهم والاستيلاء عليها بالقوة . إذ كان للدولة أراضى خاصة بها ، فإذا تنازلت عنها الحكومة صارت ملكا للمقطعين ، أما إذا منحتها للأفراد نظير دفع مبلغ معين من المال فإنها تصبح بذلك إقطاع استغلال ... وهذا النوع هو الذى أعطى للأجناد على عهد الفاطميين . ولقد أدى اهتمام الفاطميين بالزراعة أن ارتقت في العصر الفاطمي وزاد إنتاجها ، واتسعت مساحة الأرض الزراعية .

أم بالنسبة للصناعة فقد ارتقت هي الأخرى في ظل الفاطميين نظرا لاستقرار الأمور في البلاد وحياة الترف التي عاشها الخلفاء والوزراء والأمراء وما استتبع ذلك من تنوع الصناعات والمنتجات الصناعية التى لم تعد قاصرة على أنواع السلاح والعتاد بل تعدت ذلك إلى مختلف مرافق الحياه ، فازدهرت في مصر صناعة المنسوجات بأنواعها كالقطنية والكتانية والصوفية والحريرية واهتم الخليفة المعز بإنشاء دار سميت بدار الكسوة اختصت بحياكة الثياب لموظفي الدولة وصنعت منها كسوة الكعبة ومختلف الخلع التى كان يمنحها الخلفاء للوزراء والأمراء في المناسبات الخاصة .. واختصت دار الديباج على عهد الأفضل بانتاج نوع من الحرير يعرف بالحرير الديباج . كما تقدمت مصر في صناعة الأخشاب والصناعات الخشبية الدقيقة وما ارتبط بها

من حفر ونقش وازدهرت أيضا صناعة الزجاج والخزف في العصر الفاطمى ، وعدت الفسطاط أكبر مركز لهذه الصناعة ، هذا بالإضافة لصناعات الجلود والورق والمعدن والعاج وغيرها من الصناعات الدقيقة . واشتهرت كثير من المدن المصرية في أنواع معينه من الصناعات كالإسكندرية ودمياط وتنيس والفيوم والاشمونين واخميم وغيرها من المدن المصرية .

وترتب على ازدهار الزراعة والصناعة انتعاش التجارة سواء التجارة الخارجية منها والداخلية ، فبالنسبة للتجارة الداخلية كان النيل على عادته الشريان الرئيس للتجارة حيث يربط جنوب البلاد بشمالها ، وتركز النشاط التجارى الداخلى في مدينة الفسطاط والقاهرة وكانت الفسطاط أكبر مراكز مصر التجارية لوقوعها على النيل وتوسط موقعها بين مصر السفلى ومصر العليا فضلا عن خروج طرق برية منها تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز وبلاد الشام والمغرب أيضا ، وازدحمت فيها أنواع السلع المختلفة ويذكر ناصر خسرو الذى زار مصر ايام المستنصر أن الفسطاط كانت تعج بالأسواق الكثيرة الزاخرة بالتحف النادرة ، كما كان بها الخانات وما لايقل عن عشرين ألف دكان . وبالنسبة للتجارة الخارجية فقد غدت ثغور مصر لا سيما دمياط والإسكندرية والفرما وعيذاب (على البحر الأحمر) وأسوان وجهة تجار

الشرق والغرب ، كما كانت مدينة قوص من أهم مراكز التجارة الداخلية لوقوعها عند نهاية طريق القوافل بين البحر الأحمر والنيل . وكانت سلع الشرق تفد إلى مصر إما عن طريق البحر الأحمر وإما عن طريق العراق والشام ، وفي كل الأحوال تنقل إلى الإسكندرية حيث يعاد شحنها بحرا إلى أوربا ، وكانت مصر تستورد ما تحتاج إليه من منتجات الشرق خاصة من الهند والصين، كما كانت تستورد الأخشاب والمواد الخام والحديد من بعض البلاد الأوربية ، ولم تكن مصر مجرد طريق للتجارة بين الشرق والغرب في ذلك العصر بل أيضا كانت تصدر إلى أوربا الشب والنطرون وبعض المنسوجات . وقد اهتم الأوربيون لا سيما المدن الإيطالية بتنمية العلاقات التجارية مع مصر وإقامة العلاقات الاقتصادية مع الخلافة الفاطمية ، فراحت سفن جنوة والبندقية وأمالفي تمخر عباب البحر الأبيض حاملة السلع والبضائع المختلفة المنقولة إلى أوربا والآتية منها إلى الموانى المصرية .. واهتم الخلفاء الفاطميون بمنح أولئك التجار الأمان لهم ولسفنهم ، وأقامت الخلافة الفاطمية بعض العلاقات التجارية مع الإمبراطورية البيزنطية ، فاستورد البيزنطيون المنسوجات المصرية من مصانع تنيس ودمياط ، كما أخذ الفاطميون في استيراد الغلال من الامبراطورية البيزنطية . وأذن الفاطميون للتجار الأوربيين ببناء

الفنادق بالإسكندرية ، التى ينزل فيها التجار ويحفظون بضائعهم ، كما أقيمت الوكالات والقياسر وكلها لتسهيل التجارة ومنح التجار الرعاية الكافية وتشجيعهم على القدوم إلى مصر . وبجانب كل هذا الاهتمام بالتجارة الداخلية والخارجية اهتمت الخلافة الفاطمية بفرض رقابة محكمة على العمليات التجارية وتحديد الأسعار ومقاومة التلاعب والغش وحدوث استغلال المستهلك .

وكانت الخلافة الفاطمية قد اهتمت منذ انتقالها إلى مصر بوضع نظام جديد للضرائب فحددت الأملاك وجرى تقدير الضرائب عليها على أساس توخي حد القصد والاعتدال والعدل ولهذا فقد استتبت الأمور وزاد خراج مصر حتى قيل أنة تراوح بين خمسين ألف دينار ومائة وعشرين ألف دينار ، وفضلا عن الخراج كانت هناك موارد مالية أخرى أهمها الجزية التي فرضت على كل قادر من أهل الذمه على حمل السلاح ، بالإضافة إلى المكوس أى الضرائب الكثيرة التى فرضت على التجارة الخارجية والتجارة المحلية وعلى الصناعة ، وكلها مثلت أركانا أساسية في موارد بيت المال على عهد الخلافة الفاطمية .

وليس من شك في أن ذلك التنظيم قد كفل للخلفاء دخلا كبيرا من الموارد المالية في الأوقات العادية ، غير أن مصر كثيرا ما تعرضت لشدائد ومحن اقتصادية لم تستطع أن تتغلب عليها

بسهولة، وكلها حدثت بسبب أنخفاض النيل وقلة الأقوات ، إذ لم تعرف مصر كيف تتحكم في مياة النيل واعتمدت على رى الأراضى مرة واحدة في السنة لعدم وجود السدود أو القناطر التى تنظم عملية الأستفادة من المياة على مدار السنة . فاذا قلت مياة الفيضان عطشت الأرض وصعب ريها وقلت المحاصيل أو انعدمت وتعرضت البلاد لمجاعة ربما صاحبها وباء خطير ، وأشهر المحن والشدائد التى تعرضت لها مصر ابان العهد الفاطمى ما عرف باسم الشدة العظمى التى استمرت سبع سنين وانخفض فيها النيل وقلت الفدان ولأرتفعت الأسعار وعدمت المحاصيل أنتشر الوباء وحدثت هذه الشدة ابان عهد المستنصر وعدمت الأقوات ابانها حتى " اكل الناس الكلاب والقطط ... واكل الناس بعضهم بعضا " . وكان من مظاهر هذه المحنة إهمال الزراعة وانتشار الفتن والحروب الأهلية ، ولما ولى بدر الجمالى سنة ٤٦٦هـ (١٠٧٤م) وجه همته لإعادة الأحوال إلى نصابها والضرب على يد العابثين واعادة الطمانينة إلى نفوس الناس فعاد الفلاحون إلى زراعة الأرض وتغلبت الحكومة على المصاعب التى شهدتها البلاد إبان السنوات السابقة . وهكذا كانت احوال مصر القتصادية والمالية إبان العصر الفاطمى .

الحياة الفكرية والثقافية :

أظهر الفاطميون أهتماما كبيرا بالنواحى الفكرية والثقافية في مصر، وعملوا على نشر الثقافة العلمية والأدبية والفنية ، بلأضافة إلى نشر الثقافة المذهبية المتصلة بالمذهب الإسماعيلي كالفقه والتفسير ، حتى يحق لمصر أن تضارع في العصر الفاطمى ما كان ساريا في العراق وخاصة في العلوم العقلية والفلسفية .

ولقد كان للجامع الأزهر أثر كبير في تطور الحياة الثقافية والفكرية في مصر بعد أن ظهرت فكرة الدراسة به منذ أواخر عصر الخليفة المعز واتخذ مركزا للدعوة الفاطمية ومدرسة لتدريس الفقة الشيعي ، وفي عهد العزيز تحول الجامع الأزهر إلى معهد للدراسة بعد أن كان قاصرا على إقامة الدعوة الفاطمية ، وعين له الفقهاء ورتبت لهم الرواتب الشهرية وانشئت لهم دار للسكن بجوار الجامع ، وجرى عقد المجالس العلمية في هذا الجامع في أيام معينة ، وظل الأزهر يؤدى دوره هذا حتى بنى جامع الحاكم بأمر الله ، فأتخذه الفقهاء مقرا لإلقاء دروسهم ، لصبح كل من الجامع الأزهر وجامع الحاكم مركزين هامين للحياة العلمية والثقافية في مصر .

ولم يكتف الفاطميون بهذه الجوامع كمراكز لنشر الثقافة ، بل اتخذوا قصورهم مراكز أخرى علمية ، فألحقوا بها المكتبات

المختلفة وزودوها بالمؤلفات النادرة في مختلف العلوم والفنون ، ومن المكتبات الهامة في العصر الفاطمى مكتبة القصر التى أنشئت بالقصر الكبير وذاع صيتها كثيرا ، وكثيرا ما كان الخليفة الفاطمى يزورها فيتفقد العمل بها حيث يعرض عليه النادر من كتبها ومصاحفها ، ثم تقدم إليه قائمة بالكتب المقترح شراؤها وضمها إلى المكتبة . وانقسمت مكتبة القصر إلى نحو أربعين خزانة للكتب لسائر فروع العلم ، كل خزانة تحتوى على رفوف والرفوف مقسمة بحواجز،وكانت تضم أكثر من مائة ألف مجلد ، في الفقة والمذاهب المختلفة واللغة والنحو والبيان والحديث والتاريخ والتراجم والفلك والكمياء والطب ، وكانت هناك خزانة بهذه المكتبة تضم نحو ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة ، ويذكر أحد المؤرخين أنه وجد بهذه المكتبة : "ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى " .

ولقد عنى الحاكم بأمر الله كثيرا بأمر العلم ، فأنشأ في سنة ٣٩٥ هجري (١٠٠٥م) دار الحكمة وزودها بمكتبة ضخمة تضم كتبا تتناول مختلف ألوان المعرفة ، وسمح للناس جميعا بدخولها للقراءة والاستفادة والنسخ منها ، كما زودها بالحبر والأقلام والورق ، وذكر المقريزى : " وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إلية من

سائر العلوم والأداب ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك ، وأباح ذلك لسائر الناس على طبقاتهم " . ولقد تميزت الدراسة في دار الحكمة عنها في المراكز الأخرى والجوامع . بأنها مالت كثيرا إلى الناحية العلمية ولم تكن قاصرة على العلوم الدينية ، إذ يدرس الطلاب في دار الحكمة إلى جانب تلك العلوم الدينية أو الفقة الشيعى مختلف العلوم الأخرى كاللغة والفلك والطب والرياضة والفلسفة والمنطق والتنجيم ، وكان ضمن أساتذة دار الحكمة أقطاب العلم في العصر مثل ابن يونس المنجم وابن الهيثم وعلى بن رضوان ، ولهذا فقد هوى إليها الطلاب من كل مكان والتقت فيها الكفاءات العلمية المختلفة من أساتذة وطلاب ، وظلت هذه الدار تؤدى رسالتها حتى أمر الأفضل بن بدر الجمالي بإغلاقها بسبب تردد بعض أقطاب المذاهب السنية عليها وقيامهم باستقطاب بعض طلابها والدارسين فيها ، بما يعنية ذلك من تهديد المذهب الشيعى ، لكنها عادت ففتحت بعد مقتل الأفضل حين أمر الخليفة الآمر بأحكام الله بإعادة فتحها واستئناف العمل فيها .

وإلى جانب حلقات الدرس والعلم بالجوامع لا سيما الجامع الأزهر وجامع الحاكم ، ودار الحكمة اهتم الفاطميون بالحركة العلمية والفكرية فعقدوا مجالس العلم والأدب بقصورهم حيث كانوا يدعون إليها الفقهاء والعلماء والأدباء ليتناظرون في حضرتهم ،

ولهذا فقد أنعشت هذه المجالس الحياة الفكرية والثقافية في العصر الفاطمى .

ومن العلوم التى لقيت تأييدا وتشجيعا من الفاطميين الفلسفة بسبب حاجتهم إلى قدر كبير من قوة الحجة وسلامة المنطق والإقناع لنشر دعوتهم الشيعية في مصر ولهذا استعان الفاطميون بالفلسفة اليونانية لتأييد وجهه نظرهم ، وتفنيد آراء خصومهم وإثبات صحة مذهبهم ، فنشطت الفلسفة في العصر الفاطمى نشاطا كبيرا ، وكانه ثمرة هذا النشاط رسائل إخوان الصفا التى كانت أشبه بموسوعة ضخمة أو دائرة معارف كبيرة تضم كتابات الشيعة التى حاولت التوفيق بين العلم والدين ، وأعطت صورة واضحة لمستوى التفكير الفلسفي لدى جماعة الشيعة في ذلك الوقت .

ولقى التاريخ أهتماما كبيرا أيضا في ذلك العصر فظهر كثير من المؤرخين النابهين وألفت كتب تاريخية لها شأن عظيم ومن مؤرخى هذا العصر أبو الحسن على بن محمد الشابشتى المتوفي سنة ٣٨٨هـ (٩٩٨م) ، والذى نال الحظوة لدى الخليفة العزيز فولاه إمامة خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه ، وألف هذا العالم كتاب الديارات ذكر فيه أخبارا طريفة عن أديرة العراق والجزيرة والشام ومصر ، ومن أعلام المؤرخين أيضا المختار عز الملك المعروف بالمسبحى مؤلف كتاب " تاريخ مصر "

والمتوفي سنة ٤٢٠هـ (١٠٢٩م) ، وكان من المقربين من الخليفة الحاكم فتولى بعض الوظائف الهامة وللأسف فقد هذا الكتاب ماعدا الجزء الأربعين ، لكن كثيرا من مادته نقلها المقريزى وابن تغرى بردى ، ومن المؤرخين أيضا ابن زولاق المتوفي سنة ٣٨٧هـ (٩٩٧م) صاحب كتاب " فضائل مصر " وأبو عبدالله محمد القضاعى المتوفي سنة ٤٥٤هـ (١٠٦٢م) وكان من اقطاب العلم في عصره وولى القضاء على عهد الخليفة المستنصر وله مؤلفات في الحديث والفقة فضلا عن التاريخ ، وأرسله المستنصر على رأس سفارة إلى القسطنطينية لعقد الصلح مع الإمبراطورة ثيودورا

وأهم كتبه في التاريخ كتاب " المختار في ذكر الخطط والثار " يضم تاريخ مصز والقاهرة حتى زمنه وقد استفاد المقريزى من هذا الكتاب استفاده كبيرة في خططه . ومن أقطاب التاريخ أيضا في هذا العصر على بن منجب الصيرفي المتوفي سنة ٥٤٢هـ (١٠٥٠م) وصاحب كتاب " الإشارة إلى من نال الوزارة " وقد برع في البلاغة والشعر وحسن الخط وتولى الأشراف على ديوان الرسائل الذى أطلق علية ديوان الإنشاء ، على عهد الخليفة الآمر.

أما بالنسبة للأدب فقد انتعش انتعاشا عظيما في هذا العصر ، لا سيما وقد احتاج الفاطميون في دعايتهم إلى كثير من البلاغة

وقوة البيان ، ويمكن القول أن الشعر في هذا العصر كان لأول مرة منذ الفتح العربى شعرا مصريا خالصا ، فقبل ذلك لم يكن لمصر شعراء عظام وإنما نال هذه المكانة الشعراء الوافدون ، فلما بزغ العصر الفاطمى وأبدى الفاطميون اهتماما بهذا الجانب من الأدب وشجعوا الشعراء وقربوهم ، ظهر شعر مصرى رصين ونال الشعراء المصريون مكانة هامة ، ويبدو ان الخلفاء الفاطميين كانوا بحاجة إلى الشعراء كلون من ألوان الدعاية ومظهر من مظاهر الأبهة والعظمة ومسايرة للاتجاهات في الدول العظمى ، كما ظل فحول الشعراء يفدون إلى مصر ومنهم ابن هانىء الأندلسى وكثيرون غيره ، وأعطت الحياة التى عاشها الفاطميون وما ابتدعوه من احتفالات ومناسبات وأعياد ومواكب فرصة هائلة للتنافس بين الشعراء وإلقاء القصائد المختلفة في المدح والوصف والحماسة . ومن فحول شعراء هذا العصر تميم ابن الخليفة المعز لدين الله، وكان شاعرا مجيدا ومنهم أيضا العقيلى الذى أجاد في وصف الطبيعة ، وكذلك الحسن بن على بن الزبير الذى نال شهرة واسعة في عصره (أواخر العصر الفاطمى) . أما بالنسبة للنثر فلم يقل عناية الفاطميين به عن عنايتهم بالشعر تجلى ذلك في دقة أختيارهم للكتاب في الدواوين لا سيما ديوان الإنشاء . ويدل على ذلك أيضا بعض الكتب الرسمية التى نقلها لنا المؤرخون

ومجموعة رسائل الخليفة الحاكم والقائمين بدعوته ، ويظهر من الشذرات الباقية من الرسائل والكتابات المنتمية إلى هذا العصر ميل الكتاب إلى المحسنات اللفظية والزينة والتفنن في أختيار الألفاظ والكلمات والعناية بالسجع وكلها قرائن تؤكد ان النثر كان ربيب القصور والمعبر عن حياة الترف و الرفاهية .

وازدهر الطب والرياضات والفلك في العصر الفاطمى أزدهارا عظيما أيضا ، فقد قرب الخلفاء الفاطميون الأطباء وأجزلوا لهم العطاء ، ونال بعضهم الحظوة لدى الخلفاء على الرغم من أن بعض هؤلاء الأطباء كانوا من اليهود والنصارى ، ومنهم اسحق بن موسى بن العازار الإسرائيلى أحد أطباء الخليفة المعز ، والذى ورث المهنة عن والده الذى كان مقربا أيضا لهذا الخليفة وألف إسحق بن موسى هذا كتاب الأقراباذين وتوفي سنة ٣٦٣هـ (٩٧٣م) . ومنهم أيضا منصور بن سهلان بن مقشر ، وكان نصرانيا أصاب شهرة واسعة زمن الخليفة العزيز بالله وابنه الحاكم ، فقربه العزيز وجعله طبيبه الخاص . ومنهم أيضا أبو الحسن على بن رضوان المصرى المولد والذى غدا رئيس الأطباء في البلاط الفاطمى ، وكان كثير المعرفة مبرزا في علم الطب والعلاج وألف كتبا في الطب وفي الفلسفة والمنطق ، وتوفي في خلافة المستنصر سنة ٤٦٠هـ.

ونبغ في الرياضيات والطبيعيات والفلك بعض العلماء في هذا العصر ، ووجدوا تشجيعا من الخلفاء الفاطميين ، ومن هؤلاء العلماء أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم ، وهو من أهل البصرة ووفد إلى مصر بتشجيع من الخليفة الحاكم الذى كان قد بلغة عنه سعة العلم والإطلاع وأن له نظرية هامة في توزيع مياة النيل ... وأقبل ابن الهيثم على مصر وعاش بها حتى توفي بالقاهرة سنة ٤٣٠هـ (١٠٣٨م) ، بعد أن ترك مجموعة هائلة من المؤلفات في الرياضة والطبيعة والفلسفة والطب أيضا ، وأبدى الفاطميون اهتماما كبيرا بالفلك وعلم النجوم ، حتى يقال أن الخليفة الحاكم أنشأ مرصدا بسفح جبل المقطم أطلق عليه " المرصد الحاكمى " ومن الذين نبغوا في الفلك في ذلك العصر أبو الحسن على بن يونس , صاحب" الزيج الحاكمى " ، ويروى أن مكتبة القاهرة كانت تضم نحو ستة آلاف كتاب في الرياضيات وعلم الفلك والنجوم .

أم فيما يتعلق بالفنون فلقد نالت اهتماما كبيرا أيضا من الفاطميين ، فأظهر الخلفاء عناية وافرة بالعمارة والمنشأت المعمارية ، وكان جوهر الصقلي قد أسس مدينة القاهرة التى أعتبرت ثالث مدينة كبيرة يقيمها الفاطميون بعد المهدية التى أسسها الخليفة المهدى ، والمنصورية التى نقل الخليفة المنصور الفاطمى إليها مقر حكومته واتخذها عاصمة ، أى أن الفاطميين

اقاموا مدينتين بشمال أفريقيا والثالثة هى القاهرة العظيمة في مصر ومن المنشآت المعمارية الكبيرة التى ضمتها القاهرة الجامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع الأقمر وجامع الصالح طلائع ، وبرزت في تلك الجوامع العناية الفائقة بواجهاتها وعقودها المرتفعة وزخارفها وكتاباتها الجميلة . أما بالنسبة لفن النحت فحقيقة لم يخلف العصر الفاطمى نحتا ذا قيمة على الحجر باستثناء بعض الألواح الرخامية المحفور عليها زخارف نباتية وحيوانية وكتابات كوفية ولكن ظهر النحت جليا في الجص حيث برز في محاريب الجوامع والزخارف الجصية في الجامع الأزهر ، وإذا كانت الزخارف الجديـ ـة تساير النماذج السابقة على عهد الطولونيين والإخشيديين ، إلا أننا لا نعدم نماذج تتميز بالأسلوب المجدد لا سيما في العناية برسم السيقان النباتية ، ولهذا النوع من الحفر أمثلة عديدة في جامع الحاكم ، ومن أهم أمثلة الحفر الجصي في العصر الفاطمي محراب جامع الجيوشى الذى ترتكز زخرفته على فروع نباتية متكاثرة والمتخذة أشكالا هندسية بديعة . وساير الحفر على الخشب نفس الإتجاة من الاعتماد على نماذج نباتية وأشكال هندسية مروحية ، فضلا عن بعض النماذج الحيوانية والموضوعات الآدمية . ونفس الإتجاة ظهر في النحت على العاج، فبالإضافة إلى صناعة التطعيم في العاج والترصيع وجد النحت في

العاج بل كانت الحشوات كلها تصنع من العاج . يضاف إلى ذلك كله تجلى الفن في التحف المعدنية التي حوتها قصور الخلفاء والوزراء والأمراء ، يدل على ذلك التقدم في الفنون ما خلفه العصر من مجوهرات تحف جميلة ذات زخارف وأسلاك ذهبية مجدولة ورسوم بالميناء متعددة الألوان . فمن تماثيل معدنية إلى تحف معدنية لطيور وحيوانات تشهد بجمال الذوق ودقه الحس الفنى في ذلك العصر ، ولقد ظهر ذلك الترف في التحف التي اقتناها الأفضل بن بدر الجمالي حيث أقام الخليفة الآمر في دور الأفضل بعد مقتله في سنة ١١٢١ م(٥١٥ هـ) أربعين يوما والكتاب بين يديه يكتبون ما ينقل إلى القصرين ذخائر وأموال ونفائس تجل عن الوصف ، من بينها " ... عشر بيوت في كل بيت منها عشرة مسامير ذهب كل مسمار وزنه مائتا مثقال عليهم العمائم المختلفة الألوان " وكذلك " تسعمائة ثوب ديباج ملون وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتنيس برسم كسوة بدنه ولعبة عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه ليكسب الراحة ومن الطيب والنحاس والآلات ما لا يحصيه عدد ودواة يكتب منها مرصعة بالجوهر .." وكذلك " سبعمائة طبق فضة وذهب ومن الآلات كالأسطال والصحاف والشربات والأباريق والقدور والزبادي والقطع من الذهب والفضة المختلفة الأجناس ما لا

يحصى كثرة ومن براني الصيني الكبار والمملوءة بالجوهر التي بعضها منظوم بسبح وبعضها منثور شئ كثير " . هذا فضلا عن الفن الخزفي والخزف ذى الرسوم المنقوشة والأواني ذات البريق المعدني ، وكانت الفسطاط مركزا لهذه الصناعة الفنية ، وقد ظهر الفن أيضا في صناعة الزجاج التي سبقت الإشارة إليها فخلف العصر مجموعة كبيرة من الأواني الزجاجية بعضها محلى بزخارف ونقوش جميلة . بالإضافة إلى ما عثر عليه من الأباريق المصنوعة من البلور والأطباق وأكواب الشرب البلورية الجميلة ... هذا كله بالإضافة إلى صناعة المنسوجات بأنواعها الحريرية والكتانية والقطنية والصوفية ذات الزخارف والرسوم الهندسية الجميلة ، فضلا عن صناعة السجاد التي ازدهرت في ذلك العصر خاصة في مدينة أسيوط .

الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي :

شهد العصر الفاطمي لونا من ألوان البذخ وحياة الترف ، عاشها الخلفاء الفاطميون ورجال دولتهم ، إذ بنوا القصور الفاخرة وشيدوا العمائر الهامة واتخذوا من القصور سكنا لهم ولأسرهم وأثثوا تلك القصور بفاخر الأثاث وجميل الفرش وغالى الأمتعة واتخذوا فيها من الشراب والزينة ما يجل عن الوصف ، وزينوها بالستور والطنافس الحريرية الغالية ، وجعلوا لقصورهم أفنية رجة

تتوسطها النافورات " يجرى الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام " . وكان الخليفة نفسة يجلس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة وتحيط به كل مظاهر الدعة والرفاهية .

ولم يكن الخلفاء وحدهم الذين تمتعوا بهذه العيشة الراضية وانما عاشها أيضا وزراؤهم فاتخذوا الحجاب والغلمان والحاشية والأتباع والحراس ، واتخذ يعقوب بن كلس في قصره المطابخ الخاصة له ولأضيافه . وعاش الأفضل بن بدر الجمالي حياة قل أن يحياها شخص أخر وسط مظاهر الآبهة والنعمة واتخذ من الجواري والغلمان والحرس والحجاب الشيء الكثير واقتنى الغالي من الأثاث والتحف والنفائس وتنقل بين قصوره وضياعه ومارس حياة اللهو والبذخ ، ومد الأسمطة في الأعياد والمناسبات ، وأولع بالبساتين فبنىلأحدها سورا كبيرا وحفر به بركة عظيمة ، وبنى وسط البستان منظرة على أربعة عمد من الرخام وزرع حولها شجر النارنج وجلب إلى هذا البستان كثيرا من الطيور وسرح فيه كثيرا من الطواويس .

هذا بالنسبة للخلفاء والوزراء وعليه القوم ، ولا حاجة بنا إلى الحديث عن حياة الشعب نفسه فالأخبار في الكتب عن الشعب قليلة وعن حياته الاجتماعية نادرة ولكن أغلب الظن أنة ظل في حياته

— ، العادية يمارس الزراعة في القرى والأرياف ، في كثير من الانتظام لا سيما في فترات الرخاء وما لم يحدث انخفاض للنيل أو كوارث اقتصادية حين تتقلب حياته رأسا على عقب وينتشر القحط والغلاء وتتفشى الأوبئة .

واهتم الفاطميون كثيرا بالمبالغة في إحياء الأعياد والمواسم ، لا سيما الدينية منها ، وأظهروا فيها ألوانا من البذخ والسعة والترف ، ومن بين تلك الأعياد عيد الفطر وعيد الأضحى ورأس السنة الهجرية ومولد النبي ، ومولد على بن أبى طالب ومولد ولديه الحسن والحسين ومولد فاطمة الزهراء ، ويوم عاشوراء ، وليلة أول رجب وليلة النصف منه وليلة أول شعبان وليلة النصف منه .. ولقد أسرف الفاطميون كثيرا في إحياء هذه الأعياد بإقامة الحفلات ومد الأسمطة والولائم . وكثيرا من العادات والتقاليد وبعض ألوان الأطعمة التي ما تزال قائمة في مجتمعنا المصري حتى اليوم ، إنما ترجع أصولها إلى أيام الفاطميين . والواقع أن الفاطميين أسرفوا كثيرا فى الاحتفال بهذه المناسبات وإحياء تلك الأعياد ففي ليلة عيد الفطر يمد في الإيوان الكبير الذى يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم يبلغ طوله نحو ثلاثمائة ذراع وعرضه

سبعة أذرع ، وتوضع فوقه أنواع الفطائر والحلوى الشهية ، وبعد الانتهاء من صلاة الفجر يجلس الخليفة في مجلسه وحوله وزراؤه وتفتح أبواب القصر والإيوان على مصراعيها ويهرع الناس من جميع الطبقات إلى السماط الخليفي ....
.... فيأكلون ما عليه من الطعام على مرأى من الخليفة ورجاله — ويبدو أن الإسراف في ذلك لم يكن مرده مجرد إظهار الثراء والغنى ، بل أيضا كان لونا من ألوان الدعاية وكسب الرأي العام في مصر لا سيما وقد أتت الخلافة الفاطمية بمذهب جديد كان بحاجة إلى مشايعين ومريدين ، فلا أقل من إحاطة الناس بجو من الفرح والسعادة والحبور يكون طريقا سهلا إلى قلوبهم ويرتبط التحول إلى المذهب الجديد بكل محبب إلى النفس والوجدان .

وإذا كان الفاطميون قد ابتدعوا أعيادا جديدة لم يكن الاحتفال بها جاريا في بقية أنحاء العالم الإسلامي وهي الأعياد المختصة بمناسبات شيعية مثل عيد مولد على بن أبى طالب ومولد ولديه وعيد الغدير أي غدير خم ، وليالي الوفود الأربع (أول رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه) ، ويوم عاشوراء — العاشر من المحرم — فإن هدفهم من ذلك لا يخفي على أحد وهو تأكيد التحول إلى المذهب الشيعي بمظاهر الاحتفال الديني واستمرار تذكير الناس على مدار السنة بالشيعية والدعوة الشيعية والمناسبات

الشيعية حتى أنه كـان مـن ضمـن الأعيـاد والمناسـبات الهامـة يـوم عاشوراء حيث تعطل الأعمال ويخرج الناس إلى الطرقات يبكـون وينوحون حزنا على الحسين بن على الذى يوافـق ذلـك اليـوم يـوم استشهاده ، وكان يمد سماط أطلق عليه سماط الحزن ، لا يقدم فيـه سوى خبز الشعير والعدس والمملحات والجبن وغيرهـا ويحضـره الخليفة مرتديا الثياب القاتمة وملثما .

ومن الأعياذ ما كان له صبغة قومية مثل عيد جبر الخليج أي عيد وفاء النيل وعيد النوروز وهو عيد الربيع ، كذلك عيد خميـس العـهد (أحـد أعيـاد المسـيحيين)التـي شـارك الفـاطميون إخوانـهم النصارى في الاحتفال بـه تدعيمـا لروابـط الألفـة والمحبـة . وفـى الاحتفال بوفاء النيل كان الخلفاء الفاطميون يركبـون إلـى المقيـاس بالروضة إذا ما بلغ الفيضان ستة عشر ذراعا .

وحرص الخلفاء الفاطميون على الركوب فـي مواكـب فخمـة تشق شوارع القاهرة وسط ضجيج الناس وأفراحهم ومظاهر الزينة للاحتفال بتلك الأعياد في عيد الفطر حيث يخـرج الخليفـة " وبيـن يديـة الجنـائب والقبـاب والعسـكر فـي زيـه : ... بالديبـاج المثقـل والسـيوف والمنـاطق الذهـب ، وعلـى الجنـائب السـروج الذهـب بـالجوهر والسـروج بـالعنبر ، وبيـن يديـه الفيلـة وعليـها الرجالـة بالسـلاح ، وخـرج بالمظلـة الثقيلـة بـالجوهر ...". أمـا فـي عيـد

الأضحى فيخرج الخليفة إلى الصلاة ، ثم يخرج إلى المنحر ثلاث مرات متواليات في أيامه الثلاثة الأولى ويشترك في إجراءات النحر . أما في ليالي الوفود الأربعة فيحتفل فيها بإضاءة جميع المساجد وتبدو القاهرة في حلل بديعة من الأنوار ، ويخرج الناس إلى الجامع الأزهر حيث تضاء حافاته بالمشاعل ويعقد في صحنه مجلس حافل من العلماء والقضاة . وحرص الخلفاء على الركوب في الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان إلى الجوامع : جامع الحاكم وجامع الأزهر وجامع عمرو على التوالي لصلاة الجمعة ... ويرتدي الخليفة في ذلك اليوم ثوبا من الحرير الأبيض ويتعمم بعمامة من الحرير أيضا ويحمل قضب الملك بيده ويحف به الأشراف والحرس الخاص والجنود ، وجرت العادة على أن يلقى الخليفة خطبة في ذلك اليوم تكون معدة من قبل في ديوان الإنشاء ، ثم يؤم المصلين ، ثم يعود موكبه بعد أداء الصلاة .

وجرى تقسيم المواكب الخليفية إلى المواكب العظام وهى التي يخرج فيها في المناسبات المذكورة أما الأخرى فهي المواكب المختصرة ، عند الركوب إلى مناظر الخلفاء وعادة كانت تحدث نحو أربع أو خمس مرات في السنة ، وأعتاد الخلفاء أن يمنحوا رجال القصر والشعراء والقراء والحاشية المنح السخية . كما يحمل أحد الموظفين كيسا من الحرير فيه خمسمائة دينار لتوزع

في الطريق حيث تنثر على الرجال والنساء والقراء الذين يرتلون القرآن على جانبي الطريق . وفي بعض هذه المواكب كانت تسير آلاف الفرسان وصفوف الجمال عليها الهوادج المزركشة .

وليس من شك في أن البذخ والترف كان سمات المواكب العظام ، كما كانت الأسمطة عنوانا على الرفاهية والثراء إذ يذكر المؤرخون أن بعض الأسمطة لا سيما التي كانت تقام في غرة رمضان والعيدين وأول العام الهجري كانت تحوى كميات هائلة من الأطعمة فيشمل السماط الواحد إحدى وعشرين جفنة بكل منها واحد وعشرون خروفا وثلاثمائة وخمسون من الطير ما بين دجاج وحمام ، بالإضافة إلى الفطائر والحلوى الشهية ، وفي مولد النبي كان يصنع عشرون قنطارا من الحلوى توزع على الناس في الأزهر .

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية الاهتمام بالموسيقى والغناء ، إذ حفلت المجالس الخاصة والمآدب بالمغنيين والمغنيات من الجواري وقد جلبت بعض الجواري الشهيرات في الغناء من خارج مصر ، وبلغ من حب الناس للطرب والغناء أن أقيمت مجالس لها على شواطئ الخليج بالقاهرة ... فلما تفشت الرذائل واستشرى الانحلال الاجتماعي في تلك المجالس أصدر الخليفة الحاكم القوانين بمنعها ... ثم عادت المجالس بعد وفاته وممن أولع

بالسماع الخليفة المستنصر نفسه الذى أجزل العطاء لبعض الجواري المغنيات وكان مغرما بسماع الموسيقى والغناء .

وعرف العصر الفاطمي اللعب بالخيال حيث كان الناس يخرجون في بعض الأعياد فيطوفون شوارع القاهرة بالخيال والتماثيل والسماجات ، وفي بعض الأعياد كان العامة يطوفون بأسواق المدينة بالطبول والبوقات ليجمعوا من التجار ما ينفقونه في خروجهم . هذا فضلا عما كان يعقد من مجالس طرب وسماع ومحاكاة وسماع الطرائف والنوادر في بيوت عليه القدم . كما شغل هؤلاء وقتهم بلعب النرد والشطرنج الذى انتقل إليهم من الفرس وعمرت تلك المجالس إلى جانب ذلك بالمناقشات والمناظرات الطريفة .

ولقد أهتم الخلفاء الفاطميون ببناء المناظر ليشرفوا منها على بعض الاحتفالات و الأعياد واستعراض الجيوش والأساطيل والاحتفال بتوديعها في خروجها إلى القتال . ومن تلك المناظر منظرة المقس ومنظرة الأزهر واللؤلؤة والدكة وباب الفتوح وكان الخليفة يجلس في المنظرة فتضاء حوله الشموع والمصابيح ويتجمهر الناس لرؤيته ولو للحظات ، وتفتح نافذة المنظرة برهة يحيى خلالها الخليفة شعبه وعندئذ نجد الناس عند رؤيته ساجدين

الفصل الخامس

مظاهر ضعف الخلافة الفاطمية حتى زوالها

الفصل الخامس

أ- الخلاف المذهبى بين الخلافة الفاطمية من جهة والخلافة العباسية والسلاجقة من جهة أخرى :

من أبرز مظاهر التفكك الذى منى به الشرق الإسلامى عند قدوم الحملة الصليبية الأولى ذلك الخلاف المذهبى بين الخلافة السنية وحماتها من جهة ، والخلافة الشيعية من جهة أخرى ، وليس من شك في أن الصراع الذى شهده الشرق الإسلامى بين الاتجاهين وتنافسهما على السيادة أضاف عاملا جديدا في ذلك الوقت ، بقدر ماترتب على ذلك كله من نتائج .

ويذهب فريق من المؤرخين المحدثين إلى أن الصراع بين المذهبين السنى والشيعى لم يكن الأساس الذى ترتبت عليه المنازعات السياسية والحربية التى أدت إلى تقسيم بلاد المشرق إلى إمارات ودويلات كثيرة مستقلة ، بل إنه لم يكن العامل الأساسى في إضعاف وحدة العالم الإسلامى عند قدوم الحملة الصليبية الأولى ، حتى بعد استقرار السلاجقه .

والواقع أن هذا الخلاف المذهبى وإن لم يكن الأساس في بروز هذه النتائج ، فإنه لاشك قد ساهم بنصيب كبير في التفكك والضعف الذى اكتنف المنطقة قبل الغزو الصليبى ، كما أنه أوجد نوعا من التشاحن الروحى والفكرى عند المسلمين ، وجعلهم أكثر

إستعدادا لتغليب النزعة الانفصالية المرتكزة على أسس طائفية أو عرقية أو مذهبية . وتاريخ المنطقة يؤكد هذه الحقيقة .

فالفتن المذهبية والصراع بين أتباع المذهبين في نواحي الشرق - وبصرف النظر عما تطور من خلاف وتنافس بين الخلافتين على المستوى الرسمى قد استتبعه كثير من المحن التى أضافت أعباء جديدة إلى كاهل الخلافتين في بغداد والقاهرة ، وأوجد نوعا من التنافر بين الرعايا في كل منهما . هذا وإن كان هدفنا هو تتبع جذور الانقسام والصراع بين الخلافتين على المستوى الرسمى ، إلا أننا لانستطيع أن نغفل ما كان يثور بين أنصار المذهبين داخل هاتين الخلافتين ، لأن ذلك فيه تجسيم لعنف التفكك والتفتت ، وفيه تأكيد لحالة القلق والفوضى التى عاشتها الشعوب الاسلامية قبل الحكومات حينئذ .

ففي العراق وبغداد على وجه الخصوص انتشرت الفتن المذهبية بين السنة والشيعة على مدى القرن الخامس الهجري كله (الحادى عشر الميلادى) وصل الأمر حد القتال بين الطائفتين ، ودام أحيانا شهورا طويلة ، وساعد على ذلك ضعف الخلافة العباسية إذ ذاك عن كبح جماح هذه الطوائف ، ووضع حد لتعصبها ، وأفرد المؤرخون صفحات ضافيه من مصنفاتهم لتغطية هذه المصادمات و كأنها غدت تقليدا من أبرز أحداث العصر ،

والشيء الذى يسترعى الانتباه أن هذه المصادمات الحربية جذبت في بعض أدوارها بعض رجال الدولة الرسميين وبعض القواد ، فانحازوا إلى أطرافها مما ساعد على إذكاء نارها واشتعال لهبها ، وفي كل الأحوال عانت الدولة نتائج هذه الفوضى .

اشتعلت هذه الفتن بين السنة والشيعة ضارية في العراق في أعوام ٤٠٨ ،٤٤١، ٤٤٤، ٤٤٥ هـ كما يحدثنا ابن الاثير ، فاندلعت النيران في بعض أحياء بغداد ،وتتبع الناس بعضهم بعضا ، ونهب الكثيرون وقتل آخرون ،وعمت الفوضى ، وفي سنة ٤٤٨، ٤٥٨ هـ أيضا حدث نفس الشيء رواه لنا أبو المحاسن ،في شيء من التأسى ، ولعل أقسى هذه الفتن ما حدث في أعوام ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٢ هـ طبقا لما رواه المؤرخ ابن الجوزى ، لما وقع فيها من ضروب الفوضى بين أتباع المذهبين وانحياز بعض رجالات الدولة من الأتراك إلى صف المتصارعين ، ثم كانت فتنة عام ٤٨٣ هجري ، وكلها أمثله لما كان يمر بالدولة من محن وما ينزل بالناس من كوارث ، كانت لها آثارها في خلخلة الثقة والمودة والتآلف بين رعايا نفس الدولة وسكان نفس الاقليم .

وواضح ان هذه الأحداث تصبح خطيرة بالنسبة لكيان الدولة ذاتها وسياستها اذا وجدت هذه الفتن العون الخارجى لاذكائها

وازدياد إضرامها كما حدث فعلا . هذا بالرغم من قدم هذه المنازعات المذهبية ، قبل تنافس الخلافتين .

هذا ما شهده العراق ، أما في مصر فقد عرف الناس نوعا من هذا النزاع أيضا بين أنصار السنة وأنصار الشيعة ، حتى ليحدثنا المقريزى أن مصر لم تكن تخلوا من الفتن في يوم عاشورا عند قبر كلثم وقبر نفيسة بنت الحسين بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب .

وهكذا شهد العالم الاسلامى صور الخلاف و التصادم بين الطوائف المختلفة امتدت الى ما قبل بروز التنافس بين الخلافتين السنية والشيعية على المستوى الرسمى ، ربما إلى عهد الفتنة الكبرى ، وعهد على ابن ألى طالب الاأننا نلمس عظم الشقاق والانقسام في القرن الخامس الهجرى على وجه الخصوص ، وهى المرحلة التى تعنينا في تقييم آثار هذه الانقسامات المذهبية .

ثم كان التنافس والتنازع بين الخلافتين على المستوى الرسمى تجسيما لحالة الفوضى الدينية التى شهدها المشرق ، وما نجم عن ذلك من ضعف القوى الإسلامية وصرف جانب من اهتمام المسلمين إلى هذه الناحية ، وإيجاد حالة من البلبلة في العالم الاسلامى كله .

ويكفي لتأكيد هذا ، انصراف العباسيين إلى محاولة التشكيك في نسب الفاطميين وعمل المحاضر بذلك وأخذ توقيعات القضاة والشهود والأشراف واتهام الفاطميين بأنهم ديصانية ، وأنهم مارقون ، وانصراف الفاطميين إلى محاولة انتزاع زعامة العالم اللاسلامى من الخلافة العباسية ، وذلك بدلا من توحيد قوى المسلمين واستعادة مكانة الاسلام وإرجاعه إلى سالف عزه وسالف مجده .

كل هذا يجعلنا نعطى هذه القضية قدرا كافيا من الاهتمام باعتبارها عاملا هاما فيما أكنتف المنطقة من تمزق وتفكك ، وإن كنا مضطرين للرجوع إلى الوراء قليلا لعرض أصول هذا الانقسام المذهبى وتتبع جذوره . على أننا يجب أن نسرع إلى تسجيل ملاحظة هامة قبل أن نعرض هذا الموضوع وهى أن ازدياد التنازع والاختلاف بين الاتجاهين ، أرتبط كثيرا بمحاولة الدولة الفاطمية تفويض دعائم الدولة العباسية ، ومد السيادة الفاطمية على ولايات وأقاليم دانت زمنا للعباسيين سياسيا أو روحيا ، فلا شك أن حرص الفاطميين على مد نفوذهم في المشرق بما يعنية ذلك من اتساع هيبتهم وقوتهم ، صاحبه محاولة القضاء على المذهب السنى بل ومحاولة اجتثاثه من أساسه في بعض مراحل هذا التنافس والصراع ، وإحلال المذهب الشيعى محله .

كانت الجبهة الأولى كمجال للتنافس والتنازع السياسى والمذهبى بين الفاطميين والعباسيين هى بلاد الشام ، بعد استيلاء الفاطميين على مصر إذ شهدت بلاد الشام امتداد النفوذ الفاطمى وما استتبعه من محاولة نشر المذهب الشيعى بها . حقيقة كانت بلاد الشام مرتعا للإنقسامات السياسية منذ أن ضعفت الخلافة العباسية ، وفقد الخليفة العباسى القدرة على الاحتفاظ بوحدة الدولة ، وانسلخت الأقاليم عن طاعته فشهدت بلاد الشام حكم الطولونيين والاخشيديين والحمدانيين ن فضلا عن نفوذ القبائل العربية بشماله وجنوبه ، الاأن الوحدة الروحية والمذهبية ظللت هذه البلاد كثيرا ولم تشهد تطاحنا وانقساما دينيا كبيرا كما حدث بعد نشاط الفاطميين فيها ومحاولاتهم الدائبة نشر دعوتهم ، وكما حدث مثلا في العراق فإذا كانت البلاد قد فقدت وحدتها السياسية ، فإنها لم تكن قد فقدت وحدتها الروحية والمذهبية ، ومن هنا تبدو أهمية الدور الذى لعبته الخلافة الفاطمية الشيعية في تغذية الانقسامات المذهبية بهذه البلاد .

المعروف أن الفاطميين استولوا على مصر عام ٩٦٨م (٣٥٨هـ) ونقلوا اليها خلافتهم الشيعية عام ٩٧٢م (٣٦٢هـ) ومن ثم تطلعوا إلى مد نفوذهم إلى بلاد الشام والى العراق ومنازعة الخلافة السنية زعامتها للعالم السلامى ، وقد نجح الفاطميون إلى

حد بعيد في بسط سيطرتهم على بلاد الشام كلها تقريبا في الفترة بين ١٠٣٨-١٠٥٨م باستثناء مدينة أنطاكية التى ظلت في حوزة البيزنطيين ، ولم يكد ينتصف القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) حتى كانوا قد بسطوا سلطانهم على معظم جهات الشام وغربي الجزيرة .

والذى يهمنا في هذا أن امتداد النفوذ الفاطمى في بلاد الشام وما استتبعه من محاولة نشر المذهب الشيعى ، وإقامة شعائره في الخطبة والأذان وغير ذلك ، قد أوجد نوعا من النفور بين طوائف السنة في هذه البلاد ، كما أن اجتذاب أنصار للمذهب الفاطمى هناك أيضا فتت الوحدة الشعبية وأوجد بذورا للانقسام الذى نما وكبر بعد ذلك ، إذ ليس من شك في أن المذهب الشيعى الفاطمى قد وجد طريقا إلى بعض التجمعات الاسلامية في جهات متفرقة من بلاد الشام في هذه الفترة بالذات التى صاحبت إمتداد السيادة الفاطمية إذا نسمع عن جماعات " حاكمية " " وآمرية " فضلا عن الدروز والنصيرية والرافضة وغيرهم من غلاة الشيعة ، منتشرين في قلب سوريا وإلى الجهات الساحلية (لبنان) بالقرب من دمشق وفي جبل السماق وقرب صفد وفي جهات أخرى من بلاد الشام .

ورغم ذلك قوبلت محاولات الفاطميين لنشر دعوتهم بمعارضة واستنكار في جهات أخرى من بلاد الشام . فربما

استكان الناس أحيانا من الخوف إلا أن النفور مع ذلك لم تمح معالمه بين طوائف السنة ، وكلها تأكيدات جديدة لحالة البلبلة والفوضى الدينية التى عاشها المسلمون في ذلك الوقت .

ولكن الأثر الأكبر لإمتداد النفوذ الفاطمى السياسى والدينى في بلاد الشام جاء على حساب الوحدة الاسلامية ، وباعد الشقة بين الخلافتين في بغداد والقاهرة ، ووسع الهوة بينهما بما لا يحتمل معها تقاربا بينهما في أى وقت ، بل إرهاصا بمصادمات وحروب ، إذ ظل الفاطميون متحفزين لمد سيادتهم في كل الجهات الخاضعة للعباسيين ، في الوقت الذى نظر فيه هؤلاء إلى المحاولات الفاطمية نظرة ملؤها الكراهية والحقد ، دون استطاعتهم عمل شىء حاسم يوقف هذا الزحف الشيعى ، نظرا لأن دولتهم كانت تعانى الموت البطىء وتظهر كدولة بدت عليها مخايل السقوط .

أما الجهة الثانية في مجال التنافس بين الخلافتين ، فقد رغب الفاطميون في جعلها بلاد العراق ذاتها مركز الخلافة العباسية ، راعية المذهب السنى ، والحقيقة أن الفاطميين مثلما قدر لهم التفوق في بلاد الشام في النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، قدر لهم أيضا أن يحرزوا بعض النجاح في الجهة الثانية في بلاد العراق ، واستطاعوا ان يصلوا بهذا التفوق مداه ، حين إقيمت الخطبة في بغداد ذاتها للخليفة الفاطمى المستنصر بالله قرب

منتصف هذا القرن ، وكان تطور الأحداث في صالحهم على هذا النحو مدعاة لقدوم السلاجقة السنيين ، وإستيلائهم على مقاليد السلطة في بغداد ، ووضع الخلافة العباسية تحت الحماية السلوجقية والتصدى لنشاط الفاطميين في المشرق .

ففي بلاد العراق – الجهة الثانية – التى عمل فيها الفاطميون لسلب العباسيين زعامة العالم الإسلامى ، دأب الفاطميون من البداية أى منذ ظهور دولتهم ، على بث دعوتهم فيها وجذب أنصار لمذهبهم من أهلها ، وساعدهم على ذلك ظهور الدعوة القرمطية في جنوب العراق وهى دعوة قريبة الشبه بالدعوة الإسماعيلية ومن ثم تطلعوا إلى استئصال شأفة الخلافة العباسية ، وخاصة بعد دخول البويهيين بغداد ، وسلبهم الخليفة العباسى ما بقى في يده من السلطة ، وكان البويهيون يعتنقون المذهب الشيعى على مبادىء الزيدية ، كما كانوا أكثر استعدادا لإقامة الخلافة الشيعية ببغداد ، لولا خوفهم على قوتهم وسلطانهم بالدولة ومع هذا غضوا الطرف عن دعاة الفاطميين في البلاد الخاضعة لنفوذهم وكان نتيجة ذلك أن لقيت الدعوة الفاطمية رواجا في بعض جهات العراق فأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمى العزيز بالله بالموصل ثم للخليفة الحاكم بأمر الله بالموصل وأعمالها والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها

عام ١٠١٠م (٤٠١هـ) على يد الأمير قرواش بن المقلد أمير بني عقيل .

عذت الفرصة مواتية لعمل أكثر جدية ضد هذه الخلافة في بغداد وهو ما حدث على يد البساسيرى قرب منتصف القرن الخامس الهجرى ، ذلك أن البساسيرى ويدعى أبو الحارث أرسلان البساسيرى كان من قواد بنى بوية الأتراك واستطاع أن يمكن لنفسه ببغداد حتى عينه الخليفة العباسى القائم بأمر الله ١٠٣٠ – ١٠٧٤م (٤٢٢ –٤٦٧هـ) رئيسا للاتراك " وقلده الأمور ... وقدمه على جميع الأقران " إلا أن العلاقة سرعان ما ساءت بيه وبين الخليفة بسبب السعاية بينهما ولإتهام الخليفة إياه بالتدبير ضده وعزمه على خلعه وبمكاتبة الفاطميين .

وكان البساسيرى قد تأثر فعلا بالدعوة الفاطمية وأصبح يرى ضرورة العمل من أجلها وخاصة بعد ساءت علاقته بالخليفة العباسى ، لذلك إضطر الخليفة أن يراسل طغرلبك السلجوقى عام ١٠٥٤م (٤٤٦هـ) سرا يحثه على المسير إلى العراق وكان إذ ذاك بنواحى خراسان وكان طغرلبك سنيا حنفيا متعصبا ، فلذا لم يتوان عن تلبية طلب الخليفة لحمايته من ناحية ولبسط نفوذ السلاجقة على العراق بعد أن دان لهم المشرق بالسيادة من ناحية أخرى .

قدم طغرلبك إلى بغداد في نهاية عام ١٠٥٥م (٤٤٧هـ) ، وهرب البساسيرى منها إلى الرحبة ومنها كاتب الخليفة المستنصر الفاطمى يذكر له " كونه في طاعته ، وانه على إقامة الدعوة له بالعراق فأمده بالأموال وولاه الرحبة " وغادر طغرلبك بغداد في نهاية سنة ٤٤٨هـ .

لم تدع الخلافة الفاطمية تأجيجا لنار الصراع والتنافس بينها وبين الخلافة العباسية وحماتها الجدد ، هذه الفرصة المواتية ، فلم تأل جهدا في مد البساسيرى بالمعونة والمساعدة حتى يقف في وجه الخليفة العباسى فما لبث بفضل هذه المعونة وبفضل مبعوث الخلافة الفاطمية المؤيد في الدين هبة الله الشيرازى داعى الدعاة ، أن قوى آمره في شمال الشام وشمال العراق ، وانحاز إليهما صاحب حلب ثمال بن صالح بن مرداس ، وصاحب الموصل قريش بن بدران ، كما استطاع المؤيد في الدين استمالة دبيس بن مزيد وغدا نجاح البساسيرى أمرا ميسورا .

وفي تلك الأثناء شغل طغرلبك ، بالثورة التي أحداثها أخوه إبراهيم ينال بخروجه عليه ومفارقته اياه ، قاصدا همدان من بلاد الجبل " وقد قيل أن المصريين كاتبوه " مما اضطر طغرلبك إلى المسير في أثره للقضاء على فتنته ، وما حدث من اضطراب أمور المشرق خلال تلك الفتنة انعكس على بغداد " فاضطربت ..

وأرجف المرجفون باقتراب البساسيرى " الذى لم يجد صعوبة كبيرة في دخول بغداد في ذى القعدة سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٨م) "ومعه الرايات المصرية " وفي صحبته قريش بن بدران العقيلى ، فأقام الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمى في جامع المنصور ، بعد ان أتى رجاله كثيرا من أعمال السلب والنهب وإحراق الأسواق والتعدى على دار الخلافة ، حتى لجأالخليفة العباسى إلى قريش بن بدران الذى بعث به إلى حديثة عانة .

وصفت الأمور للبساسيرى في بغداد ، فأخذ يعمل على إحلال السيادة الفاطمية محل العباسية في أنحاء العراق ، فقام بفتح واسط والبصرة ، وأقام فيهما الخطبة للمستنصر بالرغم من انه لم يلق معاونة من الفاطميين ، في هذا الدور من أدوار مناهضته العباسيين ،ومع هذا فقد ظل مخلصا للفاطميين يحاول نشر دعوتهم في أرجاء العراق جميعا .

أما طغرلبك فبعد أن قضى على فتنة أخيه إبراهيم ينال ، أصبح في وضع يسمح له باستئناف العمل ضد البساسيرى ، فسار إلى بغداد ، فلما قاربها ، فارقها البساسيرى وانسحب إلى الكوفة بمن معه ، وأرسل طغرلبك في طلب الخليفة ، واستقبله عند النهروان " وقبل الأرض بين يديه سبع مرات " ثم أرسل جيشا تتبع البساسيرى ، وأوقع به الهزيمة وقتله في نهاية عام ١٠٥٩م

(٤٥١هـ) وبذلك زال نفوذ الفاطميين نهائيا من بغداد وأعيدت الخطبة للعباسيين ، ووضعت الخلافة السنية تحت حماية السلاجقه لأول مرة التاريخ كما انتهى بذلك دور هام في الصراع بين المذهبين السنى والشيعى كانت الغلبة فيه لأهل الشيعة .

ولعله لا يغيب عن الذهن أن محاولة انتزاع زعامة العالم الاسلامى من الخلافة العباسية ، كانت الهدف الأكبر لمحاولات الفاطميين في هذا الدور ، والدليل على ذلك ، بالإضافة إلى ماذكر، ما رواه المؤرخ ابن ميسر من أن الفاطميين سعوا للحصول على اعتراف الدولة البيزنطية بزعامتهم للعالم الاسلامى فيذكر أن القاضى أبا عبد الله القضاعى كان قد توجه من مصر إلى القسطنطية ، برسالة في عام ٤٤٧ هـ(١٠٥٥م) . وفي نفس الوقت وصل رسول طغرلبك إلى القسطنطينية ، يلتمس من ملكتها أن يصلى في جامع القسطنطينية ، فأذنت له في ذلك فدخل وصلى بجامعها ، وخطب للخليفة القائم العباسى فبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر ، فتضايق هذا وأمر بالقبض " على جميع ما في كنيسة القيامة .. وكان هذا من الأسباب الموجبة لفساد ما بين المصريين والروم " .وواضح أن الفاطميين أساءهم كثيرا فوز السنيين بهذا الاعتراف من الدولة البيزنطية .

وعلى أى حال كان فرض الحماية السلوجوقية على الخلافة السنية في بغداد بداية دور جديد في قصة النزاع بين المذهبين ، كانت فيه كفة أهل السنة هى الأرجح في النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى بفضل هذه الحماية الفتية وما أضفته من هيبة على أهل السنة ، وبفضل الجهود التى بذلها أيضا نخبة من فقهاء الإسلام لإحياء السنة وإعطائها دفعات قوية لتجابه النزعات والنحل الأخرى وخاصة من داخلها ، ولعل أبرز أولئك الفقهاء حجة الإسلام الذائع الصيت الغزالى (٤٥٠ _ ٥٠٥هـ) الذى يرجع اليه الفضل في إتمام النصر للسنة على أهل الاعتزال هذا من جهة ومن جهة أخرى كان للظروف التى مر بها أقطاب المذهب الشيعى في مصر وما نزل بهم من محن في ذلك الوقت أثر فيما حل لمذهبهم من انتكاسات .

فقد أخذت السيادة الفاطمية تنحسر عن أقاليم كثيرة وبلاد عدة جاهدوا في البداية لضمها لحظيرتهم ونشر دعوتهم بها ، وبدأ نشاط السلاجقة وخاصة على عهد ألب أرسلان وملكشاه يقوض دعائم السيادة الفاطمية ومذهبها الشيعى . ففي عام ١٠٧١م (٤٦٣ هـ) أخضع ألب أرسلان صاحب حلب المرداسى الذى سارع بقطع الخطبة العلوية وأقام الخطبة العباسية ، كما بادر أمير مكة بالدعوة للخليفة القائم بأمر الله العباسى والسلطان ألب ارسلان ،

وتمكن أتسز التركمانى من الاستيلاء على بيت المقدس والرملة ثم دمشق عام ١٠٧٥ م ، وأزال منـها النفوذ الفـاطمى وأبطـل الآذان "بحي علـى خـير العمـل " وغـدا المذهـب الشـيعى يعـانى تضبيقـا شديدا في هذه البلاد .

وصل الأمر حد إقامة الخطبة للخليفة العباسى القائم بأمر الله في مصر ذاتها في جميع أنحاء الوجه البحرى وذلك بفضل حركـة ناصر الدولة الحسـين بـن حمـدان التغلبـى الـذى كـان يتولـى قيـادة التراك في جيش الخلافة الفاطمية ، ولكنـه خلـع طاعـة المسـتنصر بالله عام ١٠٧٠م (٤٦٠هـ) ، وكـاتب السـلاجقة لإمـداده بـالنجدة ليقيم الدعوة العباسية بمصر على أن تؤول اليه السيادة على مصـر جميعها . فرحب بذلك السلطان ألب أرسلان إلا أنه شغل في العـام التالى بحرب البيزنطيين .

غير ان ناصر الدولة لم ينثن عـن عزمـه فسـار إلـى مصـر حيث أوقع بالجيش الذى انفذه المستنصر لمحاربته ، وحذف اسـمه من الخطبة عام ١٠٧٢ م في الوجه البحرى وسـار بجيشـه الكبـير من العرب والبربر إلى الفسطاط فتولى الحكم فيـها ، ثـم سـار إلـى القاهرة وبالغ في إهانة الخليفة الفاطمى " وكان يظهر التسـنن بيـن اهله ويعيب المستنصر " إلا أن حركتـه لـم يقـدر لـها النجـاح فـي النهاية إذ سرعان ما ثار به التراك ووضعوا حدا لمشروعاته .

وليس من شك في أن ضعف نفوذ المذهب الشيعى في هذا الدور ارتكز أساسا على بعض العوامل الداخلية في مصر ، مما جعل الدعوة الفاطمية تعانى ضغطا شديدا من المد السنى الجارف في المنطقة ، فبالاضافة إلى ضعف شخصية الخليفة المستنصر بالله ، وطول مدة حكمه ن وتحكم الوزراء في الدولة ونزول الكوارث الاقتصادية بمصر ساهم الانقسام الذى حدث بين الإسماعيلية أنفسهم بعد موت المستنصر إلى نزاريه ومستعليه والانقلاب السياسى الذى قام به الوزير الأفضل في تنحية نزار وتوليته المستعلى الحكم ، في إضعاف الدعوة الفاطمية وجعلها أكثر ميلا إلى الاستكانة لضربات أهل السنة ، والمجاهدة في الحفاظ على ما بيدها من أقاليم وعدم الرغبة في مد السيادة الشيعية أكثر من ذلك ، فتركت الجو ممهدا لعمل الجبهة الأخرى .

ويستنتج من كل ما سبق أنه كما شهد النصف الأول من القرن الخامس الهجرى مدا شيعيا في قلب الخلافة العباسية ، حتى قامت الدعوة الفاطمية في بغداد نفسها على يد البساسيرى لمدة عام تقريبا ، شهد النصف الثانى من هذا القرن أيضا رد الفعل عند السلاجقة بصفتهم حماة المذهب السنى ، حتى قامت بمصر الخطبة للخليفة العباسى على منابر الوجه البحرى ، وذلك بفضل حركة ناصر الدولة الحسين بن حمدان ، وكما لم يقدر للبساسيرى النجاح

في حركته أكثر من عام في بغداد ، لم يقدر أيضا النجاح لناصر الدولة في مصر أكثر من ذلك . هذا كله يؤكد ان الفترة السابقة لوصول الصليبيين شهدت صراعا كبيرا بين أنصار المذهبين تنافسا على السيادتين الزمنية والروحية في العالم الاسلامى وذلك على المستوى الكبير بين الخلافتين والحكومتين في بغداد والقاهرة – وعلى المستوى الشعبى بين الطوائف المختلفة في العراق وفي مصر وفي الشام وفارس وغيرها من اقطار العالم الاسلامى ، وفي كل الأحوال عانى العالم الاسلامى نتائج هذا الانقسام .

على أن الدارس لايستطيع أن يغفل أثر الدعوة الإسماعيلية وأتباعها من الباطنية والتى لقيت رواجا كبيرا في المشرق في فترة الحروب الصليبية وكان لها آثار بعيدة المدى بالنسبة لحركة الجهاد الدينى على وجه الخصوص ، ذلك أن كثيرا من دعاة الجهاد الدينى والشخصيات البارزة حينئذ لقيت مصرعها على يد اتباع هذا المذهب في شىء من الوحشية مما نتج عنه تصدع الجبهة الاسلامية في مواجهة الصليبيين في بعض مراحل الجهاد الدينى ضدهم ، وخلا الميدان احيانا من شخصيات تفجر طاقة المسلمين في مناهضة الاستقرار اللاتينى في المنطقة نتيجة لهذه الاغتيالات حتى لنعجب من قصور همة أتباع هذا المذهب ومؤيدى الانقسام الطائفي حينذاك عن النيل من الجبهة الصليبية

وتوجيه همتهم إلى الجانب الاسلامى والقيام بالاغتيـالات السياسـية لكثير مـن الرجـال الذيـن مـا برحـوا يحملـون لـواء الجـهاد ضـد الصليبيين . وكيفما كان الأمر فان جذور الانقسام المذهبى كانت قد امتدت إلى ماقبل الغزو الصليبـى ورسـخت فـي أعمـاق المسـلمين ولونت علاقتهم فيما بينهم ، بل إن الانقسامات الداخليـة بيـن اتبـاع المذهبين أنفسهم ، بين الشافعية والحنفية والحنابلة من أهل السـنة ، والإسماعيلية والنصيرية والدروز والحشيشـية مـن الشـيعة كـانت مظهرا من مظاهر التفـت والفوضـى ايضـا وتـأكيدا لسـريان روح التعصب الطائفي والانحلال الفكرى .

وبوصولنا إلى الفترة السابقة مباشرة للحروب الصليبية نجـد ان الفتنة بين السنة والشيعة في بغداد لم تنقطع أيام السلطان ملكشاه وقبل الغزو الصليبى بسنوات قليلة وعلى المسـتوى الشـعبى ، وقـد أظهر هذا السلطان شيئا من الاعتدال في معالجـة هـذه الفتـن حتـى اتهم باللين في معاملة الشيعة " وكثر الكلام على السـلطان ، وقـال العوام هلك الدين وماتت السنة " بل اتـهم ملكشـاه صراحـة بـالميل إلى عقيدة الباطنية .

حقيقة حاول السلطان ملكشاه تخفيف حدة التوتر بيـن انصـار المذهبيـن ويؤكـد هـذا زيارتـه لمشـهد الحسـين فـي عـام ٤٧٩ هــ (١٠٨٦ م) حيث أمر بعمارة سوره ، كمـا زار مشـهد علـى عليـه

السلام "وأطلق لمن فيه ثلثمائة دينار — وتقدم باستخراج نهر من الفرات يطرح الماء إلى النجف " . إلا أن ذلك لم يكن يعني ميله إلى هذا المذهب ، وقلة تحمسه للمذهب السني بل أن المتتبع للعلاقات بين هذا السلطان وبين الخليفة المقتدى (٤٦٧ — ٤٨٧ هـ) يستطيع في يسر وسهولة فهم الفتور الذى اعترى تلك العلاقات في بعض أدوارها حتى تحدثنا النصوص أن ملك شاه قدم بغداد لآخر مرة في حياته عام ١٠٩٢ م (٤٨٥ هـ) وفي نيته إخراج المقتدى من بغداد ، وفضلا عن ذلك يبدو أن ملك شاه أراد بزيارة تلك المشاهد التى يعظمها الشيعة تخفيف حدة التوتر ، وتقليل روح التعصب والفتنة بين الطوائف في بغداد ، فجهود ملك شاه ضد النفوذ الفاطمي الشيعي في الشام وفلسطين بل ورغبته في غزو مصر نفسها ، ينفي عنه اللين في مجابهة هذه الدعوة ، بل ان تتبعه لدعاة الإسماعيلية ببلاد فارس وتشدده في معاملتهم وتشدد وزيره نظام الملك تجاه الشيعة كلها قرائن تؤكد عزوف ملك شاه عن الميل إلى الإتجاه الآخر .

وهكذا ارتبطت السيادة السلوجقية على العراق والجزيرة ومعظم جهات الشام ، بنصر للمذهب السنى على حساب السيادة والنفوذ الدينى والسياسى الفاطمى ، ولعل في ذلك تجسيم لازدياد الهوة بين المذهبين وخاصة في الربع الأخير من القرن الحادى

عشر الميلادي (الخامس الهجري) وهى الفترة السابقة للغزو الصليبي للمنطقة ، فان لم يكن هذا النزاع المذهبي هو المسئول الوحيد عن الحروب التي أدت إلى ظهور الدويلات المستقلة الكثيرة في غربى آسيا فانه ليس بريئا من مسئولية التشاحن الفكري بين طبقات الأمة والصراع الطائفي بينهم ،.وهى التى تجعلهم أكثر استعدادا لتغليب الاتجاه الانعزالى والنزعة الانفصالية القائمة على أسس طائفية أو مذهبية أو عنصرية فلا شك أن الوحدة الروحية تلقى ظلها على الاتجاهات السياسية في الأمم وتجعلها أكثر تقبلا لفكرة العالمية ونبذ الفكرة الإقليمية .

... ...

ب-عدم إدراك الخلافة الفاطمية لحقيقة الخطر الصليبي في أول أمره :

على أن الخطأ الأكبر الذى وقع فيه المسلمون ، في فهم طبيعة الحملة الصليبية الأولي وهدفها جاء من قبل الفاطميين في مصر الذين أظهروا الفرح والترحيب بمجيء الصليبيين وتقويضهم قوة الأتراك السلاجقة في شمال الشام ، ونظروا إلى الفرنج نظرتهم إلى حليف قوى يمكن ان يثقوا في صداقته ومحالفته ضد عدوهم التقليدي ، السلاجقة كما سرهم ما وقع فيه هؤلاء في شمال الشام من فوضى واضطراب على إثر وصول الصليبيين ، وأظهروا اغتباطهم بذلك بطريقة استرعت انتباه المعاصرين واللاحقين حتى ليعبر ابن الأثير عن ذلك حين يستهل حديثه عن وصول الفرنج إلى أنطاكية بقوله " وقيل أن أصحاب مصر من العلويين ... أرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكونوا بينهم وبين المسلمين والله أعلم ."

---

(١) نفس المرجع
(٢) Encyc.Isi.Art. (Alafdal)by G. Wiet
(٣) Lane-poole : A History of Egypt. P. 164
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٥ (احداث سنة ٤٩١)

ولكن في الحقيقة كانت العداوة والبغضاء بين الفاطميين والسلاجقة وهى التى لونت سياسة الفاطميين إذ ذاك وأملت عليهم إتخاذ هذا الموقف ، تستند أساسا إلى الاختلاف العرقى والاختلاف المذهبى بين الاثنين – كما سبق أن أوضحنا – وإلى ماقام به السلاجقة من القضاء على نفوذ الفاطميين في بلاد الشام من قبل ، والاستيلاء على معظم البلاد التى كانت تابعة للخلافة الفاطمية .

فما أن نزل الصليبيون على أنطاكية ، وأخذوا في حصارها ، حتى سارع الأفضل – حاكم مصر الفعلى ١٠٩٥-١١٢١م (٤٨٨-٥١٤هـ) إلى إرسال سفارة اليهم تحمل معها بعض الاقتراحات مؤداها ، طلب عقد محالفه مع الجيوش الصليبية ، وتقسيم أملاك الأتراك السلاجقه على أن يكون شمال الشام من نصيب الصليبيين، أما فلسطين فتكون من نصيب الفاطميين[1] .

ولم يجد الصليبيون بدأمن التظاهر بقبول هذه المقترحات ، ريثما تتحسن ظروفهم عند أنطاكية ويستطيعون تحديد اجاههم من هذه المسائل في الوقت الذى اعتقد فيه الفاطميون أن هذا التحالف قد وضع نهاية للحكم السلجوقى في الشام ، وأنهم أصبحوا القوة الوحيدة بفلسطين ، ومن ثم أخذوا يتصرفون طبقا لهذا المفهوم

Grousset : L,empire du Levant. P. 191.(1)
Runcinan : Op. cit. I. 229.

الأمر الذى ضاعف من اضطراب السلاجقة في ذلك الوقت وفت في عضدهم .

ومن جهل الأفضل أيضا بهذا الغزو اعتقاده أن هؤلاء الصليبيين ليسوا إلا مأجورين لدى الإمبراطور البيزنطى[1] ، مما باعد بينه وبين الفهم الواقعى لحقيقة الصليبيين ومشروعاتهم في الشرق أى أن الفاطميين لم يعتبروا الانتصارات التى أحرزها الصليبيون على سلاجقة الروم في ضور ليوم وعلى سلاجقة الشام وفارس عند أنطاكية ، كارثة حلت بالمسلمين عامة ، وإنما وجدوا فيها تحقيق أمنية عزيزة هى تخليص الشرق الأدنى من سيطرة الأتراك السنيين[2] .

وطبقا لهذا الفهم أرسل الأفضل سفارته إلى الصليبيين أمام أنطاكية فاستقبلت بشىء من الحفاوة ، ومكثت بمعسكر الصليبيين عدة أسابيع ، ثم عادت إلى مصر مصحوبة بسفارة صليبية صغيرة محملة بالهدايا – التى عمد الصليبيون إلى جعلها من الأسلاب والمغانم التى غنموها من الحلبيين[3] رغم ما في ذلك من سخرية بكافة القوى الإسلامية وعلى أى حال كان سلوك الصليبيين طريق المفاوضات مع الفاطميين ، مع عدم استعدادهم لتغيير شىء من

(1) Puncimau : op. cit. 1. p.229.
(2) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٣٦ .
(3) Runciman : op. cit. I. P. 229.

خططهم ، خير دليل على ما لجأوا اليه من الخداع والتمويه وإيقاع الفتنة والدسائس بين القوى الاسلامية لبلوغ أهدافهم الذاتية[١] .

انتهز الأفضل هذه الظروف المواتية ، وخرج على رأس جيش كبير قاصدا بيت المقدس لإستعادتها ، فلما وجد مقاومة من الأراتقة ، إضطر إلى " نصب المجانيق عليها " وأخذ في ضربها حتى تهدم جانب من سورها وبعض استحكاماتها[٢] ، وعند ذلك سلمت المدينة وعادت إلى حظيرة الدولة الفاطمية عام ١٠٩٨م (٤٩١هـ) وخرج منها سقمان وايلغازى أبناء أرتق فتوجه سقمان إلى الجزيرة ورحل ايلغازى إلى العراق .

على أن ما يستوقف الدارس في هذه الأحداث ، وما يهمنا لإظهار نتائج عدم فهم الأفضل لحقيقة الخطر الصليبى ، بالإضافة إلى ما أحدثه غزوه لبيت المقدس من شقاق بين قوى المسلمين واضراب السلاجقة في وقت كانوا أحوج فيه إلى المعاضدة والمعونة للوقوف في في وجه الغزاة وجعلهم بين نارين في الشمال والجنوب ، حتى دقاق ملك دمشق أقلقته تحركات الفاطميين في فلسطين أكثر مما أقلقه احتلال الصليبيين لأنطاكية ورغب في الانسحاب من بين صفوف المسلمين عند أنطاكية مخافة أن يتفاقم خطر الفاطميين بالنسبة لأملاكه في جنوب الشام – أقول بالأضافة

---

(1) Runciman : op. cit. I. P. 230.

(2) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥

إلى كل هذا فإن تعرض مدينة بيت المقدس للهجوم الفاطمى ، وما أصابها من خسائر ، وما لحق بها من أضرار ، قد أضعفها في مواجهة الحملة الصليبية التى ما لبثت أن وصلت اليها بعد أقل من عام ، دون استعداد كاف من حماتها الجدد المخدوعين في حلفائهم الصليبيين ، وكذلك من نتائج الفتح الفاطمى لهذه المدينة أن خرج منها الأرتقيون ، وهم عناصر نشطة بحكم تجاربهم في الحروب السابقة في بلاد الشام وغيرها ، وربما كانوا أكثر تحملا لمصاعب الحصار الذى فرضه الصليبيون على المدينة قبل أن تسقط في أيديهم[1] .

وهكذا فات الأفضل في الأدوار الأولى للزحف الصليبى معرفة حقيقة هذا الغزو ومقاصده وهو قصور في فهم طبيعة الأمور ، ومجرياتها ، وقع فيه حكام مصر إذ ذاك خطأ ، ووفرة في حسن النية ترتبت عليها أوخم النتائج . فالواقع أنه لو أتيح للفاطميين التعاون مع بقية القوى الإسلامية للقيام بعمل موحد ضد هذا الخطر في أول أمره لأمكن وضع حد لأطماعه ومشروعاته بدلا من ترك الحرية له في شمال الشام للانتصار على قوى السلاجقة ثم التحول الطبيعى جهة الفاطميين والانتصار عليهم أيضا وسط ذهول الجميع ، ومن ثم يصبح استقراره أمرا واقعا

---

(١) Lane-poole : A Hist. Of Egypt. P. 164.
(٢) Conder : The Latin Kingdom. P. 63.

أيضا وسط ذهول الجميع ، ومن ثم يصبح استقراره أمرا واقعا ويصبح إخراجه يحتاج إلى شيء كبير من الصبر والمثابرة والجهاد .

على أن الحقيقة لم تغب طويلا عن الأفضل ، إذ سرعان ما تنبه لأهداف الصليبيين ومقاصدهم وذلك حين بدأوا في الزحف جنوبا بعد أن تم لهم الاستيلاء على أنطاكية نهائيا ، وفلوا قوة السلاجقة أمامها وبدءوا مشروعهم الكبير نحو الأراضي المقدسة ، فمن قبل تظاهروا بموادعة الفاطميين ومحالفتهم ، حتى يتاح لهم القضاء على أكبر عقبة في طريقهم وهم السلاجقة بشمال الشام ، فلما تم لهم ذلك ، لم يبق أمامهم سوى الفاطميين بجنوبه ، وهم الجانب الأضعف في قوى المسلمين تركوا هدمه إلى آخر المطاف إيمانا منهم بأنهم لا يشكلون خطرا ذا بال على مشروعاتهم ، وتشير كثير من الدلائل إلى أن الصليبيين أظهروا كثيرا من الاستخفاف بالفاطميين ولم يبدو نحوهم آي نوع من الاحترام بعكس ما أظهروه تجاه السلاجقة ، وما كانوا يشعرون به أمامهم من الخوف ، رغم تفكك السلاجقة وضعفهم ، وظهر ذلك في كتابات مؤرخيهم المرافقين بما لا يدع مجالا للشك في المنزلة السامية التي احتلها الترك لديهم رغم ما تطفح به قلوبهم من الكراهية لهم ، ويرجع ذلك دون شك إلى أن السلاجقة لم يحكموا

معهم سوى السيف ولم يعرفوا معهم طريقا سوى طريق الحرب بعكس الفاطميين الذين حاولوا المناورة وسلكوا طريق المفاوضات ولجئوا إلى محاولة التحالف مع عدو حطم قوة إخوانهم في الدين ، قصورا منهم ، ودعة تخرج بهم عن نطاق الشهامة إلى حد الإسفاف .

ولما تأكد الأفضل من نقض الصليبيين لتحالفهم وسيرهم جنوبا في طريقهم إلى الأراضي المقدسة بادر بإرسال سفارة عاجلة إليهم ، قابلتهم عند طرابلس ، تحمل بعض الهدايا والأموال لزعماء الصليبيين وتحمل لهم عرضا مغريا من الخليفة الفاطمي مؤداه : أن تقوم الدولة الفاطمية بتسهيل عملية الحج لهم وزيارة الأراضي المقدسة بفلسطين ، وأن يسمح لهم بأداء شعائرهم الدينية على ألا تزيد مدة إقامتهم بها عن شهر واحد وألا يدخلوها بأسلحتهم أو يدخلوها دفعة واحدة بل في مجموعات لا تزيد عن مائتين أو ثلاثمائة(١) .

تكشف وجه الصليبيين إذ ذاك أمام مبعوث الفاطميين ، لأنهم سرعان ما أعلنوا الحرب صراحة على الدولة الفاطمية ، وأكدوا ذلك بسرعة زحفهم نحو بيت المقدس ، وفرضوا الحصار عليها ، ثم ما لبثوا أن اقتحموها في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ بعد أقل من عام

(١) Guillaume dr Tyr., p.p. 305-6.

(٢) Grousset : Hist. Des Croisades : I. P. 149.

منذ استيلاء الأفضل عليها ، وما أحدثوه من فظائع ووحشية وقتل ونهب بهذه المدينة المقدسة ، كان بمثابة الدرس الأول لحكام مصر في ذلك الوقت .

أما الدرس الثاني الذى تلقاه الأفضل فكان أكثر قسوة ، إذ أنزل به الصليبيون الهزيمة قرب عسقلان في ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩م(١) ، قبل أن يفيق من هول الضربة الأولى ، وذلك حين خرج بقواته لمنعهم عن بيت المقدس ، ووضع حد لخطرهم الدائم - كما سيلي – وعلى أثر الهزيمة الساحقة التي لحقت به وعودته في فلول جيشه إلى مصر في حالة سيئة ، تركت أيدي الصليبيين حرة في الممتلكات الفاطمية في هذه البلاد وكان ذلك أقسى درس تلقاه حكام مصر على أيدي الصليبيين . ولعل ذلك يفسر لنا هدف الحملات الثلاث التي جردها الأفضل في السنوات القليلة التالية ، لمحاولة زحزحة الصليبيين عن بيت المقدس وفلسطين ، وبالرغم من هذا لم يصبه التوفيق فيما قصد إليه ، ولم يستطع في النهاية زحزحتهم عن أماكنهم .

وخلاصة القول فيما يختص بعلاقة الأفضل بالصليبيين في الأدوار الأولى من الحرب الصليبية أنه وقع في خطأ جسيم باعتقاده إمكان التحالف مع الصليبيين كقوة جديدة في المنطقة

---

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ١٣٧، وابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٠ (سنة ٤٩٢ هـ)

عملت على تصفية نفوذ السلاجقة في الشام ، وغاب عنه أن هؤلاء الغزاة لم يخرجوا من أوطانهم ولم يتحملوا كل المصاعب والشدائد التي لاقوها لتتكسر موجهتم أمام مشاعره الفياضة ومظاهر وده وتعبيره عن الشكر والامتنان لهم لتخليصه من قوى الأتراك في شمال الشام وترك يده حرة تجنى ثمار ضربتهم ، لأن مجريات الأمور كانت تحتم عليه فيهما أعمق من ذلك وارتفاعا إلى مستوى الحدث الذى شهده وشارك فيه . فليس من شك في أن الصليبيين كانوا يتوقون إلى الأراضي المقدسة أكثر مما كانوا يرغبون في تصفية نفوذ السلاجقة لحسابهم أو لحساب هذا أو ذاك ، وكانوا ينفذون مخططا ليس في إمكان الأفضل أن يغيره ولو لجأ إلى كل فنون السياسة والدبلوماسية التي برع فيها .

أما الإمارات العربية الصغيرة في شيزر وحمص وطرابلس[1] ، فلقد كان مسلكها تجاه الصليبيين متسما بالمرونة ، وقام على مسالمتهم وعقد تحالفات معهم وتسهيل مهمة العبور لهم في الأراضي التابعة لهذه الإمارات ومدهم بالمؤن وما يحتاجون أليه في سيرهم من الجياد والرجال والأقوات ويرجع ذلك دون شك – بالإضافة إلى تأكد هذه البيوت العربية من عدم جدوى

---

(1) بنو منقذ في شيزر وكان أميرها إذ ذاك عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ (١٠٩٨- ١١٥٤) وجناح الدولة الحسين في حمص (١٠٩٥ – ١١٠٣) وبنو عمار في طرابلس وأميرها إذ ذاك جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار الذى توفى عام ١٠٩٩ فخلفه أخوه أبو على فخر الملك بن عمار (١٠٩٩ – ١١٠٨) .

العرب أيضا بطبيعة الغزو الصليبي وحقيقة أهدافه ، ذلك أن الجموع الصليبية ظلت تحمل في هذا الدور المتقدم اسم" الحجاج " وهى تسمية تنطوي على كثير من المداهنة والتمويه لأنها تحمل إلى الذهن معنى يختلف كثيرا عن حقيقة هؤلاء الغزاة ، ويبدو أن الأمراء العرب لم يفطنوا إلى خداع هذه التسمية واعتقدوا في صحتها بدليل أنهم استعملوها في مراسلتهم مع الصليبيين[١] .

وقد حفظت لنا المصنفات المعاصرة مضمون رسالة أمير شيزر إلى الكونت ريموند ، والصليبيون يعبرون أراضى تابعة لهذا الأمير ، وهى رسالة لا تشير أبدا إلى فهم هذا الأمير لحقيقة الصليبيين وغزوهم لبلاد الشرق ، بل على عكس ذلك تؤكد بعد هذا الأمير العربي عن الفهم الواقعي لهذا الخطر . وكما فعل ابن منقذ أمير شيزر فعل جناح الدولة أمير حمص ، وابن عمار أمير طرابلس حيث أرسلا الرسل إلى الصليبيين حاملين الهدايا والأموال والجياد ووعودا بالمساعدة والموادعة[٢]، والواقع أنه إن دل ذلك من الأمراء العرب على تقدير لقوة الصليبيين وغلبتهم فأنه يدل أيضا على نقص خطير في إدراك حقيقة الغزو الصليبي وخطره على القوى الإسلامية كافة .

Gesta Francorum, p 78. (1)
Ranslated into English by somerset de Chair (2)
a Francorum, p. 83.

والحقيقة أن القوة الوحيدة التي أدركت بعض خطر الصليبيين منذ البداية هم السلاجقة لذلك لم يؤثروا المسالمة معهم ، ولم يلجئوا إلى موادعتهم ، بل لم يعرفوا معهم إلا السيف بالرغم من تفاوت نجاحهم في ذلك . بل أن حركة الجهاد الديني التي هدفت إلى مقاومة الصليبيين وإخراجهم من البلاد وتطهيرها منهم ، بعد فشل جهود إيقافهم إلى الأراضي المقدسة ، هذه الحركة انبثقت من وراء حدود القوى الإسلامية المعروفة في بلاد الشام ، حين نمت لدى رجال من السلاجقة ، لم يترددوا في حمل لواء الجهاد زمنا حتى توجت جهودهم في النهاية بسقوط مدينة الرها أول إمارات الصليبيين في الشرق مما اعتبر بداية النهاية بالنسبة لبقية الإمارات اللاتينية .

ولكن رغم ذلك ظلت بعض القوى الإسلامية تجهل كالعادة حقيقة الخطر الصليبي– حتى بعد سنوات من استقراره في الشرق واعتقدوا إمكان الاستعانة بالصليبيين فيما كان يجرى بينهم من منازعات بين الحين والحين لتحقيق انتصارات وقتيه ومكاسب ذاتية على حساب إخوانهم في المنطقة ، والأمثلة على ذلك متوفرة في تاريخ تلك الحقبة ، وقد رحب الصليبيون كثيرا بالتدخل في هذه

المشاحنات لما تكفله لهم من اعتراف صريح بوضعهم في المنطقة من ناحية ولما تحققه لهم من المكاسب على حساب القوى المتنافرة من ناحية أخرى .

ج – فشل الفاطميين في زحزحة الصليبيين عن المواقع التي احتلوها بالشام : الحملات الفاطمية على فلسطين سنة ١١٠١و١١٠٢و١١٠٥م:

الخلافة الفاطمية والجهاد الديني :

انتهينا في إشارة سابقة إلى أن الخلافة الإسلامية بشقيها السني في بغداد والشيعي في القاهرة لم تضطلع بدورها الواجب في مقاومة الغزو الصليبى ولم تضع مقاومة هذا الغزو في درجته من الأهمية بالنسبة للأحداث المعاصرة ورأينا كيف فات الخلافة الفاطمية بالذات والقائمين على شئونها ، منذ البداية الفهم الواقعى لطبيعة الخطر الصليبى ، وحقيقة المطامع الصليبية في الشرق . فلما تبين للخلافة الفاطمية ذلك سارعت إلى محاولة طرد الصليبيين من فلسطين بحملات متكررة فيها شبه رغبة ملحة في استعادة هيبتها ونفوذها الضائع في هذه البلاد والحاق ضربة قاصمة بالكيان الصليبى في مملكة بيت المقدس ولكن مع ذلك خرجت محاولتها باهتة شيئا ما لا تتناسب وإمكانيات هذه الخلافة وقدرتها على عمل شىء أكبر يغير من الأوضاع التى أمست فيها هذه المنطقة ويعيد لها نفوذها الضائع ، ويبدو أنها فات القائمين على شئونها في مصر إن يعملوا على تدعيم قوتها وبناء جيشها ، ومنحه طاقة أكبر يستطيع بها أن ينال من عدو بات معلوما حرصه

الدائب على حماية نفسه ومكاسبه المغتصبة . ولهذا لم يقدر للخلافة الفاطمية في النهاية النجاح فيما قصدت اليه .ولعله من الأوفق البدء في عرض المحاولات الفاطمية ضد الصليبيين في فلسطين لتأكيد هذا الاتجاه .

الحملات الفاطمية على فلسطين :

لم تكن الحملات الفاطمية التي أرسلها الأفضل في الأعوام ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٥ م هى أول احتكاك عسكري بين الخلافة الفاطمية والصليبيين في الأراضي المقدسة ، فقد سبق أن التقى الجانبان في الحرب التي دارت في ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ م عقب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، تلك الحرب التي انتهت بهزيمة القوات الفاطمية بهزيمة منكرة وهروب الأفضل إلى مصر وعودة فلول جيشه في حالة غاية في السوء ، قبل أن تفيق الخلافة الفاطمية وتجهز تلك الحملات المشار أليها .

ولعل تناول هذه الموقعة يعد خير مدخل لعرض الحملات التالية التى كان هدفها في الواقع أوسع مجالا وأكثر عمقا من هدف هذا اللقاء الأول . فليس من شك فى أن الحملات المنظمة التى أرسلت في الأعوام المشار اليها كان هدفها زحزحة الصليبيين عن أماكنهم في فلسطين وطردهم منها نهائيا إن أمكن ، وتتابعت بشكل أعطى تأكيدا بمحاولة جعلها جهادا إسلاميا عاما . ولذا عدت حلقة

أولى في حركة الجهاد المقدس ضد الصليبيين بينما تم اللقاء الأول في ظروف وملابسات أخرى حددت مفهومه وأبعاده .

ويفهم من اغلب النصوص فيما يختص بهذا اللقاء المبكر بين الفاطميين والصليبيين وهى الحرب التي دارت في ١٢ أغسطس قرب عسقلان ، أنها كانت حربا انتقامية منهم لما أحدثوه في بيت المقدس من فظائع " فلما بلغهم ما تم على أهل القدس جمع الأفضل ... العساكر وحشد وسار إلى عسقلان[١] " ، كما أنها كانت حرب كبرياء أيضا " وأرسل (الأفضل) إلى الفرنج ينكر عليهم ما فعلوا ويتهدد هم " وكذلك "وبخهم"[٢] فضلا عن أنها كانت حربا ضد عدو سطا على جزء من أملاكهم ، ويوشك أن يلتهم الباقي مما في أيديهم ، ويفهم ، كذلك أن خروج الأفضل كان نتيجة مباشرة لسقوط بيت المقدس ، وانه سار لاستعادتها من أيدي الصليبيين والانتقام للمسلمين بها .

ولكن يبدو أن الأفضل كان قد تجهز فعلا للخروج لصد الصليبيين عن فلسطين كلها ومدافعتهم عن بيت المقدس ، وذلك بعد أن أصبحت مقاصدهم معروفة تماما في مصر منذ حصارهم لعرقة في طريقهم إلى الأراضى المقدسة جنوبا[٣] إذ تشير الدلائل

---

(1) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٠ (سنة ٤٩٢هـ)
(2) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٣٩
(3) Camb. Med. Hist. Vol. 5. p. 296.

إلى أن الفترة الطويلة التي قضاها الصليبيون في حصار عرقة – نظرا لما أبدته هذه المدينة من مقاومة مشرفة – جعلت مقاصدهم ونواياهم ضد الفاطميين تتكشف شيئا فشيئا ، فقد أرسل الإمبراطور البيزنطي الكسيوس إلى الصليبيين يوضح رغبته في القدوم إلى الشام ليقودهم إلى بيت المقدس وكان يتوقع رفضهم لهذا الاقتراح – لما ظهر من تقصيره في نجدتهم في إنطاكية بدليل أنه بعث في نفس الوقت إلى الفاطميين في مصر يتنصل من كل مسئولية لتقدم الصليبيين في أملاك الخلافة الفاطمية في فلسطين ، هذا بالإضافة إلى أن محاولة التحالف بين الصليبيين والفاطميين كانت قد فشلت من قبل[1] ، ولذا غدا معروفا في مصر تماما نوايا الصليبيين ومقاصدهم والصدام المنتظر معهم فلا بد أن الأفضل رتب أموره على هذا الأساس لملاقاتهم في فلسطين قبل أن يهاجموا بيت المقدس .

ولكن الأفضل فاته أيضا أن يسرع في ذلك حتى يستطيع لقاءهم قبل أن يهاجموا المدينة وأضاع وقتا ثمينا قبل أن يتحرك إلى عدوه ، فقد وصل إلى عسقلان ، في ٤ أغسطس بعد أن كانت المدينة قد سقطت فعلا في أيدى الصليلبيين بنحو عشرين يوما ، ويؤكد هذا ماذكره المؤرخ ابن القلانسى حين قال :" ووصل

(1) Runciman : op. cit. I. P. 329.

الأفضل في العساكر المصرية ، وقد فات الأمر ، فانضاف إلى عساكر الساحل ونزل بظاهر عقلان "[1] والأمر المقصود هنا دون شك هو الوصول قبل الصليبين ومنع سقوط المدينة في أيديهم .

نزل الأفضل بقواته الكبيرة في السهل الواقع أمام عسقلان دون حذر أو ترقب ، منتظرا وصول الأسطول في البحر وقوات العرب ، فما أن تاكد الصليبيون من وجوده حتى جمع جود فرى قواته وخرج من بيت المقدس في ٩ أغسطس ومعه رو برت دى فلاندرز ، ولحق بهم روبرت النورمندى و ريموند الصنجيلى ، وقواتهما ، وكذلك أنضم إليهم تنكرد ، و اجتمعوا قرب الرملة في ١٠ أغسطس وفي ١١ أغسطس كانت كافة القوات الصليبية مستعدة للزحف إلى قوات المسلمين[٢] .

وبعد أن حصلت القوات الصليبية على راحة في ليلة ١١ أغسطس زحفت في السهل الكبير إلى شمالى عسقلان حيث كانت قوات الأفضل معسكرة ، وفي فجر يوم ١٢ أغسطس تقدمت في تنظيم رائع أثناء الخيوط الأولى لضوء ذلك اليوم حيث كان ريموند على جناحهم الأيمن الزاحف بالقرب من ساحل البحر ، وفي القلب كل من : روبرت دى فلاندرز وروبرت النورمندى وتنكرد ، وفي الميسرة جودفرى بوايوان . وباغتت هذه القوات جيش الأفضل

---

[1] ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧

[2] Runciman : op. cit. I. Pp. 295-6

"ولم يكن عند المصريين خبر وصولهم فنادوا إلى ركوب خيولهم ولبسوا أسلحتهم وأعجلهم الفرنج فهزموهم "[1] فوقع الذعر بين الجنود وانهزموا إلى ناحية عسقلان وفي أثرهم الفرنج " وتمكنت سيوف الافرنج من المسلمين فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد " وهرب الأفضل في خواصه إلى مصر ، بينما لجأ جماعة من المنهزمين إلى أشجار الجميز القريبة فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من فيه وقتلوا من خرج واستولوا على كثير من المغانم والأموال والأسلحة ، ثم بدأوا في مضايقة عسقلان فبذل لهم أهلها مبلغا كبيرا من المال فرحلوا عنها .

والواقع أن هذا الانتصار الحاسم الذى تم في أقل من ساعة على أيدى الصليبيين ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية ، إذ انكمش الأفضل وقبع في مصر دون عمل شيء قرابة عامين قبل أن يفكر من جديد في الجهاد ، وبذلك ترك للصليبيين فرصة نادرة لتأسيس المملكة الصليبية دون أية مضايقة[2] وحتى بعد أن قرر الأفضل القيام بالجهاد ضد الصليبيين ظلت في أغلب الظن صورة الهزيمة التى منى بها ماثلة في ذهنه ، فصبغت محاولاته التالية بالحذر وعدم الثقة فلم يقدر لها في النهاية النجاح فيما قصدت إليه .

---

(1) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٠ (سنة ٤٩٢ هـ)

(2) Camb. Med. Hist. Vol. 5. p. 297.

كانت هذه الحرب هى مجال الاحتكاك الأول بين القوتين اللتين تنازعتا السيادة على فلسطين ، كما كانت درسا عمليا للأفضل أعاد إليه بعض صوابه بعد أن تورط في محاولة تحالف فاشل مع هذا العدو ، كما كانت ضربة أصابت الأفضل كثيرا في هيبته وقوته ، فإلى أي حد استفاد الأفضل من هذا الدرس وعمل على رد اعتباره واستعادة هيبته ؟ الواقع أن دراسة الحملات الثلاث التالية فيه إجابات ضافية على هذه الأسئلة .

الحملة الفاطمية الأولى على فلسطين سنة ١١٠١م(سنة ٤٩٤هـ) :

انكمش الأفضل عقب هزيمته في عسقلان ، ولم يجرؤ على محاربة صليبي بيت المقدس رغم ما تعرض له سكان فلسطين وغيرها من بلاد الشام من أضرار دفعت أعدادا منهم إلى النزوح إلى مصر هربا " من الفرنج[١] ، والغلاء " فتوافدت جموعهم في مصر عام ١١٠٠م (٤٩٣هـ) على وجه الخصوص فضلا عما أبداه بلدوين الأول عقب تتويجه من نشاط في مهاجمة القوى الإسلامية المجاورة [٢].

لم يطل انكماش الأفضل في مصر إذ أن استمرار نشاط بلدوين في فلسطين والساحل الشامى وازدياد خطر الصليبيين

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ج٢ ص ٣٩.
(2) Runciman : op. cit. II. P. 71.

بالنسبة للأملاك الفاطمية ، أجبره على الخروج من عزلته ، ومحاولة عمل شيء يوقف من هذا التيار الجارف وتخلصه من هذا الخطر المتحفز . ويبدو أن دأب بلدوين الأول على الاستيلاء – خاصة – على المدن الساحلية والموانى وخاصة المواجهة لبيت المقدس والتى كانت لاتزال بيد الفاطميين أو تابعة لنفوذهم ، قد أزعج الأفضل كثيرا وجعله يفكر جديا في مهاجمة الصليبيين ومحاولة طردهم من فلسطين نهائيا .

ففي أواخر أبريل سنة ١١٠١م استولى بلدوين على ميناء أرسوف ، ثم اتجه إلى قيسارية واستولى عليها عنوة وأحدث بها مذبحة رهيبة في ١٧ مايو سنة ١١٠١م[١] ومن ثم وضح خطر الصليبيين على نفوذ الخلافة الفاطمية بشكل لا يحتمل ، وزاد بلاؤهم بالنسبة للمسلمين في المنطقة ، وأضحى القيام بعمل حاسم ضدهم أمرا يوجبه الحفاظ على بقية أملاك الفاطميين في الساحل الشامي إن لم توجبه مسئوليتهم تجاه دينهم وتجاه سكان المنطقة عامة .

ونكاد نجزم أن ضياع الموانى والمدن الساحلية التابعة للخلافة الفاطمية سواء كانت تبعية فعلية أو اسمية قد عجل بإرغام الأفضل على إنفاذ حملته الأولى إلى فلسطين . حقيقة أنه ليس ثمة

---

[١] ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٩.

شك في وجود حوافز أخرى كان لها أثر غى إظهار بوادر الجهاد الدينى لدى الفاطميين ، وإكسابهم نزعة جديدة ترمى إلى صبغ الحرب مع الصليبيين بصبغة الجهاد المقدس ، وحقيقة أن خروجهم لملاقاة هذا العدو يتخطى أسباب ضياع بعض المدن والموانى إلى رغبة أكيدة في هزيمته والانتقام منه وتطهير الأراضى المقدسة منه ، بدليل تتابع الحملات الفاطمية في شبه رغبة لإحداث تغيير لصالحهم في هذه المنطقة ، ومحاولة لكسب الحرب أمام هذا العدو يثلج الصدور ويبلسم الجراح ، وبدليل عدم التردد في طلب المعونة من حكام دمشق السنيين في بعض مراحل الصراع مع الصليبيين إلا أننا نستطيع أن نؤكد أن ضياع أرسوف في أواخر إبريل سنة ١١٠١ م (جمادى الآخرة سنة ٤٩٤هـ) وضياع قيسارية في ١٧ مايو سنة ١١٠١م (رجب سنة ٤٩٤هـ)[1] ، وما حدث بها من مذبحة رهيبة ، هذا التوقيت الزمنى يفسر سرعة خروج الجيش الفاطمى لملاقاة الصليبيين في ذلك الوقت .

فآراء المؤرخين اتفقت على أن خروج الجيش من مصر كان بعد هذه الأحداث بقليل فابن القلانسى يذكر أنه وصل إلى عسقلان في أول شهر رمضان سنة ٤٩٤ هجري أى في يوليو سنة ١١٠١م وأقام بعسقلان إلى ذى الحجة من نفس العام حيث تحرك لمقابلة

---

(1) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٠٤ (سنة ٤٩٤هـ)

جيش الفرنج [٢]، وابن ميسر يتفق مع ابن القلانسى في ميعاد وصوله إلى عسقلان ولكنه يذكر أن خروجه من مصر كان في شعبان سنة ٤٩٤ هجرى أى في يونيو سنة [١]١١٠١م ، وابن الأثير ينص صراحة على أن خروج عساكر الأفضل لم يكن إلا " ليمنعوا الفرنج عما بقى في أيديهم (الفاطميين) من البلاد الشامية "[٢] بعد ضياع أرسوف وقيسارية .

ويبدو أنه حدث بمصر رد فعل عنيف لتتابع ضياع الموانى والمراكز التي كان يرتادها الأسطول المصري في تحركاته على الساحل الشامي ، وبسبب الأخبار التي كانت تترى بازدياد نفوذ الصليبيين ، وازدياد بلائهم بالنسبة للمسلمين في فلسطين وممتلكات الخلافة فيهما ، مما جعل الأفضل في نوبة حماس يأمر بإنفاذ الجيش الذى لا شك كان يعده منذ فترة ، تحت إمرة قائد يدعى سعد الدولة القواسى ، ولم يكن الأفضل يقدر تماما أنه بدأ حركة جهاد كبيرة ضد الصليبيين .

ومع أن الإنفاذ جاء سريعا كما هو واضح ، إلا أن الجيش تأخر في عسقلان من أول رمضان إلى ذى الحجة (سنة ٤٩٤هـ) يوليو – سبتمبر سنة ١١٠١ م، مع ما في هذا من إعطاء فرصة

---

(2) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤.
(1) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤٠.
(2) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢١١ (سنة ٤٩٥هـ)

للعدو للاستعداد والاجتماع ، وليس هناك من تعليل لهذا التاخر سوى انتظاره مزيدا من الامدادات والنجدات .

فلما تكامل الجيش سار من عسقلان في أوائل سبتمبر سنة ١١٠١ م متجها ناحية الرملة حيث يستطيع منها تهديد كل من يافا وبيت المقدس[1] ، وقد أبانت هذه الوجهة – دون شك – أن الأفضل قصد إصابة الكيان الصليبى ذاتة بضربة قاصمة مع توسيع نطاق الحرب معه ، وعدم قصرها على مجرد استرداد ما اغتصبه مؤخرا من أملاك الخلافة الفاطمية .

أما بلدوين ملك بيت المقدس الجديد الذى تم تتويجه في يوم عيد الميلاد في ديسمبر سنة ١١٠٠ م خلفا لأخيه جود فرى بوايون الذى توفي في ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ كان عليه أن يثبت أقدامه في الحكم ويؤكد زعامته بالقضاء على متاعب المملكة من جانب الفاطميين وأن يحميها من هجومهم الذى لم يعد مجرد إغارة صغيرة وإنما استهدف المملكة ذاتها للقضاء على الحكم اللاتينى بها .

لذا لم يتوان بلدوين حينما علم بتحرك الجيش الفاطمى الكبير عن عقد مجلس حربى في يافا في أول سبتمبر سنة ١١٠١ م حيث تقرر فيه المبادرة بالزحف ومهاجمه القوات الفاطمية .

---

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٩٤.

ومع أن المراجع العربية قد بالغت في عدد الجيش الصليبي وأكدت أنه كان جيشا كبيرا بحيث بلغ ألف فارس وعشرة آلاف راجل[1] ، إلا أن الرواية الصليبية خالفت ذلك وذهبت إلى أنه لم يتعد قوة صليبية صغيرة تقل عن ذلك بكثير كما تشير الدلائل إلا أنه كان جيشا صغيرا فعلا ، إذ ليس من شك في أن بلدوين صادف في بداية حكمه نقصا خطيرا في الرجال[2] بعد أن طحنت المعارك السابقة جانبا كبيرا من القوى البشرية ، وبعد أن آثر كثير من رجال الحملة العودة إلى أوطانهم . على أية حال كان جيش بلدوين صغيرا لم يتعد نحو مائتين وستين فارسا ونحو تسعمائة راجل وذلك بالنسبة للجيش الفاطمي الذى وصفته النصوص بأنه كان "عسكرا كثيفا " غير أن الفارق بين الجانبين لم يكن في عدد الجند وتسليحهم بقدر ما كان في تعبئتهم نفسيا وروحيا لهذه الحروب وشحذ هممهم ، وقد نجح بلدوين في ذلك أيما نجاح .

سار الصليبيون تحت قيادة بلدوين ومعه رجال الدين يحملون صليب الصلبوت متجهين ناحية الرملة لملاقاة الجيش الفاطمي ، فالتقيا في صبيحة يوم ٧ سبتمبر سنة ١١٠١[3] في السهل الواقع جنوب غرب مدينة الرملة حيث دارت معركة بين الطرفين كان

---

(1) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٠ ، ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤٠

(2) Stevenson : The Crusaders in the East. I. P. 39.

(3) Conder : The Latic Kingdom of Jerusalem. P. 84.

النصر النهائى فيها للصليبيين بالرغم من اختلاف الروايات في سير المعركة ، وكيفية انتهائها بهزيمة الفاطميين .

ويتحتم إذن عرض هذه الروايات ، وتتبع اختلافاتها لنتحسس مدى صدق الرغبة في الجهاد لدى الفاطميين في هذا الدور المتقدم من أدوار الجهاد . وتشير رواية إبن القلانسى وإبن مسير في وصفهما سير المعركة بين الصليبيين والجيش الفاطمى قرب الرملة إلى أن الحرب دارت شديدة منذ بدايتها وحمى وطيسها ومالت على الجانب الإسلامى بعد ذلك فكسرت ميمنته وميسرته فتتبع الصليبيون رجالهما المنهزمين ، ولكن سعد الدولة القواسى مقدم الجيش وكان حينئذ في القلب استبسل في الجهاد وحاول الصمود أمام ضربات الصليبيين ولكن الحظ تخلى عنه هو الآخر أيضا . فعاجله القضاء وكبا به جواده وسقط عنه إلى الأرض فاستشهد مكانه ... ومضى شهيدا مأجورا " غير أن المسلمين عادوا مرة أخرى والتحموا بالفرنج وبذلوا النفوس " في الكرة عليهم " فهزموهم إلى يافا وقتلوا منهم وأسروا وغنموا ولم يصابوا إلا بخسائر طفيفة ، أى أن النصر النهائى طبقا لهذه الرواية كان للجيش الفاطمى[1] .

---

[1] ابن القلانسى : ذيل دمشق ص ١٤٠ ، ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤٠

أما الرواية الصليبية فقد أشارت إلى أن الحرب قرب الرملـة بين الصليبيين والقوات الفاطمية انتـهت بسـرعة باندحـار الجيـش الفاطمى ومقتل قائده وفرار فلوله إلـى عسـقلان حيث قـام بلدويـن بتتبع الفارين حتى أسوار المدينة ، ولكنه آثر العودة لاقتسام الغنائم التي تركها الفاطميون وراءهم بعد المعركة[1] .

على أنه يبدو أن الجيش الفاطمي أصابه النجاح قرب الرملـة في الأدوار الأولى للحرب . إذ استطاع القبض على بعض القـوات الصليبية نظرا لضخامة أعداده بالنسبة للقوة الصليبيـة الصغيرة ، غير أن بلدوين ثبت في موقعه وحمل على الجيـش الفـاطمي حملـة كبيرة أوقعت الرعب فـي نفـوس المسـلمين والاضطـراب فـي صفوفهم مما ساعد على هزيمتهم وتقهقر أغلب القوات وانسـحابها من ميدان المعركة هاربـة نحـو عسقلان ، وربمـا كـان استخفاف الفـاطميين بـهذه القـوة الصليبيـة الصغـيرة عنـد إنـهيارها أمـام الضربات الأولى لـهم كـان لـه أثـر فيمـا أصابـهم مـن ذهـول وهـم يشاهدون هذه القوة تثبت وتهاجم في عنف وإستبسال وفدائية – مما أربكهم فحلت بهم الهزيمة في نهاية الأمر .

---

(١) Albert d,Aix. Pp. 550-3, Fulcher of Chartes.

(٢) Pp . 407-20, Runciman : op . cit II. P p . 74-5, Lane poole; A Hist. O Egypt in the Middle Ages vol. VI. P. 164.

كان إذن النصر النهائى في هذه المعركة في صالح الصليبيين ، ولم يكن في جانب المسلمين كما بالغت بعض الروايات العربية ، ويدل على ذلك أيضا ما ذكره المؤرخ ابن الأثير عن هذه المعركة وهى رواية مضطربة شيئا ما ولكنه انتهى فيها إلى ان المسلمين هزموا في النهاية[1] .

ومن الدلائل على مبالغة الرواية العربية بذهابها إن أن النصر كان في جانب المسلمين أنه لو صح ذلك فعلا ، إذن لتتبعت هذه القوات فلول الصليبيين وأكملت خططها ضدبيب المقدس ذاتها أو حاصرت يافا أو تحولت إلى الساحل على الأقل فاستعادت بعض موانيه الضائعه ولكننا لا نجد إشارة إلى شيء من ذلك في أى من الكتب المعاصرة .

على العكس يزداد التأكد مما آل إليه مصير هذه الحملة من الفشل طبقا لسير الأحداث وما اعترفت به الرواية العربية ذاتها من مقتل مقدم العسكر سعد الدولة القواسى في بداية المعركة ، وما يحدثه ذلك من أثر في روح الجند ونفسياتهم وكذلك بدليل أن الخلافة الفاطمية أتبعت هذه الحملة بغيرها ولنفس الأهداف على أنه يستخلص من ذلك كله أن المحاولة الفاطمية هذه المرة كان فيها شيء من الجدية لا يقلل من أثرها النتيجة التى آلت إليها و الهزيمة التى منيت بها وإنما قادت هذه الهزيمة إلى محاولة ثانية وثالثة وكلها أوضحت بما لا يدع مجالا للشك الرغبة الكامنة لدى

(١) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢٠٨ (سنة ٤٩٦هـ)

الفاطميين فى زحزحة هذا العدو من مواقعه وإلحاق الضرر به بأية وسيلة .

وفى النهاية انسحبت فلول القوات الفاطمية من أرض المعركة ـ مؤثرة الفرار إلى عسقلان وفى أثرها قوات بلدوين الذى فضل العودة لاقتسام المغانم والأسلاب وما كان أكثرها فى معسكر الفاطميين إذ خلفوا كل ما معهم من مؤن وسلاح وعدد وآلات .

وعلى هذه الصورة انتهت أول محاولة كبيرة للفاطميين فى فلسطين ، بعد أن تكبدت خسائر ليست قليلة فى الرجال والسلاح والمؤن ، وغدا لزاما على الأفضل أن يستعد لحملة أخرى علـه يصيب النجاح الذى فاته فى المحاولة الأولى .

الحملة الفاطمية الثانية على فلسطين سنة ١١٠٢ (٤٩٥هـ) :

لم يستطع الأفضل بحملته السابقة أن يغير شيئا من الأوضاع فى فلسطين لصالحه أو ينجح فى أسترجاع شيء مفقود من أملاك الخلافة الفاطمية فى هذه البلاد ، وكذلك لم يحدث أى تغيير فى مصر بالنسبة لسلطته ونفوذه بالرغم من وفاة المستعلى بالله فى ديسمبر سنة ١١٠١ م (صفر ٤٩٥هـ) إذ وضع الأفضل مكانه فى الخلافة ابنه الآمر بأحكام الله وهو طفل لم يتجاوز الخامسة من

العمر بكثير[١] ، وظل تدبير الأمور كلـها بيد الأفضـل كمـا كـانت الحال أيام المستعلى الـذى " لـم يكـن لـه سيرة تذكـر " بـل " كـان الأفضل هو الكل فى الكل "[٢].

والحقيقة أن وقع الهزيمة التى منيت بها القوات الفاطمية فـى موقعة الرملة الأولى كان قاسيا على الأفضل ورجاله فى مصـر إذ سرعان ما فكر فى إعادة الكرة من جديد وإعداد العدة لانفاذ حملـة أخرى إلى فلسـطين مدفوعـا برغبـة أكيـدة فـى محاولـة تحقيـق مـا فشلت فى تحقيقه الحملة الأولى ، لذا جعل مـن الحملـة الثانيـة قـوة كبـيرة بلغـت نحـو عشـرين ألـف جنـدى معظمـهم مـن العـرب والسودان[٣] واختار لقيادتها أحد أبنائه ويدعى شرف المعالى ، هذا برغم ما ذهب إليه المؤرخ ابن القلانسى من أن هدف هـذه الحملـة كان لانجاد ولاة الساحل والثغور الباقية فى أيديهم ، ووا ضـح انـه فات هذا المؤرخ أن الحملة استهدفت أبعد من معاضدة ولاة الثغور إلى عمل كبير ضد الفرنج[٤] .

وقد سلكت الحملة نفس الطريق الذى سلكته الحملـة السـابقة فبعـد التجمـع فـى عسـقلان فـى رجـب سـنة ٤٩٥هـ (مـايو سـنة ١١٠٢م) وهى التى غدت بمثابة قاعدة لإطلاق للجيـوش الفاطميـة

---

(1) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤٠
(2) اليافعى : مرآة الجنان ج ٣ ص ١٥٨
(3) Grousset : Hist, des Croisades. Pp. 229-30
(4) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤١

ضد الصليبيين فى كل حملاتهم على فلسطين سارت الجيوش الفاطمية إلى ناحية الرملة حيث تستطيع تهديد يافا وبيت المقدس – كما حدث فى المرة الأولى – وكان الأفضل قد أرسل إمدادات اخرى لهذا الجيش لحقته به قرب يازور وبذلك زاد حشد الفاطميين وقويت عزائهم .

أما بلدوين فكان قد اقتنع دون شك بأن حملات الفاطميين تعدت الأهداف المحدودة إلى تهديد سافر للكيان الصليبى بفلسطين وعملهم الدائب على تهديد كل من بيت المقدس ويافا على وجه الخصوص ، لذا حشد بلدوين قوات كافية فى يافا وسار فى مايو سنة ١١٠٢ م (رجب ٤٩٥هـ) من بيت المقدس قاصدا الرملة فى قوة صغيرة ، لم تزد فى أغلب الظن عن مائتى فارس فضلا عن أنه قادها فى غير نظام وقلة حذر استخفافا بالفاطميين واستهتارا بهم بعد انتصاره الساحق عليهم فى العام السابق ، وربما جهلا باستحالة وصول القوات الفاطمية إلى هذه المنطقة فى ذلك الوقت .

والواقع أن الفاطميين دأبوا فى كل حملة وجهوها ضد الصليبيين على التجمع فى عسقلان تسبقهم دعاية ضخمة تتناقل أخبارها المنطقة كلها ، كما كانوا يضيعون الوقت الثمين فى عسقلان بلغ أحيانا شهورا طويلة انتظارا لإمدادات جديدة أو انتظارا للأسطول القادم من البحر ، وبهذا كانوا يتركون فرصة

مواتية للصليبيين لتدبير أمورهم أما فى هذه الحملة فتشبير الدلائل إلى أن الجيش الفاطمى لم ينتظر بعسقلان ، بل أنه أسرع بمواصلة سيره إلى جهة الرملة ولحقته الأمدادات قرب يازور ، ولم تمض بين وصول القوات الفاطمية إلى عسقلان وبين الوقعة التى حدثت فى ١٧ مايو سنة ١١٠٢ م (آخر رجب سنة ٤٩٥هـ) إلا أيام هى صدر شهر رجب[1] وهى فترة قصيرة نسبيا استغرقت معظمها مسيرة الجند ، وليس من شك فى أن هذه السرعة التى إمتاز بها الزحف الفاطمى فى هذه المرة كان لها أثر كبير فيما لقيته الحملة فى بدايتها من نجاح .

ذلك أن بلدوين إعتمادا على إستحالة سرعة وصول الفاطميين إلى هذه الجهة – فى أغلب الظن – قياسا ببطئهم وترددهم وإنتظارهم الدائب بعسقلان لم يتوقع وجودهم بهذه الناحية بمثل هذه السرعة ، لذا سار فى قوته الصغيرة فى غير نظام وغير حذر ، وفى السهل الممتد بين يازور والرملة ، وجد نفسه وجها لوجه مع القوات الفاطمية الكبيرة ، وعندئذ فقط تحقق بلدوين من خطئه ، ومع ذلك لم يكن يوسعه الانسحاب أو التراجع إلى الوراء[2] .

---

(1) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤١

(2) Runciman : op. cit. II. P. 77.

وعندما رأى الفاطميون هذه القوة الصغيرة اعتقدوا أنها ليست إلا مقدمه لجيش صليبى كبير آت فى أعقاب الملك[1] ، فبادروا بالهجوم على الملك ورجاله قبل أن تلحق به بقية قواته ، ولم يستطع الملك بطبيعة الحال الثبات أمام جموع المسلمين لذا أنهزم وكثر القتل فى أصحابه ويذكر كل من ابن القلانسى وابن الأثير انه اختفى فى أجمة قصب حين طورد من القوات المنتصرة فأحرقت تلك الأجمة " ولحقت النار بعض جسده "[2] وفر بعض رجاله إلى يافا فى حين هرب البعض الآخر إلى الرملة فلحقهم الملك بها فى حالة سيئة .

ورغم النجاح الذى أحرزته القوات الفاطمية فى هذا الدور من الحرب إلا أنها لم تواصل نشاطها بالاستيلاء على الرملة فى نفس اليوم (١٧ مايو سنة ١١٠٢) والقبض على بلدوين بها ، ولكنها أرجأت ذلك إلى اليوم التالى فى الوقت الذى كان بلدوين بالرملة قد أيقن بمصيره المحتوم بهذه المدينة القليلة التحصين قبل أن تواتيه فكرة الهرب ليلا عازما على المسير إلى يافا ، وفعلا نفذ الفكرة وخرج من المدينة متنكرا تحت جنح الظلام فى طريقه إلى

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٩٦
(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ١٤١ ، ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ٢١٨ (سنة ٤٩٦هـ)

يافا[١] ، وعندما أحس الفاطميون بذلك أرسلوا فى مطاردته وتعقبه فلم يصبهم التوفيق فى اللحاق به ، فتحولوا إلى الهجوم على الرملة والاستيلاء عليها وقتلوا معظم فرسان الصليبيين الذين ألتجأوا إليها من رجال الملك ، وحمل الباقون إلى مصر أسرى[٢] ، وكان ذلك فى يوم ١٩ مايو سنة ١١٠٢ م .

وبينما هذه الأحداث تأخذ مجراها كان الأسطول المصرى يذرع البحر انتظارا لما تسفر عنه الاشتباكات مع الصليبيين ، فلما فرغ الفاطميون من الرملة توجهوا ناحية يافا وأصدروا الأمر إلى الأسطول بالتوجه إليها أيضا ومحاصرتها حتى يحكموا الحصار حولها برا وبحرا .

على أن تساؤلا يقفز إلى السطح قبل المضى فى عرض بقية أحداث هذه الحملة ، وهو لماذا اختار الفاطميون المسير إلى يافا ولم يتجهوا إلى بيت المقدس ذاتها ومهاجمتها فى غيبة الملك منتهزين فرصة الاضطراب والقلق الذى اعترى الصليبيين على أثر هزيمة الملك فى الرملة .

الواقع أن التردد بين التوجه إلى بيت المقدس ويافا وقع فيه الفاطميون فعلا فى ذلك الوقت " فقال قوم نقصد البيت المقدس

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢١٨ (سنة ٤٩٦هـ) ويقال إن الفضل فى نجاح بلدوين فى الهرب يرجع إلى شيخ من الأعراب كان بلدوين قد أسدى إليه معروفا فى اليوم السابق ، فأتى وخلصه من محنته وساعده على الفرار ردا لذلك الجميل .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤١ . ابن ميسر : أخبار مصر ج ١ ص ٤٠-٤١ .

ونتملكه وقال قوم نقصد يافا "[1] ويبدو أن الرأى الأخير هو الذى تغلب فى النهاية، فبالرغم من وجاهة الرأى الأول بالتوجه ناحية بيت المقدس فى غيات بلدوين عنها والقضاء على خيرة فرسانه فى معركة الرملة الثانية ، وسهولة إحراز نصر فى بيت المقدس إلا أن رجال الجيش الفاطمى وضعوا دون شك فى حسابهم إمكان متابعه القوات الصليبية فى يافا وغيرها من المراكز الصليبية لهم مع خطورة بقاء بلدوين حرا يستطيع أن يطلب النجدة من بقية الامارات اللاتينية ، مما يجعل الفاطميين بين شقى الرحى ويعرضهم لهجوم من الخلف ، وعلى عكس ذلك إذا اتجهوا ناحية يافا وهى المركز الصليبى الذى عول عليه بلدوين فى الصمود أمامهم فإنهم بذلك يتجهون إلى جهة الخطر فعلا فى الوقت الذى تقبع فيه بيت المقدس دون خطر متوقع من ناحيتها إذ ليس بها سوى حامية صليبية رابضة للدفاع عنها إذا حدث عليها هجوم ، وليست هذه الحامية على استعداد بطبيعة الحال – لتركها ومهاجمه الفاطميين عند يافا ، لهذه الأسباب فضل الفاطميون التحول إلى يافا بعد سقوط الرملة فى أيديهم ، فاذا تيسرا لهم فتحها اتجهوا بقضهم وقضيضهم إلى بيت المقدس .

---

[1] ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢١٨ (سنة ٤٩٦ هـ)

وليس من شك فى أن يافـا لقيـت إهتمامـا خاصـا مـن بلدويـن احساسا منه بأنها ميناء بيت المقدس الطبيعى على البحر ، فحرص الصليبيين على بقاء طريق البحر مفتوحا سهلا نابع دون شـك مـن رغبتهم فى تأمين وجودهم بفلسـطين فبقـاء بيـت المقـدس مرهـون بمدى ما تستقبله من نجدات غربية وحجاج وجنود وعناصر جديدة تدفع إليها بدماء متجددة فى مواجهـة الخطـر الإسـلامى المـتربص بها والمتحفز فى كل آن وستظل يافا محور السياسة الصليبية لـدى بلدوين حتى تحل محلها عكا بعد سقوطها فى أيـدى الصليبييـن فـى مايو سنة ١١٠٤ م [1] ، فتغدو ميناء بيـت المقـدس الطبيعـى وأهـم الموانى بجنوب فلسطين .

وهكذا نصل بطريق غـير مباشـر إلـى سـلامة اتجـاه القـوات الفاطمية إلى يافا بدل اتجاهها إلـى بيـت المقـدس . إذ لـو قـدر لـهم الاستيلاء على يافا إذن لأصبحت بيت المقدس تحت رحمتهم .

كـانت فرصـة الفـاطميين فـى الاسـتيلاء علـى يافـا كبـيرة ، وظروفهم كانت مواتية لإحراز نصـر ثـان فـى محاولتـهم الثانيـة ، فأسطولهم فى البحر يستطيع إحكـام الحصـار حـول المدينـة بحـرا ويحرمها من أية نجدات ربما تصل إليها ، وقواتهم البريـة اتجـهت إليـها وقـد انتعشـت آمالـها وارتفعـت معنوياتـها ، وبلدويـن مشـرد

---

(1) Small Crusading Warfare, p, 23   Grousset : Hist. Des Croisades. I. P. 238-42

وضائع خرج متخفيا فى طريقه إلى يافا ولكنه عندما أحس بتعرضها للحصار الاسلامى تحول إلى أرسوف شمالا ، والقوات المطاردة فى أثره ، وكذلك كانت القوات الفاطمية لا تزال كبيرة لم تلحق بها خسائر فى الاشتباك السابق ، كل هذه كانت عوامل فى صالح الفاطميين لو أنهم استغلوا هذه الفرصة . على كل حال غدت يافا مركز الثقل بالنسبة للصراع الصليبى الفاطمى فى فلسطين ، فإذا قدر لأى منهما السيطرة عليها تحول التيار فى جانبه .

وكان الصليبيون فى أرسوف قد أرجفوا بالخطر على أثر الشائعات التى ترددت بهلاك بلدوين وزحف القوات الفاطمية الكبيرة لإسقاط يافا ، ولكنهم ما لبثوا أن اطمأنوا عند رؤية بلدوين أمامهم حيا يرزق وعاودتهم القوة بعد أن يئسوا من النجاة . ولم يضع بلدوين وقتا بل بادر بتجميع القوات الصليبية فى هذه المنطقة وأسرع بدخول يافا عن طريق البحر حيث لحقته الإمدادات الصليبية ولم تمض أيام على بدء حصار الفاطميين ليافا حتى تحول التيار فى صالح الصليبيين مرة أخرى ، فقد وصلت فى أواخر مايو سنة ١١٠٢ م نحو مائتى سفينة تحمل عددا كبيرا من الجند والحجاج إلى ميناء يافا فقلبت هذه النجدة الكبيرة الميزان فى صالح الصليبيين . إذ سارع بلدوين بالاستفادة من هذه الجموع الجديدة المتحمسة ، وحشد رجاله فى يوم ٢٧ مايو وخرج من المدينة

لمهاجمه القوات الاسلامية المحاصرة ، ودارت معركة سريعة انتهت بهزيمة القوات الفاطمية وفارا رجالها ناحية عسقلان وتخلص بلدوين بذلك من خطر جثم على صدره وأوشك أن يقضى عليه وعلى الكيان الصليبى فى فلسطين كلها .

على أن تحول الفاطميين من حالة النصر والتفوق أمام الصليبيين إلى حالة الهزيمة كان وقعه قاسيا على الأفضل ورجاله فى مصر فسارع بارداف الحملة الفاشلة بحملتين أحداهما برية بقيادة قائد يدعى تاج العجم قوامها أربعة آلاف فارس والأخرى بحرية بقيادة القاضى بن قادوس طبقا لرواية ابن الأثير فتوجه الأسطول شمالا حيث نزل على يافا ، فى حين نزل تاج العجم بقواته البرية على عسقلان .

ويبدوا أن خلافا كبيرا وقع بين هذين القائدين ، رفض على أثره تاج العجم أن يمضى إلى ابن قادوس لمعاونته وهو نازل على يافا متعللا بأنه لم يلتق أمرا من الأفضل بذلك مما أثار حفيظة ابن قادوس ، فأرسل إلى قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها " وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوما واستدعى تاج العجم فلم يأته ولا أرسل رجلا " [1]ولما علم الأفضل بذلك أمر بالقبض على

[1] ابن الأثير الكامل : ج ٨ ص ٢١٨ (سنة ٤٩٦هـ)

المملوك تاج العجم وولى مكانه من يتولى أمر عسقلان ، وقيادة الجيوش الفاطمية بهذه المنطقة .

وهكذا قدر لمملكة بيت المقدس الصليبية ان تنجو هذه المرة أيضا من خطر نوبة الحماس التى إنتابت الفاطميين هذه الدفعة ، كما قدر لها أن تظل تحتفظ بما فى يدها من مدن وموانى بفلسطين عدا عسقلان التى لازالت بأيدى الفاطميين كمركز لكل إنطلاقة لهم فى المنطقة .

هذا وكان بلدوين قد استنجد بتنكرد الوصى على أنطاكية ، وبلدوين دى بورج أمير الرها ، فاستجابا له ، وقادا نجدة بلغت نحو خمسمائة فارس وألفا من المشاة وزحفا جنوبا فلقيا بلدوين على يافا فى سبتمبر سنة ١١٠٢ م، وكانت القوات المصرية قد انسحبت إلى عسقلان بعد الهزيمة التى منيت بها من قبل عند يافا ، فآثر بلدوين وحليفاه أن يهاجموا عسقلان ، ولم يكادوا يفرضون الحصار عليها حتى آثروا الانصراف عنها لحصانة المدينة من جهة ولافتقارهم إلى مساندة بحرية تحكم الحصار عليها من جهة أخرى[1] .

(1) Stevenson : op. cit. Ip. 46-47.

الحملة الفاطمية الثالثة على فلسطين سنة ١١٠٥ (٤٩٨هـ) :

الواقع انه ليس بوسعنا أن نقول أن ثمة أحداث وقعت بفلسطين دفعت الفاطميين إلى القيام بمحاولتهم الثالثة والأخيرة في سبيل زحزحة الصليبيين من أماكنهم ، إذ نؤكد من جديد أن إرسال الحملات المتتابعة يتعدى محاولة استعادة بعض الموانى أو مجرد الانتقام لضياع موانى أو مدن جديدة إلى أيدى الصليبيين .

فقد دأب بلدوين ملك بيت المقدس على محاولة إسقاط الموانى التى لازالت تابعة للخلافة الفاطمية ، وبذل جهدا مضاعفا بالنسبة لمدينة عكا خاصة ، ذات الميناء المزدوج التى تعد خير ميناء لمملكه بيت المقدس . فعقب عيد القيامة عام ١١٠٣ م قام بلدوين بمحاولة ضد عكا فهاجمها برا وبحرا إلا أن الأسطول المصرى قام بإنجاد المدينة بحرا كما استقبلت المدينة نجدة من صور وصيدا مما أجبر بلدوين على رفع الحصار عنها ، حينما تأكد من عدم جدوى الحصار نظارا لافتقارة إلى قوة بحرية تعاونه فى إحكام الحصار عليها .

غير أن الظروف ما لبثت أن تبدلت فى العام التالي حيث استطاع بلدوين الاستفادة من الأسطول الجنوى الذى ظهر فى اللاذقية فى فبراير – مارس سنة ١١٠٤ م وكان مؤلفا من نحو سبعين سفينة ، فلما انحدر هذا الأسطول جنوبا إلى ساحل فلسطين،

وجد بلدوين الفرصة سانحة للتفاوض مع الجنويين الذين قبلوا الإسهام في الاستيلاء على المدينة طبقا لشروط معينة قبلها بلدوين، وبعد إحكام الحصار على المدينة برا وبحرا ، قاتل واليها نحو عشرين يوما انتظارا للنجدة المصرية فلما لم يصله شيء أذعن للصليبيين وسلم في مايو سنة ١١٠٤ م ، ومع هذا استباح الصليبيون المدينة ولقى عدد كبير من أهلها حتفه بسيوفهم " وفعلوا بأهله الأفعال الشنيعة " [١].

لم يكن ذلك بطبيعة الحال هو الدافع الوحيد لتحرك حملة الأفضل الثالثة إلى فلسطين إذ كانت الرغبة لاتزال كامنة لدى الأفضل في مواصلة الجهاد ضد الصليبيين ، ولم يتخل الأفضل بعد عن أمله في محاولة تطهير المنطقة منهم وإن لم تبرأ هذه الأحداث من أن لها ضلعا في تحريك الحافز الذي عجل بإنفاذ هذه الحملة الكبيرة ضد الصليبيين .

شهد صيف ١١٠٥ م آخر المحاولات الفاطمية الكبرى ضد الصليبيين في فلسطين فقد أعد الأفضل حملة قوامها خمسة آلاف جندي من المصريين والسودان والعرب ووضعها تحت قيادة ابن

---

[١] ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢١٨ (سنة ٤٩٧ هـ)

أخر له يدعى سناء الملك حسين[1] ، وأمر الأسطول فى البحر بالاستعداد لمساندة الحملة البرية .

على أن الأفضل اتجه بعد ذلك وجهة أبانت عن استفادته من الدروس السابقة[2] إذ طرح جانبا الخلافات المذهبية والسياسية مع حكام دمشق وتقدم إليهم طالبا المعاضدة ضد العدو المشترك ، للقيام بعمل موحد عله ينجح هذه المرة فيما فشل فيه فى المرات السابقة .

ولم تكن هذه أول مرة يتقدم فيها الأفضل بطلب كهذا إلى حكام دمشق إذ تذكر النصوص أنه فعل ذلك أيضا فى محاولته السابقة التى جرت عام ١١٠٢م - حينما أصيبت جيوشه بالهزائم والانتكاسات المتتالية ، إلا أن دقاقا ملك دمشق السلجوقى " اعتذر عن ذلك ولم يحضر "[3] .

ولكن الظروف تبدلت فى هذه المرة فى دمشق بما يرجى استجابة حكامها لنداء الأفضل ، وذلك بعد أن أحل طغتكين نفسه فى حكم دمشق فى عام ١١٠٤ م – كما سبقت الإشارة – وراح يعمل على إكساب حكمه الشرعية اللازمة وفى هذه الظروف طلب

---

[1] نفس المصدر ج ٨ ص ٢٢٨ (سنة ٤٩٨ هـ) ويلاحظ أن كلا من ابن القلانسى وابن ميسر ذكرا أن قائدها كان شرف المعالى ولد الأفضل وهو سهو منهما دون شك – فشرف المعالى هو الذى قاد الحملة السابقة . ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٨ ، ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤١

[2] Runciman : op. cit. II. P.89.

[3] ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤٠-٤١

الأفضل المعونة والموازرة فلم يتردد طغتكين فى مده بالنجدة لتكون من ناحيه تأكيدا لما أصبح فيه من القوة وحرية التصرف فى الولاية ومن ناحية أخرى تحذيرا للجانب المعارض فى دمشق بأن الوالى الجديد لايأل جهدا فى جهاد أعداء الدين . ويعلل المؤرخ المحدث رانسيمان هذا التحمس من جانب طغتكين برغبته فى القضاء على الفتنة التى أثارها أرتاش بن تتش الذى انحاز إلى الصليبيين وطالب بحكم دمشق[1] .

ويبدو ان طغتكين كان يفكر فى الركوب بنفسه على رأس هذه القوة فلم يمنعه سوى حرصه على مهاجمة بصري التي احتمى بها أرتاش بن تتش ومعاونه أيتكين الحلبي الذى أغراه بمراسلة الفرنج والانحياز إليهم [٢]، بل ذهب ابن القلانسى إلى أن طغتكين ركب فعلا بنفسه بعد أن " استصوب المسير إلى العسكر المصري للإعتضاد على الجهاد "[٣] .

ولكن الراجح انه أرسل أحد قواده ويدعى " أصبهبد صبروا" على رأس القوة التي بلغت نحو ألف وثلاثمائة فارس نجدة لولد الأفضل ، ولم يكن بوسعه أن يغامر بالخروج بنفسه أو بإرسال قوة أكبر لما فى ذلك من خطورة على وضعه بالإمارة

---

(1) Runciman : op. cit. I. P. 89

(2) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤١

(3) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩

ذاتها فضلا عن خطر الصليبيين المتربص بكافة القوى الإسلامية[٤].

على كل حال عدت هذه المعاضدة فى نظر أحد المؤرخين المحدثين أول محاولة عملية اشترك فيها المسلمون فى مصر والشام ضد العدو المشترك الصليبيين[١] ، سواء قاد هذه النجدة طغتكين نفسه أو قادها أحد رجاله .

اتخذ الجيش المصري موقعه عند عسقلان وانضم إليه جيش دمشق حيث تقدما إلى جهة الرملة ، وكان بلدوين حين سمع بأنباء احتشاد المصريين قد خرج من يافا إلى ناحية الرملة كدأبه فى كل مرة ، حتى يستطيع منها حماية كل من بيت المقدس ويافا ، وانحاز إليه كل أتباعه حتى بلغت قواته خمسمائة فارس وألفان من الرجالة[٢] . كما انحاز إليه أرتاش بن تتش المطالب بحكم دمشق .

ودارت المعركة عند الرملة بين جيش الفاطميين وحلفائه الدماشقة وجيوش الصليبيين فى يوم الأحد ٢٧ أغسطس سنة ١١٠٥ م (ذى الحجة ٤٩٨ هـ) وقد ارتاع بلدوين فى بداية المعركة لما أبداه الفاطميون من شجاعة واستبال واتجاه الميزان فى صالحهم فى البداية ولكن ميمنة المسلمين فضلت عندئذ التحول

---

(4) Runciman ; op. cit. I. P. 89

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٠٤

(2) Grousset : op. cit. I. P.p. 247-8

من ميدان المعركة للقيام بمحاولة ضد ميناء حيفا فـى الوقـت الـذى دارت فيه الحرب علـى أشـدها فلمـا عـادت فـى المسـاء بعـد فشـل مهمتـها ضـد حيفـا ، كـانت المعركـة قـد انتــهت بهزيمــة القــوات الإسلامية وفرار العسكر الدمشـقى شـرقا ، وفلـول الفـاطميين إلـى عسقلان ، ووقع فى أسر الصليبيين أميرا عكا وأرسوف السابقان ، فحصل بلدوين منهما على فدية كبيرة ، بينما لم يستطع ذلك بالنسبة لسناء الملك الذى استطاع الفرار إلى مصر ولذلك لم يخف المؤرخ الصليبي فلولشر أوف شارتر أسفه لفرار سناء الملـك بسـبب الفديـة الكبيرة التي كان يمكن الحصول عليها لو أتيح لهم أسره[1] .

لم يكن هذا النصر سهلا بالنسـبة للصليبييـن إذ أن خسـائرهم كانت ثقيلة كما كانت خسائر المسلمين ثقيلة أيضـا ، وقد أشار أغلب المؤرخين إلى أن خسائر الجانبين كانت متقاربة ، حتى ليذهب ابن الأثير إلى أنه لم تظهر إحدى الطائفتين علـى الأخـرى[2] ، وتشـير كافة الدلائل إلى أن هذا النصـر الـذى أحـرزه الصليبيـون لـم يكـن حاسما ، بل أنه لم يزد عن كونه هزيمة مترفقة ، وهناك من الأدلـة ما يؤكد هذا الاتجاه .

---

(1) Fulcher of Charters. P.p. 489-503.

(2) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢٨ (سنة ٤٩٨هـ) . ابن القلانسى : ذيل ص ١٤٩ ، ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٤١ .

كان دأب بلدوين فى اللقاءات السابقة مع القوات الفاطميـة أن يحرص على مطاردة فلول القوات المنهزمة حتى أسوار عسقلان، ثم يعود مرة أخرى لاقتسام الغنائم التي خلفتـها القـوات المنسـحبة، أما فى هذه المرة فلم يكن بوسع بلدويـن القيـام بـهذه المطـاردة لمـا منيت به قواتـه مـن الخسـائر ، فـاكتفى بنـهب المعسـكر الإسـلامي والاستيلاء على كل ما فيه دون القيام بمحاولة تتبع المنهزمين(٣) .

ومن جهة أخرى لو لم تنته المعركة إلى هذه النتيجـة المشـار إليـها ، فـلا بـد وأن بلدويـن كـان سـيتحول إلـى دمشـق لمهاجمتـها لسببين : أولا لمساهمة طغتكين بقواته مع المصريين فـى المعركـة الأخيرة ، وثانيا تظاهرا منه بمعاونة الأمير السـلجوقى أرتـاش بـن تتش الذى طلب معونته ضد طغتكين ، ومـن الطبيعـي أن يحـرص بلدوين فى نشوة انتصاره لو حدث فعلا دون تلـك الخسـائر الهائلـة أن يوقع الذعر فى الجبهة الأخرى التي بـات معلومـا نواياهـا ضـد المملكة بما أقدمت عليه من المساهمة الفعلية فى حربه .

ومن الدليل على أن شيئا من ذلـك لـم يجـل بفكـر بلدويـن مـا حدث من انصراف أرتاش عنه بعد يأسه من الحصول على معونته المرتقبة وتفضيله الانسحاب من فلسطين كلها ميممـا وجهـه شـطر الرحبة على الفرات.

---

(3) Runoiman : op. cit. II. P. 90

وهكذا يستنتج أن النصر الذى أحرزه بلدوين فى موقعة الرملة الثالثة لم يكن نصرا نهائيا أو حاسما ، بل نكاد نجزم أن القوات الفاطمية لو قدر لها مرة واحدة أن تصمد فى وجه الصليبيين الذين قاتلوها فى كل مرة فى قوات تصغرهم بكثير لأصبح من الممكن جدا أن تقضى فى محاولة واحدة على هذا الخطر وتكسر شوكته وتستعيد منه نفوذها فى المنطقة .

أما الأسطول المصري فقد انسحب عائدا إلى مصر دون ان يقوم بأي نشاط على الساحل الشامي ولم يحقق أية فائدة بالنسبة للقوات المحاربة هناك ، بل إنه تعرض فى طريق عودته لعاصفة شديدة فقد بسببها بعض قطعه ومن ثم أكمل انسحاب الأسطول هناك وما فقده من سفن خطوط الهزيمة وفصول المأساة ، التي كانت آخر محاولة فاطمية كبيرة ضد صليبيي بيت المقدس ومن ثم فشلت الخلافة الفاطمية فى زحزحة الصليبيين من أماكنهم التي احتلوها بفلسطين نهائيا[1] .

أسباب فشل الفاطميين فى زحزحة الصليبيين عن المواقع التي احتلوها بالشام :

لم يقدر للفاطميين أن يصيبوا شيئا من النجاح فى محاولتهم المتكررة ضد صليبيي بيت المقدس وفيما اضطلعوا به من الجهاد

(1) Lane-poole : op. cit. V. VI. P. 165.

ضدهم فى هذا الدور المبكر من أدوار الجهاد الديني . وليس من شك فى أنها حالة تدعو إلى الأسف فعلا نظرا لكبر إمكانيات الخلافة الفاطمية وعظم مواردها البشرية والمادية حتى أن هذه الحالة استرعت انتباه المؤرخين المعاصرين واللاحقين ، فتعجبوا من عدم قدرة الخلافة الفاطمية على زحزحة الصليبيين من أماكنهم مع قدرتهم فى الأموال والأسلحة والرجال .

الواقع أن بعض العوامل تضافرت لإصابة جهود الدولة الفاطمية بالفشل أمام الصليبيين بفلسطين فى هذا الدور يسأل عن أغلبها الفاطميون أنفسهم .

وفى مقدمة هذه الأسباب عدم الإخلاص فى الحرب ، وصدق الرغبة فى التضحية والفداء وذلك على مستوى القادة وكذلك بين الجانب الأكبر من الجنود فبالنسبة للقادة فقد حرص أبناء الأفضل بالذات وهما اللذان قادا الحملتين الثانية والثالثة على حياتهما قبل أن يحرصا على إصابة النجاح ، فلا تكاد بوادر الهزيمة تظهر حتى يبادر كل بالفرار مع ما فى ذلك من أخطار بالنسبة لجموع الجيش بأسره بالرغم من أن ثبات القائد تكون أحيانا من عوامل قلب الهزيمة إلى نصر ساحق ولكن لم يحدث شيء من ذلك فى المحاولات التي قادها أبناء الأفضل لأنه يبدو أن الأفضل كانت تهمه سلامة أبنائه قبل أن يهتم بأي شيء آخر ، بل حرص هو

شخصيا على حياته فأحجم كلية عن الخروج بنفسه فى هذه المحاولات الثلاث كقائد للجيش منذ أن لحقت به هزيمة عسقلان فى ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ م على يد جود فرى بوايون ، مع ما فى خروجه من شحذهمم جنوده ورفع معنوياتهم . أما فى الحملات التي قادها قادة آخرون كتاج العجم وابن قادوس ، فقد انتهت قبل أن تبدأ فى الحقيقة مهمتها ، نظرا للخلاف الذى نشب بين هؤلاء القادة وأدى إلى فشل الجهود كلها . أما بالنسبة للجنود فواضح من سير المعارك الثلاث أنهم لم يكونوا على استعداد للثبات أو التفاني فى الحرب والإخلاص فيها إلى آخر مدى ويبدو أن ذلك راجع فى بعض جوانبه إلى اختلاف أهوائهم ومشاربهم وأجناسهم فقد كانوا خليطا من المصريين والسودان والعرب ، مع نقص ظاهر فى عملية إبراز الحافز لديهم وبث الحماس فيهم ، كما يبدو أنهم كانوا أقل كفاءة ومقدرة حربية من جنود الصليبيين نظرا لضعف تدريبهم وقلة توجيههم ، فليس من المعقول أن تتابع ثلاث معارك كبيرة لا تحقق قوات كبيرة كهذه فيها نصرا مؤزرا يعين لنا درجة خاصة من الكفاءة الحربية والعسكرية، فقد انتهت كل المعارك بالهزيمة باستثناء معركة الرملة الثانية التي عاد الفضل فى نجاح الجيش الفاطمي فيها – كما سبقت الإشارة – إلى صغر القوة الصليبية

وقلة حذرها مما أوقعها فريسة سهلة لقوات تفوقها عددا وعدة وإن لم تفقها كفاءة حربية فى أغلب الظن .

وثمة سبب أخر يفرض نفسه ضمن أسباب فشل الفاطميين بالرغم مما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أنه يعد من دوافع النصر لا من عوامل الانهيار ألا وهو بقاء مدينة عسقلان فى أيدي الفاطميين خلال تلك الأحداث .

حقيقة يعتبر نجاح الفاطميين فى حفظ عسقلان من السقوط فى أيدي الصليبيين بالرغم من محاولات هؤلاء الدائبة لإسقاطها أمر يدعو إلى الارتياح بقدر ما لهذه المدينة من أهمية فى هذا الموقع الهام بالنسبة لأية محاولة ضد مصر نفسها وكقاعدة للانطلاق ضد الصليبيين فى الساحل الشامي وبيت المقدس ، وحقيقة ظلت عسقلان شوكة فى جنب الصليبيين بفلسطين مدة طويلة لم يهدأ لهم روع إلا بإسقاطها فى٢٢ أغسطس سنة ١١٥٣ م كل هذا ليس لدينا أدنى شك فى صحته ولكن كان الجانب الآخر انعكاسا لأضرار الحفاظ على هذه المدينة بأيدي الفاطميين فيما يختص بمحاولاتهم ضد صليبي بيت المقدس على وجه الخصوص فى المحاولات التي عرضنا لها.

فليس من شك فى أن شعور الجيوش الفاطمية المحاربة فى فلسطين بأن عسقلان قاعدتهم الرابضة على البحر بأسوارها

الشامخة وتحصيناتها القوية تقع خلفهم وعلى بعد يسير من ميدان المعارك التي دارت قرب الرملة فى المحاولات الثلاث ، هذا الشعور فى حد ذاته لا يعطى لحربهم شيئا كبيرا من الفدائية أو المجازفة أو القتال اليائس إذ أنه لا يكلف القوات المحاربة أكثر من ارتداد سريع ناحية عسقلان للاحتماء بأسوارها ، ثم لا تلبث سفن الأسطول المصري أن تنقلهم إلى مصر بعد أن توضع هالة كبيرة حول أسباب الفشل تغطى هذا الانسحاب المزري ، ولا تلبث المحاولة أن تنتهي إلى لا شيء فى كل مرة ، وقد تأكدت الجيوش الفاطمية من سلامة الارتداد فى كثير من الأحيان ، فرغم ما كانت تتعرض له هذه الجموع المنهزمة لأخطار المطاردة من جانب الصليبيين إلا أن المطاردة كانت تنتهي بسرعة بالوصول إلى عسقلان ، ثم لا يلبث الصليبيون أن يتراجعوا أمام حصانة المدينة من ناحية والمسارعة إلى اقتسام المغانم التي خلفتها القوات المنهزمة من ناحية أخرى .

والواقع أن شعور الجندي المحارب بصعوبة الظروف التي تواجد فيها وبأنه لا مفر له من القتال اليائس حتى يحمى نفسه ويدافع عن أهدافه هذا الشعور له أثر كبير فى إحراز النصر من أقرب الطرق ، والتاريخ مليء بالشواهد والقرائن التي تؤكد هذا الاتجاه ، لا نريد أن نذهب بعيدا بضرب المثل بطارق بن زياد

وفتح الأندلس وغير ذلك من الشواهد بل نؤكد هذا الاتجاه من واقع الحروب الصليبية الأولى ذاتها فى السنوات القليلة السابقة لهذه الأحداث وخاصة الحرب عند إنطاكية ، وخروج الصليبيين منها لمحاربة المسلمين حربا يائسة ، فاستطاعوا أن يحصلوا على النصر فى النهاية بشيء يسير من الاستبسال والمجازفة .

على كل حال لم يكن وجود عسقلان خلف القوات الفاطمية المحاربة بما تمثل فى هذه القوات من نقص ظاهر فى عملية الشحن المعنوي ، أمرا له حسناته بقدر ما كان له من أضرار فى هذه المحاولات .

أما السبب الثالث من أسباب فشل المحاولات الفاطمية المتكررة هو سلاح كان يمكن تحويله إلى عامل من عوامل النصر وأداة مغيرة لسير المعارك ونقصد به الأسطول المصري الكبير حينئذ .

الواقع أن المحاولات الفاطمية الثلاث على فلسطين أثبتت ضعف استفادة القوات المحاربة من وجود الأسطول الكبير فى البحر وهو الذى كان يتحرك غالبا مع كل حملة برية لمساندتها بحرا ، مع أنه لو استغل كما يجب لأحدث أضرارا بالغة للوجود الصليبي فى الساحل الشامي كله .

وقد وضح ضعف استغلال هذا الأسطول أو قلة إمكانياته فى المحاولة الثانية بصفة خاصة عند يافا حينما تمكنت السفن الصليبية الحاملة لأعداد وافرة من الجند والحجاج من اختراق حصاره ليافا والوصول إلى الميناء ذاته حيث غيرت هذه الجموع الصليبية سير المعركة وقلبتها رأسا على عقب بالرغم من التفوق الذى أمست فيه القوات الفاطمية وارتباك بلدوين الأول – وانزعاجه على أثر هزيمته فى الرملة ، فلو قدر للأسطول المصري الذى دأبت الروايات على وصفه بأنه كان كبيرا وضخما النجاح فى منع هذه السفن الغربية من الوصول إلى الميناء بأية وسيلة ولو تكبد شيئا من الخسائر، إذن لبقى التفوق للقوات الفاطمية عند يافا ، ولأضحى مصير الصليبيين رهنا بمعركة غير متكافئة مع القوات الفاطمية عندها . فإذا افترضنا أن سبب ذلك يستند إلى ضعف إمكانياته وتسليحه بما يضمن له دورا أكبر فى المعارك الحربية البحرية فما الذى منع الأفضل ، وكان لدية فسحة كبيرة من الوقت، بلغت بين المحاولة الأولى والثالثة نحو خمس سنين ، من أن يولى هذه الناحية قدرا كافيا من الاهتمام لإنشاء أسطول قوى برجالة وتسليحه حتى يستطيع استخدامه خير استخدام.

الحقيقة أن الفاطميين لم يتنبهوا إلى كل ما يكفل لهم النصر مع عدو وضح من سياسته حرصه على حماية نفسه ومكاسبه ،

وحرص كذلك على بقاء طريقه مفتوحا إلى البحر بموانيه ليكون على صلة دائمة بالغرب المسيحي ، وكان على الفاطميين دراسة العوامل المؤثرة فى خطط هذا العدو وحوافز بقائه بين ظهرانيهم ، ولن نغالي كثيرا إذا ذهبنا إلى أن منع الصليبيين بأية وسيلة من السيطرة على يافا وحيفا وأرسوف وقيسارية ثم عكا من بعد ، وحصرهم فى الجهات الداخلية كان يجب أن يكون عصب السياسة الفاطمية فى مصر أو كان يجب أن يكون فى مقدمة أهدافهم استعادة هذه المدن بعد ضياعها فعلا من أيديهم .

وهناك أمر أخر يدعو إلى العجب فعلا ، وهو يتعلق بأموال الأفضل التي كان يجب أن يضعها فى خدمة الجهاد الديني فى هذه المرحلة الحرجة إذا كان له أن يحرز انتصارا عليهم أو أراد زحزحتهم من الأماكن التي احتلوها .

ذلك أن المراجع تطالعنا بقوائم طويلة للأموال والكنوز والنفائس التي عثر عليها بقصور الأفضل عقب مقتله فى عام ١١٢١م (٥١٥هـ) حيث أقام الخليفة الآمر فى دور الأفضل أربعين يوما والكتاب بين يديه يكتبون ما ينقل إلى القصر من ذخائر وأموال ونفائس تجل عن الوصف[1] .

---

(1) Lane-poole : op. cit. p. 165

والواقع أن الدارس لا يسعه إلا أن يتعجب أمام قوائم الأموال والنفائس التي عثر عليها فى بيوت الأفضل إذ " وجد له ستة آلاف ألف دينار عينا (٦ مليون) وفى بيت الحاضر ثلاثة آلاف ألف دينار (٣ مليون) وفى البيت البراني ثلاثة آلاف ألف ومائتي وخمسين ألف دينار (٣,٤ مليون) وخمسين إردبا دراهم ورق وثلاثين راحلة من الذهب العراقي المعزول برسم الرقم وعشر بيوت فى كل بيت منها عشرة مسامير ذهب كل مسمار وزنه مائتا مثقال عليهم العمائم المختلفة الألوان[١] .

هذا عدا النفائس التي استغرق إحصاؤها وقتا طويلا "تسعمائة ثوب ديباج ملون وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتنيس برسم كسوة بدنه ولعبة عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه ليكسب الراحة ومن الطيب والنحاس والآلات ما لا يحصيه عدد ودواة يكتب منها مرصعه بالجوهر قوم جوهرها باثني عشر ألف دينار وخمسمائة ألف مجلد من الكتب " [٢].

كذلك وجد لديه " من الأبقار والجاموس والأغنام والجمال ، ما بلغ ضخامة ألبانه ومناخه أربعين ألف دينار فى السنة " [٣].
وكان قد استكمل بناء دار الملك التي جعلها مقر إقامته ونقل إليها "

---

(1) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٥٧
(2) نفس المصدر ج ٢ ص ٥٧
(3) نفس المصدر : ص ٥٨

من التحف والأموال والأمتعة ما يعجز عن بعض وصفه اللسان"[1] حتى الأطباق كانت من الفضة والذهب الخالص ، فقد عثر لديه على " سبعمائة طبق فضة وذهب من الآلات كالاسطال والصحاف والشربات والأباريق والقدور والزبادي والقطع من الذهب والفضة المختلفة ما لا يحصى كثرة ومن براني الصيني الكبار والمملوءة بالجوهر التي بعضها منظوم بسبح وبعضها منثور شئ كثير "[2] .

والواقع أن ثراء الأفضل كان فاحشا بل أنه كان مغاليا فى كل شئ حتى فى شهواته ونزواته إذ ترك ثلاثمائة جارية منها حظايا له خمسون جارية لكل واحدة منهن حجرة وخزائن مملوءة بالكسوة والآلات والديباج والذهب والفضة، " وحمل من داره أربعة آلاف بساط "[3] .

على كل حال دلت هذه القوائم على أن الأفضل لم يحاول أن يجعل من أمواله سندا لمشروعاته العسكرية فى فلسطين ، وكما سبقت الإشارة قصر الأفضل كثيرا فى إعادة إنشاء أسطوله وتقويته ، كما لم يستطع الأفضل أن يسخر أمواله فى أعداد جيشه

---

(١) ابن ايبك : دور التيجان وغرر تواريخ الازمان ق ٣ ورقة ٣٣٩ (تصوير شمسى)
(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٥٨
(٣) نفس المصدر السابق ٢ ص ٥٨

وتسليحه والإكثار من الجنود والفرسان وتدريبهم مع قدرته على ذلك .

وشئ آخر يمكن أن تفيدنا به هذه القوائم المطولة لثراء الأفضل ، وهو أن الأفضل لا شك كان قد خلد إلى حياة الدعة والرفاهية التي كان يحياها فى مصر فى هذا الجو المفعم بأنواع اللذات والشهوات . وربما يفسر لنا ذلك إحجامه عن الخروج بنفسه إلى فلسطين على رأس قواته ، وتكليف قواده وأبنائه بذلك ، مع ضخامة المشروع وكبر الأهداف التى خرجوا من أجلها .

كانت هذه بعض أسباب فشل المحاولات الفاطمية ضد الصليبيين فى فلسطين وكلها ترجع دون شك إلى الفاطميين أنفسهم، وتعين لنا قصورا لديهم فى هذه الناحية ، بالرغم من أن الجانب الصليبي كان له فضل فى حماية نفسه من هذا الخطر بفضل يقظته وبفضل النجدات التي تصله من الإمارات اللاتينية الأخرى فى الرها وإنطاكية ومن الغرب الأوربي كما حدث فى المحاولة الثانية على وجه الخصوص . فاستطاع الصليبيون أن يتغلبوا على العقبات الناجمة من نشاط الفاطميين المتواصل ضد مملكة بيت المقدس .

وفضلا عن ذلك لم تفتقد القوات الصليبية روح الفداء والمجازفة وصدق النوايا ، ولا وحدة القيادة وتقديرها لمسئوليتها

وهى أمور عانى منها الجانب الإسلامي كثيرا . كما كانت ظـروف الصليبيين وحرج موقفهم فى بلاد اغتصبوها وأثاروا ضدهـم كافـة القوى المجاورة تحتم عليهم اليقظة الدائبة والتضحية والفدائية وإلا هلكوا وسط ذلك الحشد المعادى لهم .

وهكذا انتهت آخر المحاولات الفاطمية الكـبرى فـى فلسـطين لزحزحـة الصليبيين مـن أماكنـهم وإن لـم تنتـه أخطـار الفـاطميين بالنسبة للكيان الصليبي ذاتـه فـى بـلاد الشـام ، ففـي عـام ١١٠٦ م انتهزت القوات الفاطمية فرصة انشغال بلدوين فـى إقـرار الوضـع والحدود فى الجليل وقامت بالإغارة على معسكر الفرنـج بيـن يافـا وأرسوف وكبدوا الصليبييـن خسـائر جسـيمة ، وفـى عـام ١١٠٧م أغارت حملة مصريـة علـى حبرون وكـادت تسـتولي عليـها لـولا مسـارعة بلدويـن إلـى إنقاذهـا[1] أمـا فـى عـام ١١١٠م فقـد شـقت القوات المصرية طريقها إلى أسوار بيت المقدس ذاتها ، ولكنهم لم يطيقوا صبرا فما لبثت أن انسـحبت هـذه القـوات مـن أمـام أسـوار المدينة دون أن تحقق غرضا[2] أى أن الخطـر الفـاطمي ظـل يـهدد الصليبيين في بيت المقدس بعد فشل الحملات الفاطمية الكبرى .

بقيت نقطة أخيرة قبل أن نطوى الحديـث عـن الـدور المبكـر من أدوار الجهاد الديني لـدى الفـاطميين فـى مصـر ، وهـى تتعلـق

(1) Runciman : op. cit. II. P. 90-91

(2) Runciman : op. cit. II. P.-91 Albert of Aix, p.p. 646-7

بأثر فشل الحملات الفاطمية فى فلسطين بالنسبة لوضع المسيحيين فى مصر أو بمعنى آخر ماذا كان رد الفعل الذى أحدثته حركة الجهاد الديني الفاطمي وفشلها فى النهاية على علاقة المصريين بالمسيحيين فى مصر ؟

الحقيقة أن هذه النقطة لها ما يبررها ، فما يسترعى الانتباه أنه بينما لقي الآلاف المؤلفة من الأبرياء المسلمين من الرجال والنساء والأطفال حتفهم على أيدي القوات الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين بالذات وفى المدن والمواني التي سقطت مؤخرا ، نجد أن علاقة الود والإخاء كانت تسود بين المسلمين والمسيحيين فى مصر حتى شهد بذلك كتاب النصارى أنفسهم .

ويذكر المؤرخ النصراني أبو صالح الأرمني فى معرض حديثه هن دير نهيا (قرب الجيزة) أن الخليفة الآمر بأحكام الله حضر إلى هذا الدير فى وزارة محمد بن فاتك ودخل الدير وطاف بالكنيسة " ودفع للرهبان ألف درهم بعد ضيافتهم له وخرج من الدير يتصيد "[1] . وكان الآمر يتردد على الدير فى مواكبه وعساكره ، وفى كل مرة يخرج إلى الصيد فى هذه الجهة ، فيلقاه الرهبان بالترحاب ويضيفونه " فجعل لهم فى كل ركبة يطرق

(1) تاريخ أبى صالح الارمنى ص ٧٧-٧٨ Translat by : B.T.A. Evelt

الدير فيها ألف درهم فحصل لهم من ذلك خمسه وعشرون ألف درهم ورقا صحاحا "[٢] .

ويبدو أن الرهبان رأوا فى الآمر تسامحا ظاهرا وقلة تعصب وضح فى " مثل هذه الإنعام فصار لهم إدلال عليه فسألوه أن يطلق للدير طينا يزرعونه فى كل سنة فأجاب سؤالهم وأنعم على الدير فى أراضى ناحية طهر مس من الجيزة تمليكا ثابتا منه بخط يده قطعة أرض ما يقارب ثلاثين فدانا " . واستمر هذا الإقطاع قائما . إلى أن استولت عليه الحكومة المصرية سنة ٥٦٤ هـ " انتزعوها من ملك الدير ولم يبق لهم سوى المصيدة ينتفعون بما يصيدونه فيها " [١] .

وهكذا ظلل الصفاء والإخاء بين المسلمين والأقباط فى مصر ولم يحدث بمصر رد فعل لما قام به الصليبيون فى الشام والأراضي المقدسة من مذابح رهيبة ، أو عندما فشلت محاولات الفاطميين فى فلسطين ولقيت كثيرا من الخسائر فى الأرواح والأموال والعدد والسلاح ، ربما يؤكد تحلى الفاطميين فى مصر بشيء ليس يسير من التسامح الديني وقلة التعصب ، لأنهم لم يقوموا بأي تصرف يفرغون فيه حصيلة فشلهم فى الأراضي المقدسة على حساب المسيحيين فى مصر فكانوا بذلك نظيفي

---

(2) نفس المصدر ص ٧٧-٧٨

(1) نفس المصدر ص ٧٨

الأيذي دون شك وحفظوا للجهاد الديني معناه المعـروف وهـو أنـه جهاد ضد عدو سطا وسلب ونـهب وقتل باسـم الديـن والديـن منـه بريء ، وليس جهادا ضـد المسـيحيين أنفسـهم أو ضـد عقيدتـهم أو ضد أفكارهم ومبادئهم .

هذه هي البذور الأولى لحركة الجـهاد الدينـي ، لعل أهـم مـا يميزها أن الشق الأول منها وهو حملة كربوغـا التـى خرجـت مـن الموصل كانت البذرة الأولى لجهاد عماد الدين زنكـى الـذى خـرج مـن الموصـل أيضـا ودك إمـارة الرهـا الصليبيـة ، ووضـع بدايـة النهاية بالنسبة للكيان الصليبي ، وكـان شقها الآخر وهـو حمـلات الفاطميين على فلسطين البذرة الأولى للجهاد الأكبر الذى تفجر من مصر أيضا على يد الناصر صـلاح الديـن بـن أيـوب الـذى أسـقط مملكة بيـت المقدس الصليبيـة ، وقـوض صـدارة الصليبييـن بـهذه البـلاد ، وتـرك فلولـهم ليقضـى عليـها كـل مـن الظـاهر بيـبرس والمنصور قلاوون ثم أخيرا الأشراف خليل بن قلاوون ، وهم من سلاطين دولـة المماليك الأولى فى مصر .

مصادر ومراجع خاصة بتاريخ مصر الإسلامية

١ – ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على):

– الكامل فى التاريخ

٢ – ابن اياس (محمد بن أحمد):

– كتاب تاريخ مصر المعروف باسم بدائع الزهور فى وقائع الدهور

٣ – البلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى):

– سيرة أحمد بن طولون. نشرة محمد كرد على

٤ – ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف):

– النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة

٥ – ابن خلدون (عبد الرحمن):

– المقدمة، العبر وديوان المبتدأ والخبر

٦ – ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد):

– وفيات الأعيان

٧ – أبو يوسف

– كتاب الخراج

٨ - السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر):

- تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين

- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة

٩ - ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى):

- معجم البلدان

- معجم الأدباء

مراجع حديثة

١ – دكتور حسن إبراهيم حسن:

– تاريخ الدولة الفاطمية

٢ – دكتور زكى محمد حسن:

– مصر والحضارة الإسلامية

٣– دكتورة سيدة اسماعيل الكاشف:

– مصر فى فجر الإسلام

– مصر فى عصر الأخشيديين

– مصر فى عصر الولاة

٤ – دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور وعبد الرحمن الرافعى

– مصر فى العصور الوسطى

٥ – دكتور جمال الدين سرور

– مصر فى عصر الدولة الفاطمية

– النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب

– النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق

– سياسة الفاطميين الخارجية

مراجع أجنبية

Arnold:

- The Capliphate.

Lane- Poole:

- Mohammadan Dynasties
- The art of the Saracens
- The Story of Cairo
- History of Egypt in the Middle Ages

Le Strange:

- Plestine Under the Moslems

Marcel:

- Histoire de l'Egypt depuis la conquete des Arabes

Muir;

- The Caliphate, its Rise, Decline and Fall

المحتويات

الفصل الخامس